عبد السلام هارون

تهذيب سيرة ابن هشام

الجزء الأول



ملتزم الطبع والنشر
دار سعد مصر
للطبع والنشر والإعلان
١٠ شارع كامل صدقي باشا بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

نورٌ وهّاج أفضى إلى ظلمات الجهل والوثنية فانجابت كما ينجاب الغمام ، وهُدًى من الله أرسله إلى هذه الإنسانية الضالّة فانتشلها من ضيعةٍ وانتاشَها من هلاك ، وأنقذها مما كانت تتخبّط فيه من دياجير الظلام وعقابيل الضلال .

كانت حياته صلى الله عليه وسلم صفحةً عريضة من صفحات الجهاد لإنقاذ هذه البَشريَّة ، ومثلًا صادقًا من مُثُل البرّ والمرحَمة ، وسيرةً عالية سامية فى معاملة الخالق ومعاملة المخلوق ، تلمع أضواء هذه السيرة فى كتاب الله الذى يقول : « وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيمٍ » ، وفى آفاق الكتب الوثيقة التى خَطَّها العلماء منذ القدم ، متضمّنةً نفحاتٍ من هذا العطر ، ووَمَضاتٍ من ذلك الإشراق .

صلى الله عليه وسلم ، ورضىَ وأنعم .

تقديم

التاريخ والسيرة :

لم يعرف العرب التاريخ فى جاهليتهم إلا ما توارثوه بالرواية ، وكانت طبيعة التاريخ حينئذ مسايرة لطبيعة الحياة العربية ، ففيه مفاخر الآباء والأجداد ، من بطولة ومن كرم ومن وفاء ، وفيه الأخبار تدور حول الأنساب والأحلاف ، وفيه ما صنعوا من حديث يَذكر تاريخ البيت وسدنته ، وزمزم وانبعاثها ، وأنباء جرهم وأمراء قريش ، وسد مأرِب الذى انبثق فتفرق القوم إثره فى البلاد ، وما كان من أخبار الكهان وأسجاعهم ، ونحو ذلك مما يصوّر حياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية .

وجاء الإسلام وتلك الأخبار تروى ، وتلك الأنباء تؤثر ، ثم وجدوا فى ظهور دعوة الإسلام وما سبقها من إرهاص بالنبوة ، ومن حياة الرسول الأولى ونشأته الكريمة ، وما تلا ذلك من أنباء الرسالة وأنباء المسلمين أصحاب رسول الله ، وأخبار أعداء رسول الله ، وسيرة رسول الله فى المسلمين والمشركين والنصارى واليهود ، مادة غزيرة النبع واسعة الآفاق ، فتداولوا بينهم تلك الأخبار من طريق الرواية كذلك ، وكان القرآن الكريم والحديث النبوى وكلام الأصحاب ، سجلا حافلا لتلك الحياة الجديدة .

كان القرآن مكتوبا ، ولكن الحديث النبوى ظل دهرا طويلا فى منأى عن الكتابة ، لا يعرفه الناس إلا رواية موثوقا بها ، ولم يجرؤ أحد أن يكتب الحديث بصفة عامة ، استجابة لما ورد فى حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عنى شيئاً سوى القرآن فليمحه » .

وكانت الحكمة فى هذا ظاهرة ، وهى الخشية من أن يختلط الوحى بحديث الرسول فى أثناء نزول الكتاب . وواضح أن هذا الأمر إنما كان يقصد به المحافظة على هذا الغرض الكريم ، وكان بلا ريب موقتا بنزول القرآن .

وظل الأمر كذلك حتى كانت أيام عمر بن عبد العزيز ، الذى ولى الخلافة من سنة ٩٩ إلى سنة ١٠١ . ويذكرون أنه ظل يستخير الله أربعين يوماً فى تدوين الحديث ، فخار الله له ، وأذن لأبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم فى تدوين الحديث ، فدون ما كان يحفظه ، فى كتاب بعث به إلى الأمصار . وكان هذا أبو بكر قاضياً ووالياً على المدينة ، وتوفى سنة ١٢٠ .

كما أمر عمر بن عبد العزيز أيضاً محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، شيخ مالك ، أن يدون حديث رسول الله ، فصنع فى ذلك كتابا .

واستمر المسلمون من بعد ذلك يؤلفون فى الحديث ، لا تتقيد كتبهم بنهج خاص فى التنسيق والترتيب ، بل يجمعونها كما يتفق لهم ، وقد يصنف أحدهم كتابا فى باب خاص من أبواب التشريع . ثم تدرج التصنيف فألفيناهم يبوبون كتب الحديث ، ويفردون من ذلك أبوابا خاصة لأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، يذكرون ما كان من أمر ولادته ورضاعه وما بعدهما إلى البعثة ، ثم يفصلون أحواله بعد ذلك فى مكة ، من دعوته قريشاً إلى دين الله ، وصبره على إيذائهم له ولأصحابه ، ويتناولون أخبار الغزوات والسرايا وما أشبه ذلك من أمور الجهاد .

وانطلق المؤرخون فى سبيل آخر يؤلفون فى التاريخ كتبا عامة ، وقد يخصص أحدهم تاريخا لحياة الرسول الكريم ، يشبعون بذلك ميولهم الدينية الخاصة ، التى ترى فى الرسول — لاريب — قدوة المسلمين ، وهدى المهتدين .

مؤلفو السير :

فكان أول كتاب السيرة عروة بن الزبير بن العوام (٩٢) وأبان عثمان (١٠٥) ووهب بن منبه (١١٠) وشرحبيل بن سعد (١٢٣) وابن شهاب الزهرى (١٢٤) وعبد الله بن أبى بكر بن حزم (١٣٥) . وقد بادت كتب

هؤلاء جميعا لم يبق منها إلا أشلاء متناثرة فى بطون كتب التاريخ كتاريخ الطبرى ، وإلا قطعة من كتاب وهب بن منبه محفوظة فى مدينة هيدلبرج بألمانيا .

ثم جاءت طبقة من المؤلفين كان أشهر رجالها موسى بن عقبة (١٤١) ومعمر بن راشد (١٥٠) ومحمد بن إسحاق (١٥٢) .

وطبقة أخرى كان منها زياد البكائى (١٨٣) والواقدى صاحب المغازى (٢٠٧) وابن هشام (٢١٨) ومحمد بن سعد صاحب الطبقات (٢٣٠) .

سيرة ابن إسحاق :

وكان أشهر هذه الكتب وأعلاها مقاما وأشدها وثوقا ، سيرة محمد بن إسحاق[1] التى ألفها فى أوائل أيام العباسيين . يروون أنه دخل على المنصور ببغداد ، وبين يديه ابنه المهدى ، فقال له المنصور : أتعرف هذا يا ابن إسحاق ؟ قال : نعم ، هذا ابن أمير المؤمنين . قال : اذهب فصنف له كتابا منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى يومك هذا . فذهب ابن إسحاق فصنف له هذا الكتاب ، فقال له : لقد طولته يا ابن إسحاق ، اذهب فاختصره . وألقى الكتاب الكبير فى خزانة أمير المؤمنين .

سيرة ابن هشام :

وقد جاء بعده ابن هشام[2] فروى لنا هذه السيرة مهذبة منقحة بعد تأليف ابن إسحاق لها بنحو نصف قرن ، بوساطة رجل واحد ، هو زياد البكائى[3] .

---

١ ـ هو محمد بن اسحاق بن يسار بن خيار ، أبو عبد الله المدنى القرشى ، مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف . كان جده يسار من سبى عين التمر ، بلدة غربى الكوفة على طرف البرية ، افتتحها المسلمون فى خلافة أبى بكر سنة ١٢ فجىء به الى المدينة ، وولد حفيده محمد فيها سنة ٨٥ وأنضى بالمدينة ثوب شبابه ورحل الى البلدان الاسلامية ، وكانت رحلته الى الاسكندرية فى سنة ١١٥ فحدث عن جماعة من المصريين ، ثم رحل الى الكوفة والجزيرة والرى والبحيرة وبغداد حيث ألقى عصاه ووافته منيته فيها سنة ١٥٢ . وفيه يقول ابن عدى : « لو لم يكن لابن اسحاق من الفضل الا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شىء للاشتغال بمغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومبعثه ومبتدأ الخلق ، لكانت هذه فضيلة سبق بها ابن اسحاق .

٢ ـ هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى . كان منشؤه بالبصرة ، ثم نزل مصر واجتمع به الأمام الشافعى ، وتناشدا من أشعار العرب الشىء الكثير . وصنف ابن هشام سوى تهذيبه سيرة ابن اسحاق كتابا فى أنساب حمير وملوكها ، وكتابا فى شرح ما وقع فى أشعار السير من الغريب . توفى بالفسطاط سنة ٢١٨ .

٣ ـ هو الحافظ أبو محمد زياد بن عبد الملك بن الطفيل البكائى العامرى الكوفى ، والبكائى نسبة الى بنى البكاء من بنى عامر بن صعصعة . قدم زياد الى بغداد وحدث بها بالمغازى عن محمد بن اسحاق ، وبالفرائض عن محمد بن سالم ، ثم رجع الى الكوفة فمات بها فى خلافة هارون سنة ١٨٣ . وكان ابن هشام يقدر هذا الشيخ حق قدره ، فيقول فى صدر كتابه : « وأنا تارك أشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته »

ولم يكن كتاب ابن إسحاق الذى رواه ابن هشام بهذا القدر الذى بين أيدينا اليوم ، فإن ابن هشام تناول جوانب سيرة ابن إسحاق بكثير من التحرير ، والاختصار ، والإضافة ، والنقد أحيانا ، والمعارضة بروايات أخر لغيره من العلماء كذلك . وقد ساق فى صدر السيرة بعض منهجه لرواية ذلك الكتاب .

ونحن لا نشك مع ذلك أن ابن هشام كان ملتزما جانب الأمانة والحرص فى رواية كتاب ابن إسحاق ، لم يبدل منه كلمة واحدة ، ولم يزد كلمة لبيان الخطأ أو شرح الغامض أو معارضة الروايات إلا صدرها بقوله « قال ابن هشام » .

وأما الاختصار فإنه كان المقصد الأساسى من روايته للسيرة ، فحذف ما كان قبل تاريخ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام منذ بدء الخليقة ، وكذا حديث أبناء إسماعيل ، والأخبار التى ليست من السيرة فى شىء — فيما كان يراه هو — وحذف الأشعار الكثيرة التى كان يشك فى مبلغ روايتها من الصحة .

والمتعقب لأصل السيرة من رواية ابن هشام يلمح فى ذلك طابع الحرص الشديد والأمانة الصارمة ، التى كانت سمة العلماء المسلمين فى تلك العصور القديمة .

منزلة سيرة ابن هشام :

ومهما يكن من شىء فإن كتاب ابن إسحاق كان العمدة لقراء السيرة منذ قديم الزمان إلى يومنا هذا ، ولا تكاد تجد رجلا أوغَلَ فى دراسة سيرة الرسول إلا وكتاب ابن إسحاق إمامه الأول فى ذلك .

وقد عرفت سيرة ابن إسحاق بين العلماء منذ عهد عهيد باسم « سيرة ابن هشام » لما أنه كان راويَها ومهذبها . يقول ابن خلكان : « وابن هشام هذا هو الذى جمع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من المغازى والسير لابن إسحاق ، وهذبها ولخصها ، وهى السيرة الموجودة بأيدى الناس ، المعروفة بسيرة ابن هشام » .

وقد لقيت هذه السيرة من الدارسين والشارحين عناية صادقة ، شرحها

أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي[1] (٥٨١) شرحا مسهبا فى كتابه المسمى « الروض الأنف ».

وجاء بعده أبوذر الُخشَنى [2] ، فتصدى للكتاب فشرح غريبه ، وكتب شيئاً من النقد فى كتابه « شرح السيرة النبوية » الذى نشره الدكتور برونله .

وصنع بدر الدين محمد بن أحمد العينى شرحاً لها سماه « كشف اللثام ، فى شرح سيرة ابن هشام » فرغ منه سنة ٨٠٥ .

ومن ناحية أخرى نجد آخرين قد عنوا باختصار السيرة ، منهم برهان الدين إبراهيم بن محمد المرحل الشافعى ، اختصرها وزاد عليها بعض ما كان ينقصها فى كتاب جعله ثمانية عشر مجلسا ، سماه « الذخيرة ، فى مختصر السيرة » أتم تأليفه سنة ٦١١ . وأبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطى ، اختصرها فى كتاب سماه « مختصر سيرة ابن هشام » فرغ منه سنة ٧١١ .

وممن نظمها شعراً أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن سعيد الدميرى الديرينى وكانت وفاته فى حدود سنة ٦٠٧ . وأبو نصر الفتح بن موسى بن محمد المغربى المتوفى سنة ٦٦٣ . وأبو بكر محمد بن إبراهيم المعروف بابن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ . وقد سمى كتابه « الفتح القريب ، فى سيرة الحبيب » ، وهو فى بضع عشرة ألف بيت .

تهذيب سيرة ابن هشام :

وقد كنت فى صدر الشباب أحاول المرة بعد الأخرى أن أقرأ هذا الكتاب الجليل من مبتدئه إلى منتهاه ، فكان يصدنى عن ذلك ما كنت

---

١ ـ هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن احمد بن اصبغ الخثعمى السهيلى الاندلسى المالقى . وسهيل : واد بالاندلس من كورة مالقة . عاش حياته فى الاندلس اذ ولد بها سنة ٥٠٨ ، وأقام بمراكش أعواما ثلاثة حيث توفى بها سنة ٥٨١ .

٢ ـ هو أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الجيانى الخشنى ، نسبة الى خشين ، وهى قرية بالاندلس ، وقبيلة من قضاعة . ولد سنة ٥٣٣ وتوفى سنة ٦٠٤ .

أجده فى ذلك التأليف من اضطراب واستطراد يكد الذهن ويجلب السآمة ، فلا أقرأ منه إلا أجزاء متناثرةً أراها كالرياض فى صميم الفلاة ، يغرينى بقراءتها ما يجتذبنى من جمال القول وجلال الغاية .

والحق أننى كنت أجد فى تلاوة السيرة شيئا مما كنت أجد فى تلاوة الكتاب الكريم وحديث الرسول من تعبد صادق وخشوع خاضع . ولعل سرا دفينا كان ينزع بى إلى معاودة تلك التلاوة ، أن والدى رحمه الله كان ممن ألفوا فى السيرة ، صنع فى ذلك موجزا سماه « تلخيص الدروس الأولية ، فى السيرة المحمدية » ، جعله فى ثلاثين فصلا ، وظل ذلك الكتاب دهرا طويلا لا يدرس سواه فى المعاهد الدينية ، إذ كان من برامج الدراسة فيها درس خاص يسمى « درس السيرة » .

ولكنى مع ذلك لم أوفق لقراءة الكتاب كله ، لما ذكرت من اضطراب التأليف وشيوع الاستطراد . فقارئ السيرة تعترضه فصول طوال فى أسماء أسارى بدر ، وأسماء خيل المسلمين ببدر ، وجريدة من حضر ببدر من المسلمين من قريش ومن الأنصار ، ومن استشهد منهم يوم بدر ، ومن قتل به من المشركين ، وما قيل من الشعر فى يوم بدر ، وأشباه ذلك من الأمور السردية ، ومن الأشعار المسهبة والأنساب المطولة ، والاستطرادات اللغوية ، وطائفة من تفسير كتاب الله مما لا يدخل فى صميم السيرة وإن كان يحوم حولها . وشىء آخر هو السند الذى تصدر به معظم فقار السيرة ، مما ليس له قدر إلا عند الناقدين من العلماء .

فحاولت فى هذا « التهذيب » أن أستخلص لباب هذا التأليف لأقدمه إلى القارئ فى ثوب جديد يستسيغ النظر فيه ، ولا تنقطع به السبيل فى تلاوته ، مع الحرص التام على نص الكتاب ، بحيث يستطيع القارئ أن يقتبس منه ويستشهد به معزوًّا إلى أصله الأول ، فإنى لم أبدل حرفاً واحداً من نص الكتاب ، لأنى راعيت فيه أمانة الأداء ، وراعيت باطراد أن أنسب إلى ابن هشام ما هو له بأن أنص على ذلك فى صدر كلامه ، أو أجعله وحده فى حاشية الكتاب معزوا إليه ، طبقاً لما يقتضيه التأليف . وأما سائر النصوص فهى نصوص ابن إسحاق من

رواية ابن هشام . ولم أذكر من الأسناد إلا ما هو ضرورى لإقامة النص ، مما رواه ابن إسحاقَ أو ابن هشامٍ منسوبا إلى قائله .

وقد عُنيت أن أضبط تلك النصوص جميعا ، وأن أفسر منها ما يحتاج إلى توضيح ، معتمداً فى ذلك على شراح السيرة ، وكتب الآثار واللغة المعتمدة .

وأما بعد فإنّ التهذيب ضرب من التيسير لمن لم تتح له قراءة الأصل ، ووصلة صالحة تصل بين شباب اليوم وتراثهم القديم الكريم .

وبحسبك أنك تستطيع أن تقرأ هذا الكتاب فى أيام معدودات فتظفر منه بالخير العاجل الكثير ، وأنت إذا قرأت الأصل ، ولست بمطيقه ، اقتضاك هذا من الوقت أشهراً معدودات .

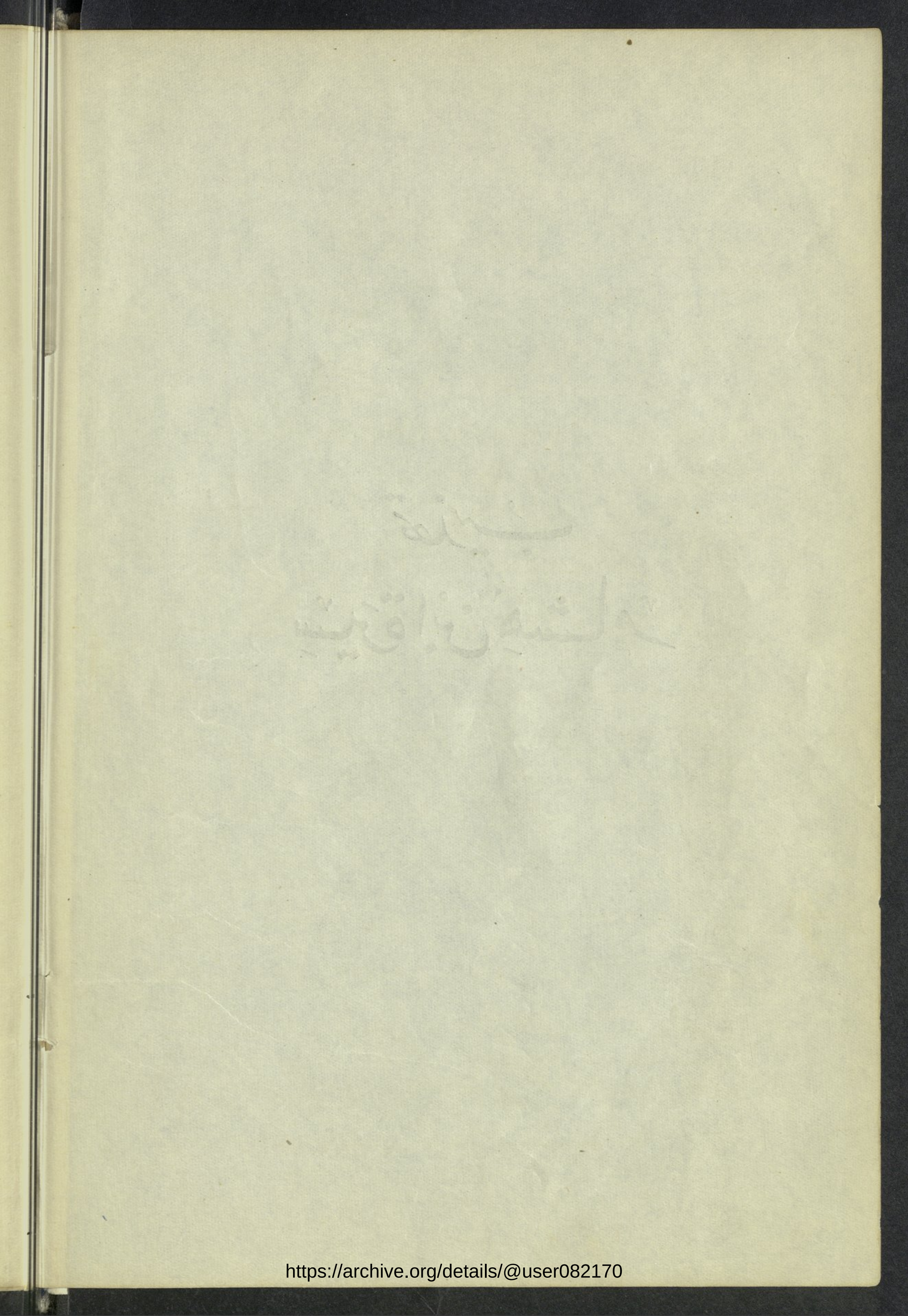
والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب نافعا ، كما أحتسبه فيما قدمت للعلم من مجهود ضئيل ، أردت به فيما أردت رضوانَ الله ورضوان الرسول ؟

مصر الجديدة فى منتصف رمضان سنة ١٣٧٤ .

عبد السّلام هارون

تهذيب

سِيرَة ابْن هِشَام



بسم الله الرحمن الرحيم

ذِكر سَرد النَّسب الزَّكىّ

من محمد صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام :

هذا كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : محمد بن عبد الله ابن عبدالمطَّلب (واسم عبدالمطلب شَيبة) بن هاشم (واسم هاشم عمرو) ابن عبد مَناف (واسم عبد مناف المغيرة) بن قُصَىّ (واسم قصى زيد) ابن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر ابن كِنانة بن خُزيمة بن مدركة (واسم مدركة عامر) بن الياس بن مُضَر ابن نِزار بن مَعَدّ بن عدنان بن أدّ بن مقوِّم بن ناحور بن تَيرح ابن يَعرُب بن يشجُب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن ابن تارح (وهو آزر) بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالخ بن عيبر ابن شالخ بن أرفَخشد بن سام بن نوح بن لَمْك بن متُّوشَلَخ بن أخنوخ (وهو إدريس النبى صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون) بن يَرْد بن مَهْليل ابن قَيْنَن بن يانِش بن شيث بن آدم صلى الله عليه وسلم .

قال ابن هشام :

وأنا إن شاء الله مبتدئٌ هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم ، ومن وَلَدَ رسولَ الله صلى الله عيه وسلم من وَلدِه وأولادهم لأصلابهم ، الأوّلَ فالأول ، من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وما يَعرض من حديثهم ، وتاركٌ ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة . للاختصار ، إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتاركٌ بعضَ ما ذكره ابن إسحاقَ فى هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شىء ، وليس سبباً لشىء من هذا الكتاب ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياءَ بعضُها يشنُع الحديث به ، وبعض يسوء بعضَ الناس ذِكره ، وبعضٌ لم يقرّ لنا البَكّائىُّ[1] بروايته ، ومستقصٍ إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له ، والعلم به .

(١) هو شيخ ابن هشام وتلميذ ابن إسحاق ، واسمه زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائى . والبكاء : بطن من بنى عامر بن صعصعة . توفى سنة ١٨٣ .

سياقة النسب من ولد إسماعيل

وَلد إسماعيلُ بن إبراهيم عليهما السلام اثنى عشر رجلا : نابتا ، وقيذر ، وأذبل ، وميشا ، ومسمعا ، وماشى ، ودما ، وأذر ، وطيما ، ويطور . ونبش ، وقَيذُم .

فولد نابت بن إسماعيل يشجب بن نابت ، فولد يشجب يعرب ، فولد يعرب تيرح ، فولد تيرح ناحور ، فولد ناحور مقوم ، فولد مقوم أدد ، فولد أدد عدنان .

فمن عدنان تفرّقت القبائل من ولد إسماعيل ، فولد عدنان رجلين : معدّ بن عدنان ، وعَكّ بن عدنان .

فصارت عكٌّ فى دار اليمن . وذلك أن عكا تزوّج فى الأشعريّين فأقام فيهم ، فصارت الدار واللغة واحدة . والأشعريون بنو أشعر بن نبت بن أدد بن هَمَيسع بن عمرو بن عريب بن يَشجُب بن زيد بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وولد معد بن عدنان أربعة نفر : نِزار ، وقُضاعة ، وقُنُص ، وإياد . فأما قضاعة فتيامَنَتْ إلى حمير بن سبأ . وأما قنص بن معد فهلكت بقيتهم فيما يزعم نُسّاب معد ، وكان منهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

رؤيا ربيعة بن نصر

وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة ، فرأى رؤيا هالَتْه وفظِع بها ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً[1] ، ولا منجّما من أهل مملكته إلّا جمعه إليه ، فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالَتْنى وفظِعت بها ، فأخبرونى بها وبتأويلها . قالوا له : اقصُصها علينا نخبرك بتأويلها ، قال : إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئنّ إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرف تأويلها إلّا من عرفها قبل أن أخبره بها . فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سَطيح وشِقّ ، فإنه ليس أحدٌ أعلمَ منهما ، فهما يُخبرانه بما سأل عنه .

فبعث إليهما فقدم إليه سَطيح قبل شِقّ ، فقال له : إنّى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظِعت بها فأخبرنى بها ، فإنك إن أصبتهَا أصبتَ تأويلها . قال : أفعلُ ، رأيتَ حُمَمة ، خرجت من ظُلُمة ، فوقعت بأرض تهِمة ، فأكلتْ منها كلُّ ذات جُمجمة[2] !

فقال له الملك : ما أخطأتَ منها شيئاً يا سطيح ، فما عندك فى تأويلها ؟

فقال : أحلفُ بما بين الحَرّتين من حَنَش ، لتهبطن أرضكم الحبَش ، فليملكُنّ ما بين أبْيَنَ إلى جُرَش[3] !

---

(١) العائف : الذى يزجر الطير ، يتكهن بأسمائها وأصواتها ومرورها .

(٢) الحممة : القطعة من النار . تهمة : منخفضة .

(٣) أبين وجرش : بلدان فى اليمن .

فقال له الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظٌ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أَوَ فى زمانى هذا أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السِّنين !

قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟

قال : لا ، بل ينقطع لبضعٍ وسبعين من السنين ، ثم يُقتلون ويخرجون منها هاربين .

قال : ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم بن ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن فلا يترك أحدا منهم باليمن .

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟ قال نبىٌّ زكىّ ، يأتيه الوحىُ من العلىّ ! قال : وممن هذا النبى ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر ابن مالك بن النضر . يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر !

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم ، يوم يُجمع فيه الأوّلون والآخرون ، يَسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون .

قال : أحقٌّ ما تخبرنى ؟

قال : نعمْ . والشَّفق والغسَق ، والفلَق إذا اتَّسق ، إنَّ ما أنبأتُك لحقّ .

ثم قدم عليه شِقّ فقال له كقوله لسطيح، وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتَّفِقان أم يختلفان.

قال: نعمْ، رأيتَ حُممة، خرجت من ظُلُمة، فوقعت بين أرض وأكَمَة، أكلتْ منها كل ذات نسَمة.

فلما قال له ذلك عرف أنّهما قد اتَّفقا، وأن قولهما واحد، إلا أنّ سطيحا قال: «وقعت بأرض تهمة، فأكلت منها كل ذات جمجمة» وَقال شق: «وقعت بين روضة وأكمة، فأكلت منها كلُّ ذات نسمة».

فقال له الملك: ما أخطأت يا شقُّ منها شيئاً فما عندك فى تأويلها؟

قال: أحلف بما بين الحرّتين من إنسان، لينزلن أرضكم السُّودان، فليغلُبنَّ على كلّ طفلة البنان وليملكنَّ ما بين أبيَنَ إلى نجران!

فقال له الملك: وإبيك يا شِقّ إنّ هـذا لنا لغائظ موجِع فمتى هو كائِن؟ أفى زمانى أم بعده؟

قال: لا، بل بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيمٌ ذو شان، ويذيقُهم أشدَّ الهوان!

قال: ومن هذا العظيم الشأن؟ قال: غلام ليس بدَنيّ ولا مُدَنٍّ[1]، يخرج عليهم من بيت ذى يَزَن، فلا يترك أحداً منهم باليمن.

قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسول مرسل،

---

(١) المدنى: المقصر فى الأمور، أو من يتبع خسيسها.

يأتى بالحقّ والعدل . بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل .

قال : وما يوم الفصـــل ؟ قال : تُجزَى فيه الولاة ، ويُدعَى فيه من السماء بِدَعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه بين الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتّقى الفوز والخيرات !

قال : أحقٌّ ما تقول ؟ قال : إى وربِّ السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتُك به لحقٌّ ، ما فيه أمْض[1] .

فوقع فى نفس ربيعة ما قالا ، فجهّز بيته وأهل بيته إلى العراق بما يُصلحهم ، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور ابن خُرزاذ ، فأسكنهم الحِيرة .

---

(١) أى ما فيه شك أو باطل .

استيلاء أبى كَرِب تُبَان أسعد على ملك اليمن

وغزوه إلى يثرب

فلما هلك ربيعة بن نصر رجع مُلك اليمن كله إلى حسان بن تبان أسعد ، أبى كرب .

وكان أبوه تبان أسعد قد جعل طريقه حين أقبل من المشرق على المدينة ، فلم يَهِجْ أهلها ، وخلّف بين أظهرهم ابناً له فقُتل غِيلة ، فقدِمها مرة أخرى وهو مُجمع لإخرابها واستئصال أهلها ، فجمع له هذا الحىُّ من الأنصار ، ورئيسهم عمرو بن طَلَّة ، فاقتتلوا . فتزعُم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويَقْرونه بالليل[1] فيعجبه ذلك منهم ويقول : والله إنّ قومنا لكرام !

فبينا تُبَّعٌ على ذلك من قتالهم إذ جاءه حَبْرانِ من أحبار يهود عالمان راسخان فى العلم ، حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له: أيُّها الملك ، لا تفعل ، فإنك إن أبيت إلّا ما تريد حِيلَ بينك وبينها ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة ! فقال لهما : ولم ذلك ؟ فقالا : هى مُهاجَرُ نبيٍّ يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزّمان تكون دارَه وقراره !

(١) قرى الضيف يقريه : أضافه وأطعمه.

فتناهى عن ذلك ورأى أن لهما علماً، وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما.

وكان تُبَّع[1] وقومُه أصحاب أوثان يعبدونها، فتوجّه إلى مكّة وهى طريقُه إلى اليمن، حتى إذا كان بين عُسفان وأَمَج[2] أتاه نفرٌ من هُذيل بن مدركة فقالوا له: أيها الملك ألاَ ندلُّك على بيت مالٍ داثر أغفلتْه الملوك قبلك، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال: بلى. قالوا: بيت بمكة يعبده أهلُه، ويصَلُّون عنده!

وإنما أراد الهذليون هلاكَه بذلك، لما عرفوا من هلاك من أراده مِنَ الملوك وبَغَى عنده.

فلما أَجْمَعَ لما قالوا أرسَلَ إلى الحبرين فسألهما عن ذلك، فقالا له: ما أراد القومُ إلا هلاكَكَ وهلاكَ جندك، ما نعلمُ بيتاً لله اتّخذه فى الأرض لنفسه غيره، ولئن فعلتَ ما دعوك إليه لَتهلكنّ وليَهلكنَّ من معك جميعا! قال: فماذا تأمرانى أن أصنع إذا أنا قدمت عليه؟ قالا: تصنع عنده ما يصنع أهله: تطوف به وتعظّمه وتكرّمه، وتحلق رأسك عنده، وتذلّ له حتى تخرج من عنده. قال: فما يمنعكما أنتما من ذلك؟ قالا: أمَا والله إنّه لَبيتُ أبينا إبراهيم، وإنه لكما أخبرناك، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله، وبالدماء التى يُهَرِيقون عنده، وهم نَجَسٌ أهل شرك!

---

(١) هو تبان أسعد والد أبى كرب.

(٢) أمج: بلد من أعراض المدينة.

فعرف نُصحهما وصدقَ حديثهما ، فقرّب النَّفرَ من هُذيل فقطّع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدِم مكة ، فطاف بالبيت ونَحَر عنده ، وحلق رأسَه وأقام بمكة ستة أيام ينحر بها للناس ويُطعم أهلها ويسقيهم العسل.

وأَرى فى المنام أن يكسو البيت ، فكساه الخَصَف[1] ؛ ثم أُرى أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه الملاء والوصائل[2] .

وكان تُبّع فيما يزعمون أوّلَ من كسا البيت وأوصى به وُلاته من جُرهم ؛ وأمرهم بتطهيره ، وألّا يقربوه دماً ولا مَيتةً ولا مِئلاةً[3] . وجعل له بابا ومفتاحا .

ثم خرج منها متوجها إلى اليمن بمن معه من جنوده ؛ والحبرين حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه ؛ فأبوا عليه حتى يحاكموه إلى النار التى كانت باليمن .

وكانت باليمن نارٌ تحكم بينهم فيما يختلفون فيه : تأكل الظالم ولا تضرُّ المظلوم . فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ؛ وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما متقلِّدَيْهما ، حتى قعدوا للنار عند مخرجها التى تخرج منه ؛ فخرجت النار إليهم ، فلما أقبلت نحوهم

---

(١) الخصف : جمع خصفة ، وهو كساء غليظ جدا .

(٢) الملاء : جمع ملاءة . والوصائل : ثياب يمانية .

(٣) المئلاة : خرقة الحائض .

حادُوا عنها وهابوها ، فذَمَرهم[1] من حضرهم من الناس وأمروهم بالصَّبر لها ، فصبَروا حتى غشيَتْهم فأكلت الأوثان وما قرَّبوا معها ، ومن حمل ذلك من رجال حمير . وخرجَ الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما تعَرق جباهُهما لم تضُرَّهما ، فأصفقت[2] عند ذلك حِمير على دينه ، فمِن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهوديّة باليمن .

* * *

فلما ملك ابنه حسان بن تُبَانَ أسعدَ سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم ، حتى إذا كانوا بأرض البحرين كرهت حمير وقبائل اليمن المسير معه ، وأرادوا الرّجعة إلى بلادهم وأهلهم ، فكلَّموا أخاً له يقال له عمرو — وكان معه فى جيشه — فقالوا له : اقتل أخاك حسان ونملّكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا . فأجابهم فاجتمعوا على ذلك ، إلا ذا رُعينٍ الحميرىّ ، فإنّه نهاه عن ذلك ، فلم يَقبل منه ، فقال ذو رعين :

ألا من يَشترى سهراً بنومٍ ... سعيدٌ مَن يبيتُ قريرَ عين
فإمّا حميرٌ غدرت وخانت ... فمعذرةُ الإلهِ لذى رُعينِ

ثم كتبهما فى رقعة وختم عليها ، ثم أتى بها عمراً فقال له : ضع لى هذا الكتابَ عندك . ففعل ، ثمَّ قتل عَمرو أخاه حسّان ورجع بمن معه إلى اليمن .

---

(١) ذمره : لامه وحضه

(٢) أصفقوا : أجمعوا .

فلما نزل عمرو بن تبان اليمن مُـنع منه النوم وسُلِّط عليه السهر ، فلما جَهَده ذلك سأل الأطبّاء والحُزَاة[1] من الـكُهّان والعرَّافينَ عمّا به ، فقال له قائلٌ منهم : إنّه والله ما قتل رجلٌ قطُّ أخاه أو ذا رحمِـهِ بغياً ، على مثل ما قَتلتَ أخاكَ عليه ، إلَّا ذهب نومُه وسُلِّط عليه السهر . فلمَّـا قيل له ذلك جعل يقتُل كلَّ مَن أمرَه بقتل أخيه حسان من أشراف اليمن ، حتّى خلَصَ إلى ذى رُعَين ، فقال له ذو رعين : إنّ لى عندك براءةً . فقال : وما هى ؟ قال : الـكتاب الذى دفَعتُ إليك . فأخرجَه فإذا فيه البيتان ؛ فتركَه ورأى أنّه قد نصحَه .

وهلك عمرو فمَـرِج أمر حمير عند ذلك وتفرّقوا .

فوثب عليهم رجلٌ من حمير لم يكن من بيوت المملـكة يقال له : « لَخْنيعة يَنُوفُ ذو شَناتر » فقَتل خيارَهم وعبِـثَ ببيوت أهـــل المملـكة منهم .

وكان لخنيعة امرأ فاسقا يعمل عمل قوم لوط ، فبعث إلى زُرْعة ذى نواس بن تُبَان أسعد ، أخى حَسّان ، وكان صبياً صغيرا حين قُتِـل حسان ، ثم شبَّ غلاماً وسيماً ذا هيئة وعقل ، فلما أتاه رسوله عرف ما يريد منه ، فأخذ سـكّيناً حديداً لطيفا ، فخبّأه بين قدمه ونعله ثم أتاه ،

---

(١) الحزاة : جمع حاز ، وهو الذى يزجر الطير ويستدل بأصواتها ومرورها وأسمائها .

فلما خلا معه وثب إليه ، فواثبه ذو نواس ، فوجأه[1] حتى قتله ، ثم خرجَ على الناس فقالوا : ما ينبغى أن يملكنا غيرك ، إذ أرحتنا من هذا الخبيث .

فملَّكوه واجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن ، فكان آخرَ ملوك حمير . وهو صاحب الأخدود ، فأقام فى ملكه زمانا .

وكان بنجْران[2] بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام ، أهل فضل واستقامة ، لهم رأس يقال له عبد الله بن الثامر ، فسار إليهم ذو نُوَاس بجنوده فدعاهم إلى اليهوديّة . وخيّرهم بين ذلك والقتل ، فخدَّ لهم الأخدود[3] ، فحرّق من حرّق بالنار ، وقَتل بالسَّيف ومثَّل بهم ، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً .

ففى ذى نواس ذلك وجُندِه أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم : (قُتِل أصحابُ الأُخدودِ . النَّارِ ذاتِ الوَقُود . إذْ هم عَلَيها قُعُودٌ . وهُمْ عَلَى ما يفعلون بالمُؤْمنينَ شُهُودٌ . ومَا نَقَمُوا مِنْهم إلاّ أنْ يُؤْمنُوا باللهِ العَزيزِ الحَمِيد) .

ويقال : كان فيمن قَتل ذو نواس عبد الله بن الثامر رأسهم وإمامهم .

---

(١) وجأه : ضربه بالسكين ونحوها .

(٢) نجران : مخلاف من مخاليف اليمن .

(٣) الأخدود : حفرة مستطيلة غامضة فى الأرض .

غلبة الحبشة على اليمن

وأفلت منهم رجلٌ من سبأ يقال له «دَوس ذو ثُعلُبان» على فرسٍ له، فسلك الرمل فأعجزهم؛ فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذي نواس وجنوده، فأخبره بما بلَغ منهم. فقال له: بعدت بلادُك منّا، ولكنّى سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنّه على هذا الدين، وهو أقربُ إلى بلادك. وكتب إليه يأمر بنصره، والطلب بثأره. فقدِم دوسٌ على النَّجاشى بكتاب قيصر، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمّر عليهم رجلاً منهم يقال له أرياط، ومعه فى جنده «أبرَهة الأشرم».

فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دَوس ذو ثُعلُبان وسار إليه ذو نواس فى حِمير ومَن أطاعه من قبائل اليمن، فلمّا التقوا انهزم ذو نواسٍ وأصحابه. فلما رأى ذو نواس مانزل به وبقومه وجّه فرَسه فى البحر، ثم ضربه فدخل به فخاض به ضحضاح البحر[1] حتى أفضى به إلى غَمْرِه[2] فأدخلَه فيه وكان آخر العهد به.

ودخل أرياط اليمن فملكها.

---

(١) الضحضاح: الماء اليسير الذى لا غرق فيه.

(٢) الغمر: الماء الكثير يغرق فيه.

نزاع أرياط وأبرهة

فأقام أرياط بأرض اليمن سنين فى سلطانه ذلك ، ثم نازعه فى أمر الحبشة باليمن أبرهةُ الحبشى حتى تفرقت الحبشةُ عليهما ، فانحاز إلى كلِّ واحدٍ منهما طائفة منهم ، ثم ثار أحدهما إلى الآخر ، فلمّا تقارب الناس أرسل أبرهةُ إلى أرياط : إنّك لا تصنع بأن تلقى الحبشةُ بعضها ببعض حتى تفنيها شيئا ؛ فابرزْ إلىّ وأبرزُ إليك فأيُّنا أصابَ صاحبه انصرف إليه جنده . فأرسل إليه أرياط : أنصفت . فخرج إليه أبرهة وكان رجلاً قصيراً لحيما ، وكان ذا دين فى النصرانية . وخرج إليه أرياط وكان رجلا جميلاً عظيما طويلا ، وفى يده حربة له ، وخلف أبرهة غلام له يقال عَتْوَدة يمنع ظهره ، فرفع أرياطُ الحربة فضرب أبرهةَ يريد يافوخه [1] فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبَه وأنفه ، وعينَه وشفته ، فبذلك سمى « أبرهة الأشرم » . وحمل عَتودةُ على أرياط من خلف أبرهة فقتله . وانصرف جند أرياط إلى أبرهة ، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن .

(١) اليافوخ : وسط الرأس .

قصة أصحاب الفيل

ثم إن أبرهة بنى القُلَّيس[1] بصنعاء، فبنى كنيسةً لم يُرَ مثلُها فى زمانها بشىءٍ من الأرض، ثم كتب إلى النجاشىّ: إنّى قد بنيتُ لك، أيُّها الملك، كنيسةً لم يُبنَ مثلُها لملكٍ كان قبلك، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرفَ إليها حجَّ العرب!

فلما تحدَّثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشىّ غضب رجلٌ من النَّسَأة[2] فخرج حتى أتى القُلَّيس فقعد فيها[3]، ثم خرج فلحق بأرضه.

فأُخبر بذلك أبرهة فقال: مَن صنعَ هذا؟ فقيل له: صنع هذا رجلٌ من العرب من أهل هذا البيت الذى تحجّ العرب إليه بمكّة، لما سمع قولك «أصرف إليها حجّ العرب» غضب فجاء فقعد فيها، أى أنها ليست لذلك بأهل.

فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه.

---

(١) هى اسم الكنيسة التى أراد أبرهة أن يصرف إليها حج العرب.

(٢) النسأة: جمع ناسئ، وهم الذين كانوا ينسئون الشهور، أى يؤخرونها كانوا إذا صدروا من منى يقوم رجل منهم من كنانة فيقول: أنا الذى لا أعاب ولا أجاب، ولا يرد لى قضاء! فيقولون صدقت، أنسئنا شهرا، أخر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر، لأنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها، لأن معاشهم كان من الغارة، فيحل لهم المحرم. فذلك الإنساء.

(٣) أى أحدث.

ثم أمر الحبشةَ فتهيّأت وتجهّزت، ثم سار وخرج معه بالفيل، وسمعت بذلك العربُ فأعظموه وفَظِعوا به، ورأوا جهادَه حقًّا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام.

فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له: «ذو نَفْر»، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه، فأجابه إلى ذلك من أجابه، ثم عرضَ له فقاتله، فهزِم ذو نَفْر وأصحابه، وأخِذ له ذو نفر فأتى به أسيرا.

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نُفَيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلَىْ خثعم: شَهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأخِذ له نُفَيل أسيرا. فخلَّى سبيلَه وخرج معه يدلُّه، حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن معتِّب، فى رجالٍ من ثقيف، فقالوا له: أيها الملك، إنما نحن عبيدك، سامعون لك مطيعون، ليس عِندنا لك خلاف. وليس بيتَنا هذا الذى تريد — يعْنُون اللات — إنما تريد البيت الذى بمكّة، ونحن نبعث معك من يدلُّك عليه فتجاوزَ عنهم.

فبعثوا معه «أبا رِغَال» يدلّه على الطريق إلى مكّة، فخرج أبرهة ومعه أبو رِغالٍ حتى أنزلَه المغمَّس[1]، فلما أنزلَه به مات أبو رغال

(١) المغمس: موضع قرب مكة فى طريق الطائف.

هنالك، فرجمت قبره العربُ، فهو قبرهُ الذى يرُجم الناسُ بالمغمَّس.

فلما نزل أبرهةُ المغمَّس بعث رجلاً من الحبشة يقال له «الأسود ابن مقصود» على خيلٍ له حتى انتهى إلى مكّة، فساَق إليه أموال تِهامةَ من قريش وغيرهم، فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيّدها، فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة حُناطةَ الحميرىّ إلى مكة وقال له: سلْ عن سيِّد أهل هذا البلد وشريفها، ثم قل له: إن الملك يقول لك: إنّى لم آت لحربكم، إنّما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم يَعرضوا لنا دونه بحربٍ فلا حاجةَ لى فى دمائكم، فإن هو لم يردْ حربى فأتنى به.

فلما دخل حُناطة مكّة سأل عن سيد قريشٍ وشريفها، فقيل له: عبد المطلب بن هاشم. فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيتُ الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمته، وإن يخلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفعٌ عنه. فقال حناطة: فانطلقْ معى إليه، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك. فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن «ذى نَفْر»، وكان له صديقاً، حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له: يا ذا نفْر، هل عندك من غَناءٍ فيما نزلَ بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غَناء رجلٍ أسيرٍ بيدَىْ

ملك ينتظر أن يقتله غدوًّا أو عشيًّا ، ما كان عندى غناء فى شىء مما نزل بك ، إلاّ أن أنيساً سائس الفيل صديقٌ لى ، وسأرسل إليه فأوصيه بذلك وأعظِّم عليه حقّك . وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلِّمه بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . فقال : حَسْبِى .
فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش ، وصاحب عِير مكة يطعم الناس بالسهل ، والوحوشَ فى رءوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير ، فاستأذنْ له عليه وانفعه عنده بما استطعت . فقال : أفعل .

فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك ، هذا سيّد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عِير مكّة[1] ، وهو يطعم الناس فى السهل ، والوحوشَ فى رءوس الجبال ، فأذَنْ له عليك فليكلِّمك فى حاجته . فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملَهم وأعظمَهم ، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمَه ، وأكرَمه أن يُجلسَه تحته ، وكره أن تراه الحبشةُ يجلس معه على سرير مُلكه ، فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : قل له حاجتك . فقال له ذلك الترجمان ، فقال : حاجتى أن يردّ على الملك مائتى بعير

---

(١) العير ، بالكسر : قافلة التجارة .

أصابها لى . فلمّا قال ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلَّمتنى أتكلِّمنى فى مائتى بعير أصبتُها لك وتترك بيتاً هو دينُك ودين آبائك قد جئت لهدمه لاتكلِّمنى فيه ؟ ! قال له عبد المطلب : إنى أنا ربُّ الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه! قال : ما كان ليمتنع منى ! قال : أنت وذلك

ورَدّ أبرهة على عبد لمطّلب الإبل التى أصاب له . وانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبرَ ، وأمرهم بالخروج من مكّة والتحرّز فى شعَف الجبال والشِّعاب[1] ، تخوُّفا عليهم من معَرَّة الجيش[2] . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفرٌ من قريشٍ يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجُنده فقال عبد المطلب ، وهو آخذٌ بحلقة باب الكعبة :

لاهُمَّ إن العبد يمْـ ـنع رحلَه فامنعْ حِلالَك[3]

لا يغلبنَّ صليبهُم ومِحالُهم غَدْواً مِحالك[4]

إن كنت تاركَهم وقبـ ـلتنا فأمرٌ ما بدَا لك

---

(١) التحرز : التمنع والتحصن . شعف الجبال : رؤوسها . الشعاب : المواضع الخفية بين الجبال .

(٢) معرة الجيش : شدته .

(٣) الحلال : جمع حلة ، بالكسر ، وهم القوم المجتمعون . ويروى : «رحالك» .

(٤) المحال ، بالكسر : الشدة والقوة .

ثم أرسل عبد المطّلب حَلْقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكّة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله ، وعبَّى جيشَه ، وكان اسم الفيل « محمودا » ، وأبرهة مجمعٌ لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن ، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نُفَيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال : ابْرُكْ أو ارجع راشدا من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام ! ثم أرسل أذنه فبرك الفيل ، وخرج نفيلٌ يشتد حتى أصعَدَ فى الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطَّبَرْزين[1] ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجِنَ لهم فى مَرَاقِّه فبزَغوه بها ليقوم فأبى[2] ، فوجّهوه راجعًا إلى اليمن فقام يُهرول ، ووجّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجّهوه إلى مكة فبرك ، فأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلَسان[3] ، مع كلّ طائرٍ منها ثلاثة أحجار يحملها : حجرٌ فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلاّ هلك ، وليس كلَّهم أصابت . وخرجوا

(١) الطبرزين : آلة معقفة من حديد .
(٢) المحجن : عصا معوجة قد يجعل فيها حديد . والمراق : أسفل البطن . بزغوه : أدموه .
(٣) الخطاطيف : جمع خطاف ، وهو طائر أسود . والبلسان : الزرازير .

هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا ، يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك،على كلّ منهل ، وأصيب أبرهة فى جسده فمات .

قال ابن إسحاق :

فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كان ممّا يعدّ اللهُ على قريش من نعمه عليهم وفضله ما ردَّ عنهم من أمر الحبشة ، لبقاء أمرهم ومدَّتهم ، فقال الله تبارك وتعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) .

ذكر ولد نزار بن معد

فولَدَ (نزار) بن معد ثلاثة نفر[1] : مضر ، وربيعة ، وأنمار .

فولد (مضر) رجلين : إلياس ، وعيلان .

فولد (إلياس) ثلَاثة نفر : مدركة ، وطابخة ، وقَمعة .

فولد (مدرِكة) رجلين : خزيمة ، وهذيل .

فولد (خُزَيمة) أربعة نفر : كنانة ، وأسد ، وأسَدة ، والهُون .

فولد (كنانة) أربعة نفر : النضر[2] ، ومالك ، وعبدمناة، ومِلْكان.

فولد (النَّضر) رجلين : مالك ، ويخلد .

فولد (مالك) بن النضر فهرَ بن مالك .

فولد (فِهْر) أربعة نفر : غالب ، ومحارب ، والحارث ، وأسد .

فولد (غالب) رجلين : لؤيّ ، وتيْم .

فولد (لؤى) أربعة نفر : كعب ، وعامر ، وسامة ، وعوف .

فولد (كعب) ثلاثة نفر : مرة ، وعدِيّ ، وهُصَيص .

فولد (مُرّة) ثلاثة نفر : كلاب ، وتَيم ، ويَقَظة .

فولد (كلاب) رجلين : قُصَيّ ، وزُهْرة .

فولد (قصيّ) أربعة نفر : عبدمناف ، وعبد الدار ، وعبد العُزَّى ، وعبد قصِيّ .

فولد (عبد مناف) أربِعة نفر : هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل .

---

(١) زاد ابن هشام رابعاً ، هو إياد بن نزار .

(٢) قال ابن هشام : النضر قريش ، كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . ويقال فهر بن مالك هو قريش .

أولاد عبد المطّلب بن هاشم

قال ابن هشام :

فولد عبد المطّلب بن هاشم عشرة نفر وستَّ نسوة : العباسَ ، وحمزة ، و (عبد الله) ، وأبا طالب ، والزُّبير ، والحارثَ ، وحَجْلاً ، والمقوِّم ، وضِراراً ، وأبا لهب واسمه عبد العُزَّى ؛ وصفيّة ، وأمّ حكيمٍ البيضاء ، وعاتكة ، وأميمة ، وأَروَى ، وبَرَّة .

والد رسول الله
صلى الله عليه وسلم

فولد عبد الله بن عبد المطلب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، سيدَ ولدِ آدم ، محمدَ بن عبد الله بن عبد المطّلب ، صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليه وعلى آله :

وأمُّه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مُرَّة ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضر .

وأمُّها بَرّة بنت عبد العُزَّى بن عثمان بن عبد الدار بن قصَىّ ابن كِلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف ولد آدم حسباً ، وأفضلهم نسباً ، من قِبَل أبيه وأمّه ، صلى الله عليه وسلّم ، وشرَّف وكرّم ، ومجَّد وعظَّم .

حفر زمزم وما جرى من الخُلْف فيها

ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم فى الحِجْر[1] إذ أُتى فأمِر بحفر زمزم.

قال عبد المطلب:

إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آتٍ فقال: احفر طِيبة. قلت: وما طِيبة؟ ثم ذهب عنى، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه، فجاءنى فقال: احفر المضنونة. فقلت: وما المضنونة؟ ثم ذهب عنى، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال: احفر زمزم. قلت: وما زمزم؟ قال: لا تُنزف أبداً ولا تُذَمّ[2]، تسقى الحجيجَ الأعظم، وهى بين الفَرث والدم[3]، عند نَقْرة الغراب الأعصم[4].

فلمّا بُيِّن له شأنها ودُلّ على موضعها، وعَرف أنه قد صدق، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث ليس له يومئذٍ ولد غيره، فحفر فيها، فلمّا

(١) الحجر: حجر الكعبة، وهو ما تركت قريش فى بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام.
(٢) لا تذم: لا توجد قليلة الماء.

(٣) روى أنه لما قام ليحفرها رأى ما رسم له من قرية النمل ونقرة الغراب، ولم ير الفرث والدم، فبينا هو كذلك فرت بقرة من جازرها، فلم يدركها حتى دخلت المسجد الحرام، فنحرها فى الموضع الذى رسم، فسال هناك الفرث والدم، فحفر عبد المطلب حيث رسم له.

(٤) الأعصم: الذى فى جناحيه بياض.

بدا لعبد المطّلب الطىّ[1] كبّر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه فقالوا : يا عبد المطلب ، إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فأشرِكنا معك فيها . قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خُصِصْتُ به ، دونكم . فقالوا له : فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها . قال : فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه . قالوا : كاهنة بنى سعد هُذَيم . قال : نَعَم — وكانت بأشراف الشام[2] — فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر ، والأرض إذْ ذاك مفاوز ، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فَنِيَ ماء عبد المطلب وأصحابه ؛ فظمئوا حتّى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقَوا من معهم من قبائل قريش فأبَوا عليهم وقالوا : إنّا بمفازة ، ونحن نخشى على أنفسنا مثلَ ما أصابكم . فلما رأى عبدُ المطلب ماصنع القومُ وما يتخوّف على نفسه وأصحابه قال : ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأْينا إلا تبع لرأيك ، فمرنا بما شئت . قال : فإنى أرى أن يحفر كلُّ رجلٍ منكم حفرتَه لنفسه بما بكم الآنَ من القوّة ؛ فكلّما مات رجلٌ دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلاً واحدا ، فضيعةُ رجلٍ واحدٍ أيسَرُ من ضيعة ركبٍ جميعا . قالوا : نِعم ما أمرتَ به . فقام كل واحدٍ منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا ينتظرون الموتَ عطشًا . ثم إنّ عبد المطّلب قال لأصحابه : والله إن

---

(١) الطى : الحجارة تطوى بها البئر .

(٢) أى ما ارتفع من أرضها .

إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت ، لانضرب فى الأرض ولا نبتغى لأنفسنا ، لعجز . فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد ؛ ارتحلوا . فارتحلوا حتى إذا فرَغوا ، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ماهم فاعلون ، تقدم عبد المطلّب إلى راحلته فركبها . فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفّها عينٌ من ماءٍ عذب ، فكبَّر عبد المطلب وكبّر أصحابه ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه ، واستقوا حتى ملئوا أسقيتهم . ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلمَّ إلى الماء فقد سقانا الله ، فاشربوا واستقُوا . فجاءوا وشربوا واستقَوا ثم قالوا : قد والله قُضِىَ لك علينا يا عبد المطلب ، والله لا نخاصمك فى زمزم أبدا . إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذى سقاك زمزم ، فارجع إلى سِقايتك راشداً !

فرجع ورجعوا معه ، ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلّوا بينه وبينها .

نذر عبد المطلب ذبح ولده

وكان عبد المطلب بن هاشم ، قد نذر حين لقىَ من قريش ما لقى عند حفر زمزم ، لئن وُلد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتَّى يَمنعوه لينحرنَّ أحدَهم لله عند الكعبة . فلمّا توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كلٌّ رجل منكم قِدْحاً ثم يكتب فيه اسمَه ، ثم ائتونى . ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على

« هُبَل[1] » وكان هبلُ على بئر فى جوف الكعبة . وكانت تلك البئر هى التى يُجمَع فيها ما يُهدَى للكعبة .

وكان عند هبل قداح سبعة ، كل قِدحٍ منها فيه كتاب ، قدح فيه « العَقْل » إذا اختلفوا فى العَقل[2] مَن يحمله منهم ، ضربوا بالقداح السبعة ؛ فإن خرج العقل فعلَى من خَرج حمْلُه . وقِدح فيه « نعمْ » للأمر إذا أرادوه ، يُضرب به فى القداح ، فإن خرج قدح نعَم عملوا به . وقدح فيه « لا » ، إذا أرادوا أمراً ضربوا به فى القداح ، فإن خرج ذلك القِدحُ لم يفعلوا ذلك الأمر . وقدح فيه « مِنكم » ، وقدح فيه « مُلصَق » ، وقدح فيه « من غيركم » ، وقدح فيه « المياه » إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القِدح ، فحيثما خرج عمِلوا به .

وكانوا إذا أرادوا أن يختِنوا غُلاماً أو ينكِحوا مَنكَحاً ، أو يدفنوا ميتا ، أو شكُّوا فى نسب أحدهم ، ذهبوا به إلى هُبَل ، وبمائة درهم وجَزور ، فأعطَوها صاحب القداح الذى يضرب بها ، ثم قرّبوا صاحبَهم الذى يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلٰهنا ، هذا فُلان ابن فلانٍ قد أردنا به كذا وكذا ، فأخرِج الحقّ فيه . ثم يقولون لصاحب القداح : اضربْ . فإن خرج عليه « منكم » كان منهم وسيطا[3] ؛ وإن خرج عليه « من غيركم » كان حليفاً ؛ وإن خرج عليه « مُلصَق » كان على منزلته فيهم ، لا نسب له ولا حلف . وإن خرج فيه شىء مما سوى هذا مما يعملون به « نعمْ » عملوا به ؛ وإن خرج « لا »

---

(١) اسم صنم . (٢) العقل : الدية . (٣) وسيط : خالص النسب .

أخروه عامه ذلك حتى يأتوه به مرةً أخرى ، ينتهون في أمورهم إلى ذلك مما خرجتْ به القداح .

فقال عبد المطّلب لصاحب القداح : اضرب على بنيَّ هؤلاء بقِداحهم هذه . وأخبَره بنذره الذى نذر ، فأعطاه كلُّ رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه ، وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بنى أبيه[1] ، وكان أحبَّ ولدِ عبد المطلب إليه ، فكان عبد المطلب يرى أن السَّهمَ إذا أخطأه فقد أشوى[2] .

فلمّا أخذ صاحب القداحِ القداحَ ليضرب قام عبد المطلب عند هُبَل يدعو الله ، ثم ضَرب صاحب القداح فخرج القدح على عبد الله ، فأخذه عبد المطلب بيده ، وأخذ الشَّفْرة ثم أقبل به إلى إساف ونائلةَ ليذبحه ، فقامت إليه قريشٌ من أنديتها فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطّلب ؟ قال : أذبحُه . فقالت له قريشٌ وبنوه : والله لا تذبحه أبدًا حتى تُعْذِر فيه ، لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحَه فما بقاءِ الناسِ على هذا ! وقال له المغيرة بن عبد الله بن عُمر ابن مخزوم ، وكان ابن أختِ القوم : والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فَدَيناه ! وقالت له قريش وبنوه : لا تفعل وانطلِقْ به إلى الحجاز ؛ فإنَّ به عَرَّافةً لها تابع ، فسَلْها ثم أنتَ على رأس

---

(١) أى حين أراد نحره ، وإلا فإن حمزة كان أصغر منه ، والعباس كان أصغر منه . والعباس كان كذلك أصغر من حمزة .

(٢) أشوى : أبقى . ويقال : أشوى السهم ، إذا لم يصب المقتل .

أمرك ، إن أمَرْتكَ بذبحه ذبحتهَ ، وإن أمرتكَ بأمرٍ لك وله فيه فرجٌ قبِلتَه .

فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوها بخيبر ، فركبوا حتى جاءوها فسألوها ، وقصَّ عليها عبد المطّلب خبره وخبر ابنه ، وما أراد به ، ونذره فيه فقالت لهم : ارجعوا عنّى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسألَه . فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم غدوا عليها فقالت لهم : قد جاءنى الخبر ، كم الدِّيَةُ فيكم ؟ قالوا : عشرٌ من الإبل . قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قرِّبوا صاحبَكم وقرِّبوا عشرا من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرَجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتّى يرضى ربُّكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربُّكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى قدِموا مكَّة ، فلما أجمعِوا على ذلك من الأمر قام عبد المطَّلب يدعو الله . ثم قرّبوا عبد الله وعشراً من الإبل ، وعبد المطَّلب قائم عند هبل يدعو الله عزّ وجلّ ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطَّلب يدعو الله عزَّ وجلّ ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل أربعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل خمسين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج

القدح على عبد الله . فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل ستين . وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل سبعين . وقام عبد المطلب يدعو الله : ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . فزادوا عشرا فبلغت الإبل ثمانين ، وقام عبد المطلب يدعو الله . ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل تسعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على « الإبل » ، فقالت قريشٌ ومن حضَرَ : قد انتهى رضا ربِّك يا عبد المطّلب !

فزعموا أن عبد المطلب قال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاثَ مرات . فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو فخرج القِدح على الإبل ؛ ثم عادوا الثانية وعبد المطلب قائم يدعو الله ، فضربوا فخرج القدح على الإبل ؛ ثم عادوا الثالثة وعبدُ المطلب قائم يدعو الله ، فضربوا فخرج القدح على الإبل . فنحِرتْ ثم تركت لا يُصدُّ عنها إنسانٌ ولا يمنع .

ذكر ما قيل لآمنة عند حملها برسول الله

صلى الله عليه وسلم

ويزعمون — فيما يتحدث الناس ، والله أعلم — ان آمنه بنت وهب أمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تحدِّث :

أنَّها أُتيتَ حين حَملتْ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لها : إنك قد حملتِ بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أُعيذه بالواحد ، من شرِّ كل حاسد ! ثم سمِّيه محمداً [1] .

ورأت حين حملت به أنه خرج منها نورٌ رأت به قُصورَ بُصْرَى من أرض الشام .

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هلك وأُم رسول الله صلى الله عليه وسلم حاملٌ به .

---

(١) لم يُسمَّ بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة ، طمع آؤباهم حين سمعوا بذكر رسول الله وبقرب زمانه ، وأنه يبعث من الحجاز أن يكون ولداً لهم ، وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جد جد الفرزدق ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ، ومحمد ابن حمران بن ربيعة . كان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ممن لهم علم بالكتاب فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر كل منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً ، ففعلوا ذلك .

ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وِلد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، عامَ الفيل [1].

عن قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا ورسول الله عام الفيل، فنحن لِدانِ [2].

عن حسان بن ثابت قال:

والله إنّى لَغلامٌ يَفَعة [3]، ابن سبع سنين أو ثمان، أَعقل كلّ ما سمعت ُإذْ سمعت يهوديًّا يصرخ بأعلى صوته على أطمةٍ [4] بيثرب: يامعشر يهود! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك! مالك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمدَ الذى وُلدَ به.

فلما وضعتْه أمّه صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى جدِّه عبد المطّلب: إنه قد وقد لك غلامٌ فأته فانظر إليه. فأتاه فنظر إليه، وحدّثته بما رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أُمرت به أن تسمّيه.

فيزعمون أن عبد المطلب أخذه فدخل به الكعبة، فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه، ثم خرجَ به إلى أمّه فدفَعه إليها والتمس لرسول الله صلى الله عليه وسلم المراضع.

فاسترضع له امرأةً من بنى سعد بن بكر، يقال لها حليمة ابنة أبى ذُؤيب.

---

(١) وقيل كان قبل مولده برمضان. (٢) لدان: مثنى لدة وهو ترب الإنسان.

(٣) أى قوىٌّ قد طال قدّه. (٤) الأطمة، بفتحتين: الحصن.

حديث حليمة

كانت حليمة تحدّث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابنٍ لها صغير[١] ترضعه، في نسوة من بني سعد، تلتمس الرُّضَعاء[٢]، وذلك في سنةٍ شهباء[٣] لم تُبق لنا شيئا. فخرجتُ على أتانٍ لي قَمْراء[٤] معنا شارفٌ لنا[٥]، والله ما تَبِضُّ بقطرة[٦]، وما ننام ليلنا أجمعَ من صبيِّنا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديَيّ ما يُغنيه، وما في شارفنا ما يغذّيه، ولكنّا كنّا نرجو الغيث والفرج. فخرجتُ على أتاني، فلقد أدَمْتُ[٧] بالركْب حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفا وعَجَفا[٨] حتّى قدمنا مكّة نلتمس الرُّضَعاء، فما منّا امرأةٌ إلاّ وقد عُرِض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنّا إنما كنّا نرجو المعروفَ من أبِي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمُّه وجدّه! فكنّا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأةٌ كانت معي إلاّ أخذت رضيعاً، غيري. فلمّا أجمعنا الانطلاقَ قلت لصاحبي[٩]: والله إنّي لأكرهُ

---

(١) اسمه عبد الله بن الحارث بن عبد العزى. (٢) جمع رضيع.

(٣) الشهباء: المجدبة البيضاء لا يرى فيها خضرة.

(٤) الأتان: الحمارة. القمراء: التي يميل لونها إلى الخضرة.

(٥) الشارف: الناقة المسنة.

(٦) ماتبض بقطرة، أي ماترشح.

(٧) أي أطلت عليهم المسافة، لتمهلهم عليها، مأخوذ من الشىء الدائم.

(٨) العجف: الهزال. (٩) تعني زوجها الحارث بن عبد العزى.

أن أرجعَ من بين صواحبى ولم آخذْ رضيعا ، والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه ! قال : لا عليك أن تفعلى ،عسى اللهُ أن يجعلَ لنا فيه بركة !

قالت : فذهبتُ إليه فأخذته ، وما حَمَلنى على أخْذه إلّا أنّى لم أجد غيرَه . فلمّا أخذتُه رجعتُ به إلى رحلى ، فلما وضعتُه فى حجرى أقبلَ عليه ثدياىَ بما شاءَ من لبن ، فشرِب حتى روىَ ، وشرِب معه أخوه حتى روى ثم ناما ، وما كنّا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا إنّها لحافل ، فحلب منها ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا ريًّا وشِبَعا ، فبتنا بخيرِ ليلة !

قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا : تعَلّمِى والله يا حليمةُ ، لقد أخذتِ نَسَمة مباركة ! فقلت : والله إنى لأرجو ذلك .

ثم خرجنا وركبت أنا أتانِى ، وحملته عليها معى ، فوالله لقطعَتْ بالرَّكْب ما يقدِر عليها شىء من حُمُرهم ، حتى إن صواحبى ليقلن لى : يا ابنة أبى ذؤيب ، ويْحكِ اربعِى علينا[1] ، أليست هذه أتانَك التى كنتِ خرجتِ عليها ؟! فأقول لهنّ : بلَى والله ، إنها لهِىَ ! فيقلن : والله إنّ لها لشأنا !

ثم قدِمنا منازلَنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدبَ منها ، فكانت غنمى تروح علىّ حين قدمنا به معنا شباعاً لُبَّنا ، فنحلُب ونشرب ، وما يحلُب إنسانٌ قطرةَ لبن ، ولا يجدها فى ضرع ،

---

(١) أى أقيمى وانتظرى .

حتّى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرةِ لبن ، وتروح غنمى شباعاً لُبَّنا .

فلم نزل نتعرَّف من الله الزيادة والخير حتى مضت سَنَتاه وفَصَلتُه ، وكان يشبُّ شباباً لا يَشِبُّه الغِلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتّى كان غلاماً جَفْراً[1] ، فقدمنا به على أمّه ونحن أحرصُ شيء على مُكثه فينا : لما كُنّا نرى من بركته ، فكلّمنا أمه وقلت لها : لو تركتِ بُنَيَّ عندى حتى يَغلُظ ، فإنّى أخاف عليه وَبأ مكّة . فلم نزل بها حتى ردّته معنا .

فرجعنا به ، فوالله إنّه بعد مقدمنا به بأشهرٍ مع أخيه لَفى بَهْمٍ[2] لنا خلفَ بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتدّ ، فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشىُّ قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيض ، فأضجعاه فشقّا بطنه ، فهما يَسُوطانِه[3] !

فخرجتُ أنا وأبوه نحوه ، فوجدته قائماً مُنتَقَعا وجهه ، فالتزمتُه والتزَمه أبوه ، فقلنا : مالكَ يا بنى ؟ قال : جاءنى رجلانِ عليهما ثيابٌ بِيض ، فأضجعانى وشَقّا بطنى فالتمسا فيه شيئاً لا أدرى ما هو ؟

---

(١) الجفر : الغليظ الشديد .

(٢) البهم : الصغار من الغنم ، الواحدة بهمة .

(٣) يسوطانه : يضربان بعضه ببعض ويحركانه .

فرَجعنا به إلى خبائنا وقال لى أبوه : يا حليمة ، لقد خشِيتُ أن يكون هذا الغلامُ قد أُصيبَ ، فألحقِيه بأهله قبل أن يظهرَ ذلك به . فاحتملناه فقدِمنا به على أمِّه فقالت : ما أقدَمَكِ به يا ظِئر[1] وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مُكثِه عندكِ ؟ فقلت : قد بلغ اللهُ بابنى وقضيتُ الذى علىَّ ، وتخوَّفت الأحداث عليه ، فأدّيته إليك كما تحبِّين . قالت : ما هذا شأنكِ فاصدُقينى خبرَكِ . فلم تدَعنى حتى أخبرتُها . قالت : أفتخوّفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم . قالت : كلّا ، والله ما للشّيطانِ عليه مِن سبيلٍ ، وإن لِبُنَىَّ لشأنا ، أفلا أُخبِركِ خبرَه ؟ قلت : بلَى . قالت: رأيتُ حين حملتُ به أنّه خرجَ منى نورٌ أضاء قصور بُصرَى[2] من أرض الشام ، ثم حمَلتُ به فواللهِ ما رأيتُ من حملٍ قطُّ كان أخفَّ علىّ ولا أيسرَ منه ، ووقَع حين ولدتُه وإنّه لواضعٌ يديه بالأرض ، رافعٌ رأسَه إلى السماء . دَعيه عنك وانطلقى راشدة .

---

(١) الظئر : المرأة ترضع ولد غيرها .

(٢) بصرى ، من أعمال دمشق .

حديث شق الصدر

قال ابن إسحاق :

حدثنى ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم ، ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعى :

أن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : نَعَم ، أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبُشرَى أخى عيسى ، ورأت أمّى حين حملت بى أنه خرجَ منها نورٌ أضاء لها قصورَ الشام ، واستُرضِعت فى بنى سعد بن بكر .

فبينا أنا مع أخٍ لى خلفَ بيوتنا نرعى بَهْمًا لنا ، إذ أتانى رجلانِ عليهما ثيابٌ بيض بَطستٍ من ذهب مملوءة ثلجا ، ثم أخَذَانى فشقا بطنى ، واستخرجا قلبى فشقّاه ، فاستخرجا منه عَلَقَةً سوداء فطرحاها ، ثم غَسَلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتّى أنقَيَاه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زِنْه بعشرة من أمّته . فوزنَنى بهم فوزنتُهم . ثم قال : زنه بمائةٍ من أمّته . فوزنَنى بهم فوزَنتهم . ثم قال : زنه بألفٍ من أمّته . فوزننى بهم فوزنتهم . فقال : دعه ؛ فوالله لو وزنته بأمته لوَزَنها !.

كَفالة جده له

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب وجدِّه عبدالمطّلب بن هاشم فى كِلاءة الله وحِفظه ، ينبته الله نباتاً حسناً ، لما يريد به من كرامته . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين تُوفِّيت أمه بالأبواء ، بين مكة والمدينة ، كانت قد قدمت به على أخواله من بنى عدى بن النجّار تُزيره إيّاهم ، فماتت وهى راجعةٌ به إلى مكة .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جدّه عبدالمطلب بن هاشم . وكان يُوضَع لعبد المطّلب فِراشٌ فى ظلّ الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فِراشه ذلك حتى يخرجَ إليه ، لا يَجلس عليه أحدٌ من بنيه إجلالاً له . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلامٌ جَفْر[1] حتى يجلسَ عليه ، فيأُخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دَعُوا ابنى ، فوالله إنّ له لشأناً ! ثم يجلسه معه على الفراش ويَمسح ظهرَه بيده ، ويسرُّه مايراه يَصنع .

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين هلك عبدالمطّلب ، وذلك بعد الفيل بثمانى سنين .

---

(١) الجفر : الغليظ الشديد . وردت في تاريخ الطبري جعفر

كفالة عمه له

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عبد المطّلب مع عمه أبي طالب.

وإن رجلاً من لِهْب [1] كان عائفاً [2] ، فكان إذا قدم مكّة إتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم . فأتى به أبو طالبٍ وهو غلامٌ مع من يأتيه ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم شغلَه عنه شيء فلما فرغ قال : الغلام ، عليَّ به . فلما رأى أبو طالب حرَصه عليه غيّبه عنه ، فجعل يقول : ويلكم ! ردُّوا عليّ الغلامَ الذى رأيتُ آنفا ، فوالله ليكوننّ له شأن !

---

(١) بنو لهب : قوم مشهورون بالعيافة .

(٢) العائف : الذى يتفرس فى خلقة الإنسان فيخبر بما تؤول حاله إليه .

قصة بَحِيرا

ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجرًا إلى الشام ، فلما تهيّأ للرحيل وأجمعَ المسيرَ صَبّ به[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقّ له أبو طالب وقال : والله لأخرجنّ به معى ولا يُفارقنى ولا أفارقه أبدًا .

فخرج به معه ، فلما نزل الركبُ بُصرَى وبها راهبٌ يقال له « بَحيرا » فى صومعة له ، وكان إليه عِلمُ أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصَّومعة منذ قطُّ راهبٌ إليه يصير علمهم عن كتابٍ فيها فيما يزعمون ، يتوارثونه كابرًا عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببحِيرا ، وكانوا كثيرًا مايمرُّون به قبلَ ذلك فلا يكلمهم ولا يَعرِض لهم حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريبًا من صومعته صنَع لهم طعامًا كثيرا .

وذلك فيما يزعمون عن شىء رآه وهو فى صومعته . يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى صومعته وفى الركب حين أقبلوا ، وغمامةٌ تُظِلّه من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرةٍ قريبا منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصّرت[2] أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظلّ تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته ثم أرسل إليهم فقال : إنّى قد

---

(١) أى مال إليه . ويروى « صب به » أى تعلق .

(٢) تهصرت : مالت ، وتدلت .

صنعتُ لكم طعاما يا معشر قريش ، فأنا أُحِبُّ أن تحضروا كلُّكم ، صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحُرُّكم .

فقال له رجلٌ منهم : والله يا بَحيرا إنّ لك لشأنًا اليوم ، فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنّا نمرُّ بك كثيرا ! فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرا : صدقتَ ، قد كان ما تقول ، ولكنَّكم ضيف ، وقد أحببتُ أن أكرمَكم وأصنعَ لكم طعامًا فتأكلوا منه كلُّكم .

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم ، لحداثة سنِّه ، فى رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرا فى القوم لم يرَ الصفة التى يَعرِف ويَجِد عنده ، فقال : يا معشر قريش ، لا يتخلّفنَّ أحدٌ منكم عن طعامى . قالوا له : يا بحيرا ، ما تخلّفَ عنك أحدٌ ينبغى له أن يأتيك إلّا غلام ، وهو أحدث القومِ سنًّا فتخلَّفَ فى رحالهم . فقال : لا تفعلوا ، ادعُوه فليحضُر هذا الطعامَ معكم . فقال رجلٌ من قريشٍ مع القوم : واللّاتِ والعُزَّى ، إنْ كان لَلُؤمٌ بنا أن يتخلّف ابنُ عبد الله بن عبد المطّلب عن طعامٍ من بيننا ! ثم قام فاحتضنه وأجلسه مع القوم ، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديدا وينظر إلى أشياء من جَسَده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فقال له : يا غلام ، أسألُك بحقِّ اللات والعُزّى إلّا ما أخبرتَنى عما أسألُك عنه — وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما — فزعموا أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لا تسألْنى باللات والعزّى ، فوالله ما أبغضت شيئاً قطُّ بُغضَهما ! فقال له بحيرا : فبالله إلّا ما أخبرتَنى عما أسألك عنه . فقال له : سَلنى ما بدالك . فجعل يسأله عن أشياءَ من حاله فى نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوّة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

فلما فرغ أقبل على عمه ابى طالب فقال له : ما هذا الغلامُ منك ؟ قال : ابنى . قال له بحيرا : ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا . قال : فإنه ابن أخى . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حُبلى به . قال : صدقت ، فارجعْ بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرَفوا منه ما عرفتَ ليبغُنَّه شرا ، فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم !

فأسرع به إلى بلاده .

حرب الفجَار

هاجت حرب الفجار ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة[1] . وإنما سمّي يومَ الفجار بما استحلَّ هذان الحيان : كنانة وقيس عيلان ، فيه من المحارم بينهم .

وكان قائد قريش وكنانة حربَ بن أمية ، وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان فى وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس .

(١) ذكر ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد بعض أيام الفجار ، أخرجه أعمامه معهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كنت أنبل على أعمامى» أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها . وهذا الفجار هو الفجار الأخير ، وهو فجار البراض . وقبله فجارات ثلاث : أولها بين كنانة وهوازن ، والثانى بين قريش وهوازن ، والثالث بين كنانة وهوازن . وتفصيلها فى العقد الفريد ، والأغانى .

تزويج خديجة رضى الله عنها

وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرةً ذاتَ شرفٍ ومال ، تستأجر الرجال فى مالها وتُضاربُهم إياه[1] بشىء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجارا ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه وعِظَمِ أمانته وكرم أخلاقه ، بعَثْت إليه ، فعرضت عليه أن يخرجَ فى مالٍ لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضلَ ما كانت تعطى غيره من التجار، مع غلامٍ لها يقال له مَيْسَرة ، فقبله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم منها وخرج فى مالها ذلك ، وخرج معه غلامُها ميسرة حتى قدم الشام .

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة قريباً من صومعة راهب[2] من الرهبان ، فاطّلع الراهب إلى ميسرة فقال : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال له ميسرة : هذا رجلٌ من قريش من أهل الحرم . فقال له الراهب : ما نزل تحتَ هذه الشجرة قطُّ إلا نبىّ !

---

(١) المضاربة : المقارضة .

(٢) اسم هذا الراهب نسطورا .

ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سِلْعته التى خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشترى ، ثم أقبل قافلا إلى مكة ، فكان ميسرة إذا كانت الهاجرةُ واشتدّ الحر يرى مَلَكين يُظِلّانِه من الشمس وهو يسيرُ على بعيره . فلما قدِم مكةَ على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأُضعِفَ[1] أو قريبا .

وحدّثها ميسرةُ عن قول الراهب وعمّا كان يرى من إظلال الملكين إياه . وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة شريفة ، مع ما أراد الله بها من كرامته ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا ابن عم ، إنى قد رغبتُ فيك لقرابتك وسِطَتك[2] فى قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك . ثم عرضتْ عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهنّ شرفا ، وأكثرهنّ مالا ؛ كلٌّ قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه .

فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لأعمامه فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد[3] فخطبها إليه فتزوّجها[4] .

---

(١) أضعف : صار مضاعفا .

(٢) السطة : الشرف ، من الوسط ، كالعدة من الوعد .

(٣) هو خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى.

(٤) أصدقها صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

فولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولدَه كلَّهم، إلا إبراهيم[1]، القاسمَ، وبه كان يكنَى، والطاهر والطيِّب[2]، وزينب، ورُقية، وأم كلثوم، وفاطمة، عليهم السلام.

فأما القاسم، والطيب والطاهر، فهلكوا فى الجاهلية، وأما بناته فكلهنّ أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أمه مارية القبطية، من « حفن » من كورة أنصنا من صعيد مصر، أهداها إليه المقوقس عظيم القبط.

(٢) الطاهر والطيب لقبان له، واسمه « عبد الله ».

حديث ورقة بن نوفل

وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نَوفل بن أسد بن عبد العزى ، وكان ابن عمها ، وكان نصرانيًا قد تتبَّع الكتب وعلم من علم الناس ، ما ذكر لها غلامُها مَيسرة من قول الراهب ، وما كان يرى منه إذ كان الملَكان يُظلانه ، فقال ورقة : لئن كان هذا حقًا يا خديجة إن محمدًا لنبىُّ هذه الأمة ، وقد عرَفتُ أنه كائن لهذه الأمّة نبىٌّ يُنتَظَر ، هذا زمانه !

فجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول : حتَّى متى ؟ وقال فى ذلك :

لِججتُ وكنتُ فى الذّكرى لجوجا	لهمٍّ طالما بعث النَّشيجا
ووصفٍ من خديجةَ بعد وصفٍ	فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكّتين على رجائى	حديثك أن أرى منه خروجا[1]
بما خبّرتنا من قول قَسٍّ	من الرُّهبان أكره أن أعوجا
بأنَّ محمداً سيسود فينا	ويَخْصِم من يكون له حجيجا
ويُظهر فى البلاد ضياء نورٍ	يقيم به البريّةَ أن تموجا
فيلقى من يُحاربه خَساراً	ويلقى من يسالمه فُلوجا[2]
فياليتى إذا ما كان ذاكم	شهدتُ فكنت أوّلَكم ولوجا

---

(١) ثنى مكة ، لأن لها بطاحا وظواهر .

(٢) الفلوج : النصر والغلبة .

بنيان الكعبة

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وكانوا يهُمّون بذلك ليسقّفوها ، ويهابون هدمها . وإنما كانت رَضْمًا[1] فوق القامة .

وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جُدّة لرجل من تُجّار الروم ، فتحطّمت فأخذوا خشبها فأعدُّوه لتسقيفها . وكان بمكّة رجل قبطيّ نجار ، فتهيأ لهم في أنفسهم بعضُ ما يصلحها ، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يُطرح فيها ما يُهدَى لها كلَّ يوم ، فتتشرّق[2] على جدار الكعبة . وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحدٌ إلّا احزألّت وكَشَّت[3] وفتحت فاها . فبينا هي ذات يوم تتشرّق على جدار الكعبة كما كانت تصنع بَعث الله إليها طائراً فاختطفها فذهبَ بها ، فقالت قريش : إنّا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا ، عندنا عاملٌ رفيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية .

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ ابن عَبْد بن عِمران بن مخزوم ، فتناول من الكعبة حجراً فوثبَ من يده حتى رَجع إلى موضعه ، فقال : يا معشرَ قريش ، لا تُدخلوا في

---

(١) الرضم : حجارة منضودة من غير ملاط . (٢) أي تبرز للشمس .

(٣) احزألت : رفعت رأسها . وكشت : صوتت باحتكاك جلدها بعضه ببعض .

بنائها من كسبكم إلّا طيبا ، لا يدخل فيها مهر بَغِيّ ، ولا بيع ربا ، ولا مَظلِمة أحدٍ من الناس .

ثم إن قريشاً جزّأت الكعبة ، فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزُهرة ، وما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزومٍ وقبائلَ من قريشٍ انضمُّوا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبنى جُمَحَ وسهم ، وشِــقّ الحِجر لبنى عبد الدار بن قصى ولبنى أسد بن عبدالعزى ، ولبنى عدى بن كعب .

ثم إنّ الناس هابوا هَدمَها وفرِقوا منه . فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم فى هدمها . فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم تَزِغ[1] ! اللهم لا نريد إلا الخير ! ثم هَدم من ناحية الركنين ، فتربّص الناسُ تلك الليلةَ وقالوا : ننظر ، فإن أُصيبَ لم نهدمْ منها شيئا ورددناها كما كانت ، وإن لم يُصبه شىء فقد رضى الله صُنْعَنا ، فهدمْنا .

فأصبح الوليدُ من ليلته غادياً على عمله ، فهدَم وهدم الناسُ معه حتى إذا انتهى الهدمُ بهم إلى الأساس ، أساسِ إبراهيم عليه السلام ، أفضَوا إلى حجارة خُضرٍ كالأسنمة[2] آخذٍ بعضُها بعضا.

---

(١) لم تزغ : لم نمل عن دينك

(٢) جمع سنام ، وهو أعلى ظهر البعير . ويروى : « كالأسنة » جمع سنان ، شبهت به فى الخضرة .

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حِدَة ، ثم بنَوْها حتى بلغ البنيانُ موضعَ الركن[1] فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوزوا[2] وتحالفوا وأعدُّوا للقتال .

فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة ، وكان عامئذ أسن قريشٍ كلها ، قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّلَ من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه . ففعلوا . فكان أوّلَ داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ! هذا محمد . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم : هلُمَّ إلىَّ ثوباً . فأُتِىَ به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كل قبيلةٍ بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا . ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه .

---

(١) يراد به الحجر الأسود ، لأن موضعه فى الركن .

(٢) تحاوزوا : انحاز كل قبيل منهم إلى جانب .

إخبار الكهان من العرب

والأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى

وكانت الأحبار من يهودَ ، والرهبانُ من النصارى ، والكُهّان من العرب ، قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مَبعثه لما تقارب من زمانه . أما الأحبار من يهود والرهبان من النصارى ، فعمَّا وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه . وأما الكُهّان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترقُ من السَّمع ، إذْ كانت وهى لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم . وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره ، لا تُلقى العرب لذلك فيه بالاً ، حتّى بعثه الله ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون ، فعرفوها .

فلمّا تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مَبعثُه ، حُجبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعُد لاستراق السمع فيها ، فرُموا بالنجوم . فعرفت الجنُّ أن ذلك لأمرٍ حدث من أمر الله فى العباد .

صفة رســول الله

صلى الله عليه وسلم

قال ابن هشام :

وكانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر عُمر مولى غُفرة عن إبراهيم بن محمد بن على بن أبى طالب قال :

كان على بن أبى طالب عليه السلام إذا نَعَتَ رسول الله قال : لم يكن بالطويل الممغَّط[١] ، ولا القصير المتردّد ، وكان رَبْعةً[٢] من القوم ، ولم يكن بالجعد القَطَط[٣] ولا السَّبط ، كان جَعْدا رَجْلا[٤] ، ولم يكن بالمطهّم[٥] ولا المكلثَم[٦] . وكان أبيض مُشْربًا ، أدعج العينين[٧] ، أهدَب الأشفار[٨] ، جليل المُشَاش[٩] والكتد[١٠] ، دقيق المسُربة[١١]

---

(١) الممغط : الممتد .

(٢) الربعة : الذى ليس بالطويل ولا القصير .

(٣) القطط : الشديد جعودة الشعر .

(٤) الرجل : المسرح الشعر .

(٥) المطهم : العظيم الجسم .

(٦) المكلثم : المستدير الوجه فى صغر .

(٧) الأدعج : الأسود العينين .

(٨) أهدب الأشفار : طويل أهدابها .

(٩) المشاش : عظام رءوس المفاصل .

(١٠) الكتد : ما بين الكتفين .

(١١) المسربة : الشعر الممتد من الصدر إلى السرة .

أجردَ[١] ، شَثْن الكفين[٢] والقدمَين ، إذا مشى تقلَّع[٣] ، كأنّما يمشى فى صبَب[٤] ، وإذا التفَت التفت معاً ، بين كتفيه خاتمَ النبوَّة ، وهو صلى الله عليه وسلم خاتم النبِّيين ، أجْوَدُ الناس كفًّا ، وأجرأ الناس صدرًا ، وأصدق الناس لَهْجة[٥] ، وأوفى الناس ذمّة ، وألينَهُم عريكة[٦] ، وأكرمهم عشرة ، من رآهُ بديهةً[٧] هابه ، ومن خالطَه أحبّه . يقول ناعِتُه : لم أر قبله ولا بعده مثلَه ، صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الأجرد : القليل الشعر .

(٢) الشثن : الغليظ .

(٣) تقلع : لم يثبت قدميه .

(٤) الصبب : ما انحدر من الأرض .

(٥) اللهجة : الكلام .

(٦) لين العريكة : حسن العشرة .

(٧) بديهة : ابتداء .

صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

من الإنجيل

قال ابن إسحاق :

وقد كان فيما بلغنى عما كان وضع عيسى بنُ مريم فيما جاءه من الله فى الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أثبتَ يُحَنَّس الحوارىُّ لهم ، حين نسخ لهم الإنجيل عَن عهد عيسى ابن مريم عليه السلام فى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، أنه قال :

« من أبغَضَنى فقد أبغض الربَّ . ولولا أنِّى صنعتُ بحضرتهم صنائعَ لم يَصنعْها أحدٌ قبلِى ما كانت لهم خطيئة . ولكن من الآية بَطِروا وظنُّوا أنهم يَعِزوننِى[1] وأيضًا للربِّ ، ولكن لابدَّ من أن تتمَّ الكلمةُ التى فى الناموس . إنّهم أبغضونى مجّانا — أى باطلا . فلو قد جاء المُنْحَمَنَّا هذا الذى يرسله الله إليكم من عند الرب . روح القدس هذا الذى من عند الرب خرج ، فهو شهيدٌ علىَّ وأنتم أيضا ، لأنكم قديماً كنتم معى . فى هذا قلت لكم لكيما لاتشكّوا[2] » .

و « المَنْحَمَنَّا » بالسريانية : محمد وهو بالرومية « البَرَقْلِيطسْ » .

---

(١) عزه يعزه : غلبه .

(٥) انظر إنجيل يوحنا ١٥ : ٢٣ — ٢٦ .

البَعث

فلما بلغ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين، وكافةً للناس بشيرا. وكان الله تبارك وتعالى قد أخذَ الميثاقَ على كلِّ نبيٍّ بعثَه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأَخذ عليهم أن يؤدُّوا ذلك إلى كل مَن آمن بهم وصدّقهم، فأدَّوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه.

عن عائشة رضى الله عنها:

إنّ أوّلَ مابدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوّة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة، لايرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فى نومه إلاّ جاءت كفلق الصبح. وحبَّبَ الله تعالى إليه الخَلوة، فلم يكن شئ أحبَّ إليه من أن يخلوَ وحده.

وعن عبد الملك بن عبيد الله:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوّة، كان إذا خرج لحاجته أبعـــد حتى تحسر عنه البيوت[1]، ويفضىَ إلى شِعاب[2] مكّة وبطونِ أوديتها، فلا يمرُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجرٍ ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه، فلا يَرى إلا الشجرَ والحجارة. فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أى تبعد عنه. (٢) الشعب: ما انفرج بين الجبلين.

كذلك يَرى ويسمع ، ما شاء الله أن يمكث . ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله ، وهو بحراء[١] ، فى شهر رمضان .

عن عبيد بن عمير :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور فى حراء من كل سنة شهرًا ، وكان ذلك مما تَحَنَّثُ به قريشٌ فى الجاهلية[٢] . فكان يجاور ذلك الشهرَ من كل سنة يُطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك كان أولُ مايبدأ به إذا انصرفَ من جواره الكعبةَ ، قبل أن يدخل بيتَه ، فيطوف بها سبعًا أو ماشاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته . حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلةُ التى أكرمَه الله فيها برسالته ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءنى جبريل وأنا نائم بنَمَط من دِيباج[٣] فيه كتاب ، فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ[٤] . قال : فغَتَّنى به[٥] حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ . فغتَّـنى به حتى ظننتُ أنه الموت ثم أَرسلنى فقال : اقرأ . فقلت :

---

(١) حراء : جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال

(٢) التحنث : التعبد واعتزال الأصنام .

(٣) النمط : ضرب من البسط والديباج : ثياب من الإبريسم .

(٤) ويروى : « ما أنا بقارئ » . (٥) غته : عصره عصرا شديدا .

ماذا أقرأ ؟ فغتّني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ ؟ فقال : (اقرأْ باسم ربِّك الذى خَلق.خَلَق الإنسان مِن عَلَق. اقرأ وربُّك الأكرمُ . الذى علّمَ بالقلم . علَّم الإنسان ما لم يَعلمْ) . قال : فقرأتُها ثم انتهى فانصرفَ عنّى ، وهببت من نومى فكأنّما كتِبت فى قلبى كتابا .

فخرجتُ حتى إذا كنتُ فى وسطٍ من الجبل سمعتُ صوتاً من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسولُ الله وأنا جبريل ! فرفعتُ رأسى إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل فى صورة رجل صافٌ قدَميه فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ! فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرِف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلتُ واقفاً ما أتقدمُ أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثَتْ خديجةُ رسلَها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكّة ورجعوا إليها وأنا واقفٌ فى مكانى ذلك . ثم انصرف عنّى

وانصرفتُ راجعاً إلى أهلى حتى أتيتُ خديجة فجلست إلى فخذها مُضيفاً إليها [1] فقالت : يا أبا القاسم ، أين كنت ؟ فوالله لقد بعثتُ رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكّة ورجعوا إلىّ ! ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت : أبشِر يا ابن عمّ واثبتْ ، فوَالذى نفسُ خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبىَّ هذه الأمة !

---

(١) مضيفا بها : ملتصقا بها مائلا إليها .

ثم قامت فجمعت عليها ثيابَها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمِّها ، وكان ورقة تنصَّر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرتهْ بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قُدّوس قدوس ! والذى نفس ورقةَ بيده ، لئن كنتِ صدقتينى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر[1] الذى كان يأتى موسى[2] ، وإنه لنبىٌّ هذه الأمة ، فقولى له فليثبُتْ .

فرجعت خديجةُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة ، فلمّا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة ، فقال : يا ابن أخى ، أخبرنى بما رأيتَ وسمعت . فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبىٌّ هذه الأمّة ، ولقد جاءك الناموسُ الأكبر الذى جاء موسى ، ولتُكذَّبَنَّه ، ولتُؤذَيَنَّه ، ولتُخرَجَنّه ، ولتُقاتَلنّه[3] ! ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصراً يعلمه ! ثم أدنى رأسه منه فقبلّ يافوخَه[4] ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله .

---

(١) أراد به الملك الذى جاءه بالوحى ، وأصل الناموس صاحب سر الرجل .

(٢) السهيلى : « إنما ذكر ورقة موسى ولم يذكر عيسى وهو أقرب ، لأن ورقة كان قد تنصر ، والنصارى لا يقولون فى عيسى : إنه نبى يأتيه جبريل ، إنما يقولون فيه : إن أقنوما من الأقانيم الثلاثة اللاهوتية حل بناسوت المسيح واتحد به ، على اختلاف بينهم فى ذلك الحلول » .

(٣) الهاء فى كل هذه الأفعال هى هاء السكت . (٤) يافوخه : أم رأسه .

ابتداء تنزيل القرآن

فابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل فى شهر رمضان.

يقولُ اللهُ عزّ وجلّ: (شهر رمضانَ الذى أُنزِلَ فيه القرآنُ هدًى للنّاس وبيِّناتٍ من الهدُى والفرقان). وقال الله تعالى: (إنا أنزلناهُ فى ليلة القدر. وما أَدْراكَ ما لَيلةُ القَدْر. ليلةُ القدر خيرٌ من ألفِ شهر. تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها بإذْنِ ربهم من كلِّ أمرٍ. سلامٌ هى حتى مَطلع الفَجْر).

وقال الله تعالى: (حم. والكتابِ المبين. إنّا أنزلْناهفى ليلةٍ مُباركة إنّا كُنّا مُنذِرين. فِيها يفْرَقُ كُلُّ أمرٍ حكيم. أمرًا مِن عندنا إنّا كُنّا مُرْسلِين). وقال تعالى: (إنْ كُنْتم آمنتم باللهِ وما أَنْزَلْنا على عَبْدِنا يومَ الفُرقان يومَ التَقَى الجَمْعانِ). وذلك ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين ببدر.

إسلام خديجة بنت خويلد

وآمنت به خديجة بنت خُويلِد ، وصدقت بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره ، وكانت أوّلَ من آمَنَ بالله وبرسوله ، وصدّق بما جاء منه ، فخفّف الله بذلك عن نبيّه صلى الله عليه وسلم ، لايسمع شيئاً مما يكرهه مِن ردٍّ عليه وتكذيب له . فيحزُنُه ذلك ، إلا فرَّج الله عنه بها إذا رَجع إليها ، تثبّته وتخفّف عليه ، وتصدِّقه ، وتهوِّن عليه أمر الناس ، رحمهما الله !

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرتُ أن أُبشِّر خديجة ببيتٍ من قَصَب[1] ، لا صخَب فيه ولا نَصَب » .

(١) القصب : اللؤلؤ المنحوت .

فترة الوحى

ثم فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترةً من ذلك ، حتّى شقّ ذلك عليه فأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحى ، يُقسِم له ربه ، وهو الذى أكرمه بما أكرمه به : ما ودّعه وما قلاه ، فقال تعالى : (والضُّحَى واللَّيلِ إذا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى) ، يقول : ما صرمك فتركك ، وما أبغضك ثم أحبَّك . (ولَلآخرةُ خيرٌ لك من الأولى) أى لما عندى من مَرجعك إلىّ خيرٌ لك مما عجَّلتُ لك من الكرامة فى الدنيا . (ولَسَوْفَ يُعطِيك ربُّكَ فترضَى) من الفَلَج[1] فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة . (أَلَمْ يجِدْكَ يتيماً فآوَى . ووجَدك ضالًّا فهدَى . ووَجدَك عائلًا فأغنى) . يعرّفه الله ما ابتدأه به من كرامته فى عاجل أمره ، ومَنِّه عليه فى يُتْمه وعَيْلته وضلالته ، واستنقاذه من ذلك كلِّه برحمته . (فأما اليتيم فلا تَقْهَرْ . وأمّا السَّائلَ فلا تنهرْ) أى لا تكن جبّاراً ولا متكبرًا ، ولا فحّاشاً فظًّا على الضّعفاء من عباد الله . (وأمَّا بِنعمَةِ رَبِّكَ فحدِّث) أى بما جاءك من الله من نعمته وكرامته من النبوّة فحدِّث ، أى اذكرْها وادعُ إليها .

فجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يذكُر ما أنعم الله به عليه ، وعلى العباد به من النبوّة سرًّا إلى مَن يطمئنُّ إليه من أهله .

---

(١) الفلج : الفوز والغلبة .

أوّل الناس إسلاما

ثم كان أولَ ذكَرٍ من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلّى معه وصدّق بما جاءه من الله تعالى: على بن أبى طالب، رضوان الله وسلامه عليه، وهو يومئذ ابن عَشْر سنين

وكان من نعمة الله على علىّ بن أبى طالب، ومما صنع الله له، وأراده به من الخير، أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالبٍ ذا عيال كثير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه، وكان من أيَسرِ بنى هاشم: يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناسَ ما ترى من هذه الأزمة، فانطلقْ بنا فلنُخفِّف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكفهما عنه. فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفّف من عيالك حتى ينكشفَ عن الناس ما هم فيه. فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما.

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا فضمّه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمّه إليه. فلم يزل علىّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيًّا. فاتّبعه على رضى الله عنه، وآمن به وصدّقه.

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه على بن أبى طالب

مستخفيا من أبيه ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصلِّيان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا . فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا . ثم إنّ أبا طالب عثَر عليهما يومًا وهما يصلِّيان فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخى ، ما هذا الدِّين الذى أراك تدين به ؟ قال : أىْ عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولًا إلى العباد ، وأنت يا عمِّ أحقُّ مَن بذلتُ له النصيحةَ ، ودعوتُه إلى الهدى ، وأحقُّ من أجابنى إليه وأعاننى عليه . فقال أبو طالب : أى ابنَ أخى ، إنِّى لا أستطيع أن أفارقَ دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يُخلَصُ إليك بشىءٍ تكرهه ما بقيتُ !

ثم أسلم (زيد بن حارثة) بن شُرَحبيل بن كعب بن عبد العزى . وكان حكيم بن حزام بن خويلد قدِم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة ، فدخلتْ عليه عمّته خديجة وهى يومئذ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : اختارى يا عمة ، أىَّ هؤلاء الغلمان شئتِ فهو لك . فاختارتْ زيداً فأخذته ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها فاستوهبه منها فوهبته له ، فأعتقه وتبناه ، وذلك قبل أن يُوحَى إليه .

ثم أسلم (أبو بكر بن أبى قُحافة) ، واسمه عتيق ، واسم أبى قحافة عثمان . فلما أسلم أبو بكر رضى الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله ورسوله . وكان أبو بكر رجلًا مألفًا لقومه ، محببًا سهلا ، وكان أنسبَ قريش لقريش وأعلم قريشٍ بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان

رجلا تاجرا ذا خلقٍ ومعروف، وكان رجالُ قومه يأتونه ويألفونه لغير واحدٍ من الأمر: لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته. فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام مَن وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه.

فأسلم بدعائه عثمانُ بن عفان، والزُّبير بن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله. فكان هؤلاء النفر الثمانية[1] الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلَّوا وصدّقوا.

ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم ابن أبي الأرقم[2] وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله، وعُبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد بن عمرو، وامرأته فاطمة أخت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر، وعائشة بنت أبي بكر وهي يومئذ صغيرة، وخبّاب بن الأرتّ، وعُمَير بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، ومسعود بن القاريّ، وسَلِيط بن عمرو، وعيّاش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سلامة، وخُنَيس بن حذافة، وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد، وجعفر ابن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلّل، وأخوه حطّاب، وامرأته فُكَيهة بنت يسار، ومعمر بن الحارث، والسائب بن عثمان بن مظعون،

(١) هم علي، وزيد، وأبو بكر، ومن أسلم على يديه.

(٢) وفي داره كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفيا من قريش بمكة يدعو الناس فيها إلى الإسلام، وكانت داره على الصفا، حتى تكامل المسلمون أربعين رجلا بإسلام عمر، فلما تكاملوا أربعين رجلا خرجوا.

والمطَّلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف، والنحّام واسمه نعيم بن عبد الله، وعامر بن فهيرة، وخالد بن سعيد بن العاص، وامرأته أمينة بنت خلف، وحاطب بن عمرو، وأبو حذيفة بن عتبة ابن ربيعة، وواقد بن عبدالله؛ وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير ابن عبد ياليل، وعمار بن ياسر، وصُهيب بن سِنان الرومى[1].

الجهر بالدعوة

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالاً[2] من الرجال والنساء، حتى فشا ذِكر الإسلام بمكّة وتُحُدِّث به.

ثم إن الله عزّ وجلّ أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصدعَ بما جاءه منه، وأن يبادىَ[3] الناسَ بأمره وأن يدعوَ إليه. وكان بين ما أخفى رسولُ الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاثُ سنين من مَبعثه، ثم قال الله تعالى له: (فاصدَعْ بما تؤمَرُ وأَعرِضْ عن المشرِكينَ). وقال تعالى: (وأَنْذِرْ عشِيرتَكَ الأقربِينَ. واخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَن اتَّبعَكَ من المؤمنينَ. وقُلْ إنِّى أنا النَّذيرُ المُبين).

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلَّوا ذهبوا فى الشِّعاب فاستخفَوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبى وقاص

---

(١) صهيب عربى، ولكن الروم سبته صغيرا فنشأ فيهم فصار ألكن، ثم اشتراه رجل من كلب فباعه بمكة: فاشتراه عبد الله بن جدعان فاعتقه. وفى الحديث: «صهيب سابق الروم».

(٢) جمع رسل بالتحريك، وهى الجماعة. (٣) المباداة: المجاهرة.

فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعبٍ من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلُّون، فناكروهم وعابوا عليهم مايصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلَحْى بعيرٍ فشجّه[1]، فكان أوّل دمٍ هُريق فى الإسلام. أو: أُهريق

فلما بادَى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد عنه قومُه ولم يردُّوا عليه حتّى ذكر آلهتَهم وعابها، فلمّا فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خِلافَه وعداوتَه، إلّا مَن عَصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليلٌ مستخْفون.

وحدب[2] على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمُّه أبو طالب، ومنعَه وقام دونه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهِراً لأمره، لا يردُّه عنه شىء. فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُعتِبهم[3] من شىءٍ أنكروه عليه، من فِراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمّه أبا طالب قد حدِب عليه، وقام دونه فلم يُسلمه لهم، مشى رجالٌ من أشراف قريشٍ إلى أبى طالب فقالوا: يا أبا طالب، إنّ ابنَ أخيك قد سبَّ آلهتَنا وعاب دينَنا وسفّه أحلامَنا وضَلَّل آباءنا، فإمّا أن تكفّه عنا، وإمّا أن تخلِّيَ بيننا وبينه! فقال لهم أبو طالبٍ قولاً رفيقًا، وردّهم ردًّا جميلا، فانصرفوا عنه.

---

(1) اللحى: العظم الذى فيه الأسنان. شجه: كسر رأسه.

(2) أى عطف ورق. (3) يعتبهم: يرضيهم.

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماهو عليه ، يُظهر دين الله ويدعو إليه ، ثم شَرِىَ[1] الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجالُ وتضاغنوا ، وأكثرتْ قريشٌ ذكر رسول الله بينها ، فتذامروا فيه[2] ، وحضّ بعضهم بعضاً عليه .

ثم إنهم مشَوا إلى أبى طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهَه عنّا ، وإنّا والله لا نصبِر على هـذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفّه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يَهلِك أحد الفريقين .

فبَعثَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا ابنَ أخى ، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا — للذى كانوا قالوا له — فأبقِ علىّ وعلى نفسك ، ولا تحمِّلنى من الأمر مالا أطيق .

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمِّه فيه بَداءٌ[3] أنه خاذِله ومُسْلِمه ، وأنَّه قد ضعُف عن نصرته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمسَ فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أتركَ هذا الأمرَ حتّى يُظهرَه الله أو أهلِكَ فيه ، ما تركته ! ثم استعبَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ، ثم قام ،

---

(١) شرى : استطار وتفرق .　　(٢) أى حض بعضهم بعضا .

(٣) أى رأى جديد .

فلما ولَّى ناداه أبو طالب فقال: أقبلْ يا ابن أخى. فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: اذهبْ يا ابن أخى فقلْ ما أحببت، فوالله لا أسلمُك لشىءٍ أبدا.

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالبٍ قد أبى خِذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه، وإجماعَه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم، مشَوا إليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة. فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهَدُ[1] فتًى فى قريشٍ وأجملُه، فخذْه فلك عقلُه[2] ونُصرته، واتَّخذْه ولداً فهو لك، وأسلِمْ إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينَك ودين آبائك، وفرَّق جماعةَ قومك وسفَّه أحلامهم[3] فنقتله، فإنما هو رجل برجل! فقال: واللهِ لبئس ما تسومونَنى[4]! أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه! هذا والله مالا يكون أبدا! فقال المطعِم بن عدى: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلّص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبلَ منهم شيئا! فقال أبو طالب للمطعِم: والله ما أنصفونى، ولكنَّك قد أجمعتَ خذلانى ومظاهرةَ القوم علىّ، فاصنعْ ما بدالك!

فحقِب الأمر[5]، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادَى بعضُهم بعضا.

---

(١) أى أشد وأقوى. (٢) العقل: الدية.

(٣) أى عقولهم. (٤) أى تكلفوننى.

(٥) حقب أمرهم: فسد

ثم إن قريشاً تذامروا[1] بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه ، فوثبت كلُّ قبيلةٍ على مَن فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم منهم بعمه أبى طالب .

وقد قام أبو طالب ، حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون ، فى بنى هاشم وبنى المطلب ، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيامِ دونه ، فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه ، إلا ما كان من أبى لهبٍ عدوِّ الله الملعون .

قول الوليد بن المغيرة فى القرآن

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نَفَرٌ من قريش ، وكان ذا سنّ فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسمُ وإنّ وفود العرب ستقدَم عليكم فيه ، وقد سمِعوا بأمرِ صاحبكم هذا ، فأجمِعوا فيه رأياً واحدا ، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضا ، ويرد قولَكم بعضُه بعضا .

فقالوا : فأنت يا أبا عبدِ شمسٍ فقُلْ وأقِمْ لنا رأياً نقول به .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكُهّانَ فما هو بزمزمة[2] الكاهن ولا سجعه ، قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنونَ وعرفناه ، فما هو بخَنْقِه ولا تخالِجه ولا وسوسته .

---

(١) تذامروا : حض بعضهم بعضا . (٢) الزمزمة : كلام خفى لا يسمع .

قالوا : فنقول : شاعر . قال : ماهو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كلَّه رجزَه وهزَجه وقريضَه ، ومقبوضَه ومبسوطه ، فما هو بالشعر .

قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السُّحَّارَ وسحرَهم فما هو بنَفْثهم ولا عَقْدهم[1] .

قالوا : فما تقول أنت يا أبا عبد شمس . قال : والله إن لقوله لَحَلاوة ، وإن أصلَه لعَذْق[2] ، وإن فرعَه لجَنَاة[3] . وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلّا عُرف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه لَأَنْ تقولوا : ساحر ، جاء بقولٍ هو سحر يفرِّق بين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرّقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبُل الناس حين قدِموا الموسم لا يمرُّ بهم أحدٌ إلّا حذّروه إيّاه ، وذكروا لهم أمره . فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة : (ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . ثُمَّ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا) .

فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن لقوا من الناس ، وصدرت العربُ من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلِّها .

---

(١) كان الساحر يعقد خيطا ثم ينفث فيه .

(٢) العذق ، بالفتح : النخلة . (٣) الجناة : ما يجنى .

ذكر مالقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه

ثم إن قريشاً اشتدّ أمرُهم، للشّقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَن أسلم معه منهم، فأغروا به سفهاءهم فكذّبوه وآذَوه، ورقوه بالشعر والسِّحر والكِهانة والجنون، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظِهرٌ لأمر الله لا يَستخفى به، مُبادٍ[1] لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم على كفرهم.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص:

حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً فى الحِجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ما رأينا مِثلَ ما صبرَنا عليه من أمر هذا الرجل قطّ! سَفّه أحلامَنا، وسَبَّ آلهتَنا، لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم!

فبيناهم فى ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشى حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت، فلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول، قال: فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما مرّ بهم الثانيةَ غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك فى وجه رسول صلى الله عليه وسلم، ثم مرّ بهم الثالثةَ فغمزوه بمثلها، فوقف ثم قال: « أتسمعون يا معشر قريش، أمَا والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذّبح[2]!».

---

(١) أى مجاهر. (٢) كناية عن الهلاك إن لم يؤمنوا.

فأخذَت القومَ كلمتُه حتّى ما منهم رجلٌ إلاّ كأنّما على رأسه طيرٌ واقع ، حتّى إن أشدَّهم فيه وَصاةً[1] قبل ذلك لَيرفَؤه[2] بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنتَ جهولا !

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحِجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه !

فبينما هم فى ذلك طلع عليهم رسول صلى الله عليه وسلم فوثَبوا وثبةَ رجلٍ واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا — لمَا كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم — فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نَعَم أنا الذى أقول ذلك .

قال : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمَجمع ردائه ، فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله !

ثم انصرفوا عنه . فإنّ ذلك لأشدُّ ما رأيت قريشاً نالوا منه قطّ !

---

(١) الوصاة : الوصية ، أى وصية بالأذى .

(٢) يرفؤه : يسكنه ويهدئه .

إسلام حمزة

حدثنى رجل من أسلم كان واعية :

أن أبا جهلٍ مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلِّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومولاةٌ لعبد الله ابن جُدْعان فى مسكنٍ لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه فعَمَدَ إلى نادٍ من قريش عند الكعبة فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبلَ متوشحاً قوسَه[1] ، راجعاً من قَنَصٍ له[2] ، وكان صاحبَ قَنص يرميه ويَخرُج له ، وكان إذا فعل ذلك لم يمرَّ على نادٍ من قريش إلّا وقف وسلَّم وتحدثَ معهم ، وكان أعزَّ فتىً فى قريش وأشدَّهُ شكيمة ، فلما مرَّ بالمولاة وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته قالت له : يا أبا عُمارة ، لو رأيتَ ما لقىَ ابنُ أخيك محمدٌ آنفاً من أبى الحكم[3] بن هشام ؟ وجدَه ها هنا جالساً فآذاه وسبّه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم !

---

(١) أى متقلداً إياه .

(٢) القنص : الصيد .

(٣) أبو الحكم : كنية أخرى لأبى جهل . واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

فاحتمل حمزةَ الغضبُ لما أراد اللهُ به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقفْ على أحد ، مُعـدًّا لأبى جهل إذا لقيَه أن يُوقعَ به ، فلمّا دخل المسجدَ نظر إليه جالساً فى القوم ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوسَ فضربه بها فشجَّه شجَّةً منـكرة ، ثم قال : أتشتمُه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فردَّ ذلك علىّ إن استطعت .

فقامت رجالٌ من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعُوا أبا عُمارة ، فإنّى والله قد سببتُ ابنَ أخيه سباًّ قبيحا ، وتم حمزةُ رضى الله عنه على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزةْ عرفت قريشٌ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزّ وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه . فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

قول عتبة بن ربيعة فى أمر رسول الله

حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة — وكان سيِّدًا — قال يومًا وهو جالسٌ فى نادى قُريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ فى المسجد وحده : يامعشر قريش ، ألاَ أقومُ إلى محمد فأكلِّمه وأعرضَ عليه أمورًا لعلَّه يقبل بعضها فنعطيه أيَّها شاء ويكفّ عنَّا ؟ وذلك حين أسلم حمزةُ ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون . فقالوا : بلَى يا أبا الوليد ، قمْ إليه فكلِّمْه . فقام إليه عتبةُ حتَّى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياابن أخى ، إنّك منّا حيث قد علمتَ من السِّطَة[1] فى العشيرة ، والمكان فى النّسب ، وإنك قد أتيتَ قومَك بأمر عظيم فرّقتَ به جماعتَهم ، وسفَّهت به أحلامَهم ، وعبتَ به مَن مضى من آبائهم ، فاسمعْ منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلَّك تقبل منها بعضها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : ياابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفًا سوّدناك علينا حتى لا نقطعَ أمرًا دونَك ، وإن كنت تريد به مُلكًا ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رَئيًا[2] تراه لا تستطيع

---

(١) السطة : الشرف ، من الوسط ، كالعدة من الوعد .

(٢) الرئى : مايتراءى للإنسان من الجن .

ردّه عن نفسك طلبنا لك الطّبَّ وبذلْنا فيه أموالنا حتّى نبرْئَك منه ، فإنّه ربّما غلب التابعُ[1] على الرجل حتى يُداوَى منه .

حتى إذا فرَغَ عتبةُ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : أقد فرَغتَ يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى قال : أفعلُ فقال : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) . ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ، فلمّا سمِعها منه عتبةُ أنصتَ لها ، وألقَى يديه خلفَ ظهرِه معتمداً عليهما يسمع منه ؛ ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السّجدة منها[2] فسجَد ، ثم قال : قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ فأنتَ وذاك .

فقام عتبةُ إلى أصحابه فقال بعضُهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغيرِ الوجه الذى ذهبَ به . فلما جلسَ إليهم قالوا : ماوراءكَ يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنّى سمعتُ قولًا والله ما سمعتُ بمثله قطُّ ، والله ما هو بالشّعر ولا بالسّحر ولا بالكِهانة . يا معشرَ قريش ،

---

(١) التابع : الصاحب من الجن .

(٢) هى قوله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » .

أطيعوني واجعلوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزِلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذى سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تُصِبْه العربُ فقد كُفِيتُمُوه بغيركم، وإن يَظْهرْ على العرب فملكُه مُلككم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعدَ الناسِ به!

قالوا: سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

ما دار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم
وبين رؤساء قريش

ثم إنّ الإسلام جعل يفشو بمكّة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء، وقريش تحبس مَن قدرتْ على حبسه. وتَفتِنُ من استطاعت فتنتَه من المسلمين.

ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة، وهم عتبة بن ربيعة، وشيبة ابن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبو البَخْترى ابن هشام، والأسود بن المطّلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبى أمية، والعاصى بن وائل، ونُبَيه ومُنَبه ابنا الحجاّج، وأمية بن خلف، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تُعذِروا فيه. فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك فأْتِهم. فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا، وهو يظنُّ أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بَدَاء، وكان عليهم حريصاً يحبُّ رشدَهم ويعزُّ عليه عنتُهم[1]، حتّى جلسَ إليهم، فقالوا له: يا محمد، إنّا قد بعثنا إليك لنكلّمَك، وإنّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخَلَ على قومه مثلَ ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعِبت

---

(١) العنت: الجور والأذى.

الدين ، وشتمتَ الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرّقتَ الجماعة ، فما بقى أمرٌ قبيح إلا قد جئتَه فيما بيننا وبينك ، فإن كنتَ إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرفَ فينا فنحن نسوِّدك علينا ، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بَذَلنا لك أموالنا فى طلب الطّبّ لك حتى نبرئك منه أو نُعذِر فيك .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرفَ فيكم ولا الملك عليكم ، ولكنّ الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزلَ علىّ كتاباً وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلّغتكم رسالات ربى ونصحتُ لكم ، فإنْ تَقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظُّكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه علىّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكمَ الله بينى وبينكم .

قالوا : يا محمد ، فإن كنتَ غير قابلٍ منّا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمتَ أن ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلداً ، ولا أقلّ ماء ، ولا أشدّ عيشاً منا ، فسل لنا ربّك الذى بعثك بما بعثك به فليسيِّر عنّا هذه الجبالُ التى قد ضيَّقتْ علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجِّر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعثْ لنا من مضَى من آبائنا ، وليكن فيمن يُبعثُ لنا منهم قَصىُّ بن كِلاب ، فإنّه كان شيخَ صدق ،

فنسألهم عما تقول ، أحقٌّ هو أم باطل فإن صدَّقوك وصنعت ما سألناك صدَّقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : ما بهذا بُعثتُ إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلَّغتكم ما أُرسِلت به إليكم ، فإن تَقْبلوه فهو حظُّكم فى الدُّنيا والآخرة ، وإن ترُدُّوه علىَّ أصبرْ لأمر الله تعالى حتَّى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذْ لنفسك ، سَلْ ربَّك أن يبعث معك مَلَكاً يصدِّقك بما تقول ، ويُراجعنُا عنك ، وسلْه فليجعلْ لك جِناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضّة ، يُغنيك بها عمَّا نراك تبتغى . فإنّك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمِسُه ، حتّى نعرف فضلَك ومنزلتَك من ربِّك إن كنت رسولاً فيما تزعم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربّه هذا ، وما بُعِثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيرا ، فإن تَقبلوا ما جئتُكم به فهو حظُّكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه علىّ أصبرْ لأمر الله حتّى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا : فأسقِط السماء علينا كِسَفاً[1] كما زعمت أن ربّك إن شاء فعل ؛ فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل .

---

(١) جمع كسفة بالكسر ، وهى القطعة من الشىء .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعل .

قالوا : يا محمد ، أفما علم ربُّك أنّا سنجلس معك ونسألُك عمّا سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدَّم إليك فيعلمَك ما تُراجعُنا به ، ويخبرك ما هو صانعٌ فى ذلك بنا ، إذْ لم نقبل منك ما جئتنا به ! إنّه قد بلغنا أنه إنمّا يعلِّمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له « الرحمن[1] » ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أَعذَرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركُك وما بلغتَ منّا حتى نُهلكك أو تهلكنا ! وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ؛ وهى بنات الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم ، وقام معه عبدالله بن أبى أمية بن المغيرة ، وهو ابن عمته[2] . فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومُك ما عرضوا فلم تقبلْه منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتَك من الله كما تقول ، ويصدّقوك ويتبّعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذَ لنفسك ما يعرفون به فضلَك عليهم ومنزلتَك من الله فلم تفعل ، فوالله لا أومن بك أبداً حتّى تتخذ إلى السماء سُلمَّاً ثم ترَقىَ فيه وأنا أنظرُ إليك حتّى تأتيها ، ثم تأتى معك

---

(١) هو مسيلمة بن حبيب الحنفى ، المعروف بمسيلمة الكذاب ، كان قد تسمى بالرحمن فى الجاهلية ، وكان من المعمرين . الروض الأنف .

(٢) أسلم عبدالله قبل فتح مكة .

أربعةٌ من الملائكة يَشهدون لك أنّك كما تقول ، وايمُ الله لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أنّى أصدّقُك !

ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف عنه رسول الله إلى أهله حزيناً آسفا ، لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دَعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إيّاه .

صَنيع أبى جهل

فلما قام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو جهل : يا معشر قريش ، إن محمدًا قد أَبى إلاّ ما ترون من عَيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإنّى أعاهد الله لأجلسنّ له غدًا بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سَجَد فى صلاته فضختُ به رأسَه ، فأسلِمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم !

قالوا : واللهِ لا نُسلِمُك لشىءٍ أبداً ، فامضِ لما تريد .

فلما أصبح أبو جهلٍ أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغدا رسول الله كما كان يغدو ، وكان بمكّة وقبلته إلى الشام ، فكان إذا صلّى صلّى بين الركنين اليَمانِىّ والأسود ، وجعل الكعبةَ بينه وبين الشام . فقام يصلّى وقد غدت قريشٌ فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهلٍ فاعل ، فلما سجد

رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما مُنتقَعًا لونُه[1] مرعوبا، قد يبست يداه على حَجَره، حتى قذف الحجرَ من يده. وقامت إليه رجالُ قريش فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمتُ إليه لأفعل به ما قلتُ لكم البارحةَ، فلما دنوتُ منه عَرَضَ لى دونه فحلٌ من الإبل لا والله ما رأيتُ مثلَ هامته، ولا مثلَ قَصَرِته[2] ولا أنيابه لفحل قطّ، فهمَّ بى أن يأكلنى!

خبر النضر بن الحارث

فلما قال لهم ذلك أبو جهل قام النضر بن الحارث فقال: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمدٌ فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم وأصدقُكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صُدغيه الشيبَ، وجاءكم بما جاء به قلتم: ساحر! لا، والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرةَ ونفثَهم وعقْدهم. وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعَهم. وقلتم: شاعر، لا والله ماهو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا

---

(١) انتقع لونه (بالبناء للمفعول): تغير من هم أو فزع.

(٢) القصرة: أصل العنق.

أصنافَه كلّها : هزجَه ورجزَه . وقلتم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنونَ ، فما هو بخَنْقِه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه . يامعشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيم !

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويَنصِب له العداوة ، وكان قد قدِم الحِيرةَ وتعلّم بها أحاديث ملوكِ الفرس ، وأحاديث رُسْتَم وإسفَنْديار ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسًا فذكّر فيه بالله ، وحذّر قومَه ما أصابَ مَن قبلهم من الأمم من نِقمة الله ، خَلفَه فى مجلسه إذا قام ثم قال : أنا والله يا معشرَ قريشٍ أحسنُ حديثاً منه ، فهلمَّ إلىّ فأنا أحدّثكم أحسنَ من حديثه . ثم يحدّثهم عن ملوك فارس ورُستَم وإسفَنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسنُ حديثاً منّى ؟

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : نزل فيه ثمان آيات من القرآن : قول الله عزّ وجلّ : (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) وكلّ ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن .

ذكر عدوان المشركين على المستضعفين

ممن أسلم

ثم إنهم عدَوا على من أسلم واتّبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، فوثبت كلُّ قبيلةٍ على مَن فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكّة إذا اشتدّ الحرّ ، مَن استُضعِفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يُفتَن من شدّة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يَصلُب لهم ويَعصِمه الله منهم .

وكان بلالٌ مولى أبى بكر رضى الله عنهما ، لبعض بنى جُمَح ، مولّدا من مولّديهم ، وهو بلال بن رَبَاح ، وكان اسم أمّه حمامة ، وكان صادقَ الإسلام طاهر القلب . وكان أمية بن خلف بن وهب بن حُذافة ابن جمح يُخرجه إذا حمِيت الظهيرةُ فيطرحُه على ظهره فى بطحاء مكّة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا والله لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفرَ بمحمد وتعبدَ اللّاتَ والعُزَّى ! فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحدٌ أحَد !! . وكان ورقة بن نوفل يمرُّ به وهو يعذَّب بذلك وهو يقول أحدٌ أحد ، فيقول : أحَدٌ أحدٌ واللهِ يابلال ! ثم يُقبل على أميّة بن خلفٍ ومَن يصنع ذلك به من بنى جمحٍ فيقول : أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتّخذنّه حنانًا[1] ! . حتّى مرّ به

---

(١) أى موضع حنان ، أتمسح به متبركا .

أبو بكرٍ الصدّيق رضى الله عنه يوماً وهم يصنعون به ذلك ، فقال لأمية بن خَلَف : ألَا تتّقى الله فى هذا المسكين ، حتى متَى ! قال : أنت الذى أفسدته فأَنقِـذْه مما ترى ! فقال أبو بكر : أفعلُ ، عندى غلامٌ أسودُ أجْلَدُ منه وأقوي ، على دينك ، أُعطيكه به . قال : قد قبلت . فقال : هو لك . فأعطاه أبو بكر الصديق رضى الله عنه غلامه ذلك ، وأخذه فأعتقَه .

ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ستَّ رقاب ، بلالٌ سابعهم : عامر بن فُهيرة ، وأم عُبَيس ، وزِنِّيرة وأصيب بصرُها حين أعتقَها فقالت قريش : ما أذهبَ بصرَها إلّا اللاتُ والعُزَّى ! فقالت : كذبوا وبيت الله ، ما تضرُّ اللاتُ والعُزَّى وما تنفعان ! فردَّ الله بصرَها .

وأعتق النهديةَ وبنتها ، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار ، فمرَّ بهما وقد بعثَتهما سيدّتُهما بطحين لها وهى تقول : والله لا أعتقكما أبدًا ! فقال أبو بكر رضى الله عنه : حلٌّ[1] يا أم فلان ! فقالت : حلٌّ ؟ أنت أفسدتَهما فأعتقْهما ! قال : فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : قد أخذتُهما ، وهما حُرّتان ، أرجعا إليها طحينها . قالتا : أوَ نفرُغ منه يا أبا بكر ثم نردّه إليها ؟ قال : وذلك إن شئتما .

---

(١) أى تحللى من يمينك .

ومرَّ بجارية بنى مؤمّل ، وكانت مُسلمة ، وعمر بن الخطّاب يعذّبها لتترك الإسلام ، وهو يومئذ مشركٌ ، وهو يضربُها حتى إذا ملّ قال : إنّى أعتذرُ إليك ، إنى لم أتركْكِ إلاّ ملالة ! فتقول : كذلك فَعَل الله بك ! فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

قال أبُو قحافة لأبى بكر : يا بُنَىّ ، إنّى أراكَ تُعتِق رقاباً ضعافا ، فلو أنّك إذ فعلتَ ما فعلتَ أعتقتَ رجالاً جُلْدًا يمنعونك ويقومون دونك ؟ فقال أبو بكر : يا أبث ، إنّى إنّما أريد ما أريد لله عزّ وجلّ !

وكانت بنو مخزوم يَخرجون بعمّار بن ياسرٍ وبأبيه وأمه ، وكانوا أهل بيتِ إسلام ، إذا حميت الظهيرةُ ، يعذّبونهم برمضاء مكّة[1] ، فيمرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : « صبرًا آلَ ياسر ، موعدكم الجنّة ! » . فأماأمُّه فقتلوها وهى تأبى إلاّ الإسلام .

وكان أبوجهلٍ الفاسقُ الذى يُغرِى بهم فى رجالٍ من قريش ، إذا سمِع بالرجل قد أسلمَ ، له شرفٌ ومنعَة ، أنبَّه وأخزاه وقال : تركتَ دينَ أبيك وهو خيرٌ منك ! لنُسفِّهنَّ حِلمَك ، ولنُفيِّلنَّ[2] رأيك ،

---

(١) الرمضاء : الرمل الساخن من شدة حرارة الشمس .

(٢) فيل رأيه : قبحه وخطأه .

ولنضعَنَّ شرفَك ! وإن كان تاجرًا قال : والله لنكسِّدَنَّ تجارَتك ، ولنُهلكنَّ مالك ! وإن كان ضعيفًا أغرَى به .

عن سعيد بن جبير قال :

قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلُغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يُعذَرون به فى ترك دينهم ؟ قال : نعمْ والله ، إن كانوا ليضربون أحدَهم ويُجيعونه ويعطِّشونه حتى مايقدر أن يستوىَ جالسًا من شدة الضُّرِّ الذى نزل به ، حتّى يعطَيهم ماسألوهُ من الفتنة ، حتى يقولوا له : اللات والعُزَّى إلهُك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجُعَل[1] ليمرُّ بهم فيقولون له : هذا الجُعَل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، افتداءً منهم مما يبلغون من جَهده .

---

(١) الجعل : دابة سوداء كالخنفساء من دواب الأرض ، قيل هو أبوجعران .

الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكاً لا يُظلَم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعلَ الله لكم فرجاً مما أنتم فيه . فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافةَ الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم . فكانت أوّلَ هجرةٍ كانت فى الإسلام .

وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان معه امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة بن عتبة معه امرأته سهلة بنت سهيل ، والزبير بن العوّام ، ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبى أمية ، وعثمان بن مظعون ، وعامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبى حَثْمة ، وأبو سَبْرة بن أبى رُهْم ، وسُهَيل بن بيضاء . فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة(١) .

ثم خرج جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه .

فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغارا أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين رجلا .

---

(١) قال ابن هشام : وكان عليهم عثمان بن مظعون .

إرسال قريش إلى الحبشة

فى طلب المهاجرين إليها

فلما رأت قريش أنّ أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قد أمنوا واطمأنّوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقرارا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جَلْدَين إلى النّجاشى، فيردّهم عليهم، ليفتنوهم عن دينهم، ويُخرجوهم من دارهم التى اطمأنّوا بها وأَمِنوا فيها، فبعثوا عبدَ الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص ابن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشىّ ولبطارقته ثم بعثوهما إليه.

عن أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت:

لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جارٍ، النجاشىّ، أَمِنّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذَى ولا نسمع شيئاً نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشىّ فينا رجلين منهم جَلدين، وأن يُهدوا للنجاشىّ هدايا مما يُستَطرَف من متاع مكّة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأَدَم[1]. فجمعوا له أدماً كثيرا، ولم يتركوا من بطارقته بِطريقاً إلا أهدَوا له هديّة، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم،

---

(١) الأدم: الجلود.

وقالوا لهما : ادفعا إلى كلِّ بِطريقٍ هديّته قبل أن تكلِّما النجاشيَّ فيهم ، ثم قدِّما إلى النجاشيّ هداياه ، ثمَّ سلاَه أن يسلِّمهم إليكما قبل أن يكلِّمهم. فخرجا حتى قدما على النّجاشيّ ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار ، فلم يبقَ من بطارقته بِطريق إلاّ دفعا إليه هديّته قبل أن يكلِّما النجاشيّ ، وقالا لكل بِطريقٍ منهم : إنَّه قد ضَوَى [1] إلى بلد الملك منّا غِلمانٌ سفهاء ، فارقوا دينَ قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدَعٍ ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بَعَثَنَا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردّهم إليهم ، فإذا كلَّمنا الملكَ فيهم فأشيروا عليه بأن يُسْلِمهم إلينا ولا يكلّمهم ، فإنّ قومهم أعلى بهم عيناً [2] وأعلمُ بما عابوا عليهم. فقالوا لهما : نعم .

ثم إنَّهما قدّما هداياهما إلى النجاشىِّ فقَبِلها منهما . ثم كلَّماه فقالا له : أيُّها الملكُ ، إنه قد ضَوَى إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء ، فارقوا دينَ قومهم ولم يدُخلوا فى دينك ، وجاءوا بدينٍ ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعَثَنَا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردَّهم إليهم ، فهم أعْلَى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكنِ شىء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو ابن العاص من أن يسمع كلامَهم النجاشىّ : فقالت بطارقته حوله :

---

(١) ضوى إليه : لجأ وأوى .

(٢) هو أعلى به عيناً ، أى أبصر به .

صَدَقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلمُ بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليردّاهم إلى بلادِهم وقومهم . فغضب النجاشىُّ ثم قال : لا ها الله[1] ، إذاً لا أسْلمهم إليهما ، ولا يكاد قومٌ جاوَرونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على مَن سواى ، حتّى أدعوَهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنتُ جوارَهم ما جاورونى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضُهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرَنا به نبيّنا صلى الله عليه وسلم كائنا فى ذلك ما هو كائن . فلمّا جاءوا ، وقد دعا النجاشىُّ أساقفتَه فنشروا مصاحفهم حولَه ، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحدٍ من هذه الملل ؟

فكان الذى كلّمه جعفرَ بنَ أبى طالب ، فقال له : أيُّها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل المَيتَة ، ونأتى الفواحشَ ، ونقطع الأرحام ، ونُسىء الجِوار ، ويأكل القوىُّ منّا الضعيف ؛

(١) أى لا والله .

فكنّا على ذلك حتى بَعَثَ الله إلينا رسولًا منّا، نعرف نسبَه وصدقَه، وأمانته وعفافَه. فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلعَ ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا مِن دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصِدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقولِ الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحدَه لا نشركُ به شيئا، وأمرَنا بالصلاة والزكاة والصيام — قالت: فعدّد عليه أمور الإسلام — فصدَّقناه وآمنّا به. واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدْنا الله وحدَه فلم نُشرِك به شيئا، وحرَّمنا ما حرَّمَ علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان مِن عبادة الله تعالى، وأن نستحلَّ ما كنّا نستحلُّ من الخبائث، فلمّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَن سواك، ورغِبْنا في جوارك. ورجونا ألّا نُظلَمَ عندك أيها الملك!

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

فقال له جعفرٌ: نعمْ. فقال له النجاشيُّ: فاقرأه عليّ. فقرأ عليه صدراً من (كهيعص). قالت: فبكى واللهِ النّجاشيُّ حتى اخضلّتْ[1]

(١) أى ابتلت من الدموع.

لحيتُه ، وبكت أساقفتُه حتى أخْضَلُوا مصاحفَهم حين سمعوا ما تلا عليهم !
ثم قال لهم النجاشى : إنّ هذا والذى جاء به عيسى لَيخرُجُ من مِشكاةٍ[1]
واحدة ! انطلقا . فلا واللهِ لا أُسْلمهم إليكما ، ولا يَكادون !

قالت : فلمّا خرجا مِن عنده قال عمرو بن العاص : واللهِ لآتينّه
غداً بما أستأصِلُ به خضراءهم[2] ! فقال له عبد الله بن أبى ربيعة —
وكان أتْقَى[3] الرجلين فينا — : لا تفعلْ ، فإنّ لهم أرحاماً وإن كانوا
قد خالفونا . قال : والله لأُخبرنّه أنهم يزعمون أنّ عيسى بن مريم عبد !

ثم غدا عليه من الغد فقال له : أيها الملكُ ، إنهم يقولون فى عيسى
ابن مريم قولًا عظيما ، فأرسلْ إليهم فسَلْهم عما يقولون فيه .

فأرسل إليهم ليسألَهم عنه . قالت : ولم ينزلْ بنا مثلُها قطُّ . فاجتمع
القوم ثم قال بعضُهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا
سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله . وما جاءنا به نبيُّنا ،
كائنا فى ذلك ما هو كائن !

فلمّا دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟ فقال
جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبيُّنا صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) المشكاة : الكوة غير النافذة .
(٢) أى شجرتهم التى تفرعوا منها . وخضراء كل شىء : أصله .
(٣) ويروى : « أبقى » .

يقول : هو عبد الله ورسوله ورُوحه ، وكلمتُـه ألقاها إلى مريمَ العذراءِ البَتُول[1] .

فضربَ النجاشيُّ بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً . ثم قال : واللهِ ما عدا عيسى بن مريم ممّا قُلتَ هذا العودَ[2] .

فتناخَرَت بطارقته حوله حين قال ماقال ، فقال : وإن نَخَرتم والله ، اذهبُوا فأنتم شُيوم بأرضى[3] ، مَن سَبَّكُم غَرِم ، مَن سبَّكم غرِم ! ما أُحِبُّ أن لى دَبْراً[4] من ذهبٍ وأنّى آذيت رجلا منكم ! ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجةَ لى بها .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحَين ، مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جار .

قالت : فوالله إنا لعَلَى ذلك إذ نَزَلَ به رجلٌ من الحبشة ينازعُه فى مُلكه ، فوالله ما علمتُنا حزِنّا حزنًا قط كان أشدَّ علينا من حزنٍ حزنّاه عند ذلك ، تخوُّفا أن يظهر ذلك الرجلُ على النجاشى ، فيأتىَ رجلٌ لا يعرف من حقّنا ما كان النجاشيُّ يَعرِف منه . وسار إليه النجاشيُّ وبينهما عَرْض النيل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) البتول : العذراء المنقطعة عن الأزواج .

(٢) أى مقدار هذا العود .

(٣) ويروى : « سيوم » أى آمنون .

(٤) الدبر ، بلغة الحبشة : الجبل .

مَن رجلٌ يخرج حتى يَحضُر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ فقال الزبير ابن العوام: أنا. قالوا: فأنت. وكان من أحدث القوم سِنًّا. فنفخوا له قِربةً فجعلها فى صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم، ثم انطلقَ حتى حضرهم.

قالت: فدعونا الله للنجاشىّ بالظهور على عدوّه، والتمكين له فى بلاده. فوالله إنا لعلَى ذلك متوقّعون لما هو كائن، إذْ طلع الزُّبير وهو يسعى، فلمع بثوبه[1] وهو يقول: ألَا أبشِروا فقد ظفِر النجاشىُّ! وأهلَكَ اللهُ عدوَّه، ومكّن له فى بلاده، واستوسق[2] عليه أمر الحبشة. فكنّا عنده فى خير منزل، حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكّة.

(١) لمع بثوبه: رفعه وحركه ليراه غيره.

(٢) استوسق: اجتمع.

إسلام عمر بن الخَطّاب

ولما قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة على قريش ، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردّهما النجاشىُّ بما يكرهون ، وأسلم عمر بن الخطاب ، وكان رجلًا ذا شكيمة لا يُرامُ ما وراء ظهره ، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحمزة ، حتى عازّوا قريشا[1] .

وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر أن نصلِّيَ عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطّاب ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتّى صلَّى عند الكعبة ، وصلّينا معه . وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة .

وكان إسلام عمر فيما بلغنى ، أن أخته فاطمةَ بنتَ الخطاب كانت قد أسلمت ، وأسلم بَعلُها سعيد بن زيد ، وهما مستخْفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحّام ، رجل من قومه من بنى عدى ابن كعب ، قد أسلم ، وكان أيضا يستخفى بإسلامه فَرَقًا من قومه[2] .

وكان خباب بن الأرتّ يختلف إلى فاطمة بنت الخطّاب يقرئها القرآن ، فخرج عمرُ يومًا متوشّحا سيفَه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطًا من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيتٍ عند

---

(١) أى غلبوهم .　　(٢) الفرق : الخوف .

الصَّفا ، وهم قريبٌ من أربعين ما بين رجالٍ ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزةُ بن عبد المطلب ، وأبو بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، فى رجال من المسلمين ، ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم يخرجْ فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نُعَيم بنُ عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابئ ، الذى فرَّق أمر قريشٍ وسفَّه أحلامَها وعاب دينَها ، وسبَّ آلهتها ، فأقتلُه . فقال له نعيم : والله لقد غرَّتْك نفسك من نفسك يا عمر ! أتُرى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرضِ وقد قتلتَ محمدا ؟! أفلا ترجعُ إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأىُّ أهل بيتى ؟ قال : ختَنُك وابن عمِّك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابَعا محمداً على دينه ، فعليك بهما[1] .

فرجع عمرُ عامداً إلى أخته وختَنه[2] ، وعندهما خبَّاب بن الأرتّ معه صحيفة فيها (طه) يقرئهما إياها . فلمَّا سمعوا حِسَّ عُمَر تغيَّبَ خبابٌ فى مَخدعٍ لهم[3] أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمةُ بنتُ الخطّاب الصحيفةَ فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمرُ حين دنا إلى البيت قراءة

---

(١) إنما أراد بذلك صرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خشية عليه . وإيذاء فاطمة وزوجها أهون من ذلك أمرا .

(٢) الختن : زوج البنت أو الأخت .

(٣) المخدع : بيت صغير داخل البيت الكبير .

خبّابٍ عليهما، فلمّا دخل قال: ما هذه الهَيْنَمة[1] التى سمعتُ؟ قالا له: ما سمعتَ شيئا. قال: بلى والله، لقد أُخبِرتُ أنكما تابعتما محمداً على دينه! وبطشَ بختنه سعيدِ بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنتُ الخطاب لتكفّه عن زوجها، فضربَها فشجَّها، فلمّا فعل ذلك قالت له أخته وختنُه: نعمْ، قد أسلمنا وآمنّا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك!

فلمّا رأى عمر ما بأخته من الدم ندِم على ما كان صنع، فارعوَى، وقال لأخته: أعطينى هذه الصحيفةَ التى سمعتُكم تقرءون آنفا أنظرْ ما هذا الذى جاء به محمد — وكان عمر كاتبا[2] — فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاكَ عليها. قال: لا تخافى. وحلفَ لها بآلهته ليردَّنَّها إذا قرأها إليها. فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه فقالت له: يا أخى، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسُّها إلا الطّاهر[3]! فقام عمر فاغتسَل، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها، فلما قرأ منها صدراً قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرَمه! فلمّا سمع ذلك خبابٌ خرج إليه فقال له: يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيِّه، فإنّى سمعته أمسِ وهو يقول: اللهم أيِّد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب! فاللهَ اللهَ يا عمر.

---

(١) الهينمة: صوت كلام لا يفهم.

(٢) أى عارفا بالكتابة.

(٣) اختلف فى الطهارة عند مس المصحف، فقيل فرض، وقيل مندوب.

فقال له عند ذلك عمر : فدُلّنى يا خبابُ على محمد حتى آتيه فأُسلم .

فقال له خباب : هو فى بيتٍ عند الصفا ، معه نفرٌ من أصحابه .

فأخذ عمر سيفَه فتوشَّحه ، ثم عَمَد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابِه فضربَ عليهم البابَ ، فلما سمِعوا صوته قام رجلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظرَ مِن خَلَل الباب ، فرآه متوشِّحا بالسيف ، فرجعَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فَزِعٌ فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشِّحًا السيف . فقال حمزة ابن عبد المطلب : فَأْذَنْ له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلْناه له ، وإن كان جاء يريد شرًّا قتلْناه بسيفه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له . فأذن له الرجل ونهضَ إليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى لقَيه فى الُحجرة ، فأخذَ حُجزَته[1] أو بمجمع ردائه ، ثم جبَذَه به جبذةً شديدة وقال : ما جاء بك يا ابنَ الخطّاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهىَ حتى يُنزِلَ الله بك قارعة[2] ! فقال عمر : يا رسول الله جئتك ، جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله !

فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرةً عرفَ أهلُ البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم .

---

(١) الحجزة : موضع شد الإزار .

(٢) القارعة : الداهية .

فتفرّق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم وقد عزّوا فى أنفسهم حين أسلم عمر ، مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وينتصفون بهما من عدوّهم .

قال عمر : لما أسلمت تلك الليلةَ تذكّرتُ أىّ أهل مكةَ أشدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوةً حتّى آتيَه فأخبرَه أنّى قد أسلمت . قال : قلت أبو جهل . فأقبلت حين أصبحتُ حتّى ضربتُ عليه بابه . قال : فخرج إلىَّ أبو جهلٍ فقال : مرحباً وأهلا بابن أختى[1] ، ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبركَ أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدَّقت بما جاء به . قال : فضرب البابَ فى وجهى ، وقال : قَبَحك الله وقَبَح ما جئتَ به !

(١) كانت أم عمر حنتمة بنت هشام بن المغيرة ، أخت أبى جهل بن هشام .

خبر الصحيفة

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً أصابو به أمناً وقرارا، وأن النجاشيَّ قد مَنعَ من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وجعل الإسلامُ يفشو فى فى القبائل، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب، على ألا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم.

فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثمَّ علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم.

وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشُلَّ بعض أصابعه.

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو المطّلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب، فدخلوا معه فى شعبه واجتمعو إليه، وخرج من بنى هاشم أبو لهب عبد العزىّ بنُ عبد المطلب، إلى قريش فظاهَرَهم.

وكان يقول فى بعض ما يقول:

يعِدُنى محمدٌ أشياء لا أراها، يزعم أنها كائنةٌ بعد الموت، فماذا وَضَعَ فى يدىَّ بعد ذلك؟ ثم ينفُخ يديه ويقول: تبًّا لكما، ما أرى

فيكما شيئاً مما يقول محمد ! فأنزل الله تعالى فيه : (تَبَّتْ يدَا أبى لهَب وَتبَّ [1]) .

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جُهِدوا ، لا يصل إليهم شىء إلاَّ سرًّا ، مستخفياً به من أرادَ صِلتَهم من قريش .

(١) وقيل : إن سبب نزولها أنه لما نزل قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى الصفا ، فصعد عليه وقال : ياصباحاه ! فلما اجتمعوا إليه قالوا : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قال : ماجربنا عليك كذبا . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا ! فأنزل الله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب » .

ذكر ما لقىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه من الأذى

فجعلت قريشٌ حين منعه الله منها وقام عمُّه وقومُه من بنى هاشم وبنى المطلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ، يَهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه ، وجَعل القرآنُ ينزل فى قريش بأحداثهم وفيمن نَصب لعداوته منهم ، فمنهم من سُمى لنا ومنهم من نزل فيه القرآنُ فى عامة من ذكر الله من الكفار .

فكان ممَّن سُمِّى لنا من قريشٍ ممن نزل فيه القرآن عمه أبو لهب بن عبد المطّلب ، وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية « حَمَّالة الحطب » لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحُه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمرّ ، فأنزل الله تعالى فيهما :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ . ما أغْنَى عَنْهُ مالُهُ وما كَسَبَ . سَيَصْلَى ناراً ذاتَ لَهَبٍ . وامرأتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ . فى جِيدِها حبْلٌ مِن مَسَدٍ) .

قال ابن إسحاق : فذُكر لى أنَّ أمَّ جميل ، حين سمعتْ ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق ، وفى يدها فِهرٌ[1] من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذَ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، أين

---

(١) الفهر : حجر فى مقدار ملء الكف .

صاحبُك فقد بلغني أنه يهجوني ! والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ! ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تُراها رأتكَ ؟ فقال : ما رأتني ، لقد أخذ الله ببصرها عني .

وأمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمَح ، كان إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولَمَزَه[1] ، فأنزل الله تعالى فيه : (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ . ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ . نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ . ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ . فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) .

والعاص بن وائل السهميّ ، كان خبّاب بن الأرتّ ، صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قَيْناً يعمَلُ السُّيوفَ ، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً عمِلها له ، حتى كان له عليه مال ، فجاء يتقاضاه ، فقال له : يا خبّاب ، أليس يزعمُ محمدٌ صاحبُكم هذا الذى أنتَ على دينه أنَّ فى الجنّة ما ابتغَى أهلُها من ذهب أو فضّة أو ثياب أو خدم ! قال خباب : بلَى . قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب ، حتّى أرجعَ إلى تلك الدار فأقضيَك هنالِك حقَّك ، فوالله لا تكون أنت وصاحبك

---

(١) الهمز : أن يشتم الرجل علانية ويكسر عينيه عليه ، ويغمز به . واللمز أن يعيبه سرا .

يا خباب آثر عند الله منى ولا أعظم حظًا فى ذلك . فأنزل الله تعالى فيه : (أفرأيتَ الذى كَفَر بآياتنا وقالَ لأُوتَيَنَّ مالًا وولَدا . أَطَّلَعَ الغيبَ) إلى قوله : (ونَرِثُه ما يقولُ ويأتِينا فَرْدًا) .

ولقى أبو جهل بن هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنى — فقال له : والله يا محمد لتتركَنَّ سبَّ آلهتنا أو لنسبَّنَّ إلهَك الذى تعبد ! فأنزل الله تعالى فيه : (ولا تسُبُّوا الذينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فيسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بغيرِ عِلْم) . فذُكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفّ عن سبِّ آلهتهم وجعل يدعوهم إلى الله .

والنضر بن الحارث بن علقمة بن كَلَدة بن عبد مناف بن عبد الدار ابن قصىّ ، كان إذا جلسَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآنَ ، وحذّر فيه قريشا ما أصاب الأمم الخالية ، خلَفه فى مجلسه إذا قام ، فحدَّثهم عن رُستم السِّيد[1] ، وعن إسْفنْدِيار ، وملوكِ فارس ثم يقول : والله ما محمد بأحسنَ حديثاً منِّى وما حديثُه إلا أساطير الأوَّلين اكتتَبْتُها كما اكتتَبها محمد . فأنزل الله فيه : (وقالُوا أساطيرُ الأوَّلِينَ اكتَتَبَها فهِىَ تُمْلَى عليه بُكرَةً وأصيلا . قُلْ أنزلَه الذى يَعلَمُ السِّرَّ فى السَّمواتِ والأرضِ إنَّه كانَ غَفُورًا رحيما) ونزل فيه : (إذا تُتْلَى عليه آياتُنا قالَ أساطيرُ الأوَّلين) . ونزلَ فيه : (وَيلٌ لكُلِّ أفَّاكٍ أثيم . يَسمَعُ آياتِ الله تُتْلَى عَلَيْه ثم يُصِرُّ مُسْتكبِرًا كأنْ لم يَسمَعْها كأنَّ فى أُذُنيهِ وَقرًا فبَشِّرْه بِعذابٍ أليم) .

---

(١) معناه فى الفارسية الشمس ، أوضوؤها .

والأخنس بن شُرَيق بن عمرو بن وهبٍ الثقفى ، وكان من أشراف القوم وممن يُستَمع منه ، فكان يُصيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويردُّ عليه ، فأنزل الله تعالى فيه : (ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بنَمِيمٍ) إلى قوله (زَنيم) .

والوليد بن المُغيرة قال : أينزَّلُ على محمدٍ وأُترَكَ وأنا كبير قريش وسيِّدُها ! ويترك أبو مسعود عُمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ، ونحن عظيما القريتين[1] ! فأنزل الله تعالى فيه : (وقالوا لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رَجُلٍ من القَرْيَتَيْنِ عَظيمٍ) . إلى قوله (مّما يجمعون) .

وأبىُّ بن خلفٍ ، وعقبة بن أبى مُعَيط ، وكانا متصافيين ، حسناً مابينهما ، فكان عُقبةُ قد جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، فبلغ ذلك أُبيًّا ، فأتى عُقبةَ فقال له : ألم يبلغنى أنَّك جالست محمدا وسمعتَ منه ! وجهى من وجهك حرامٌ أن أكلِّمك — واستغلظ من اليمين — إن أنت جلست إليه أو سمعتَ منه ، أو لم تأتِه فتتفلَ فى وجهه ! ففعل ذلك عدوُّ الله عُقبة بن أبى مُعيطٍ لعنه الله ، فأنزل الله تعالى فيهما : (ويوم يعضُّ الظالمُ على يديهِ يقُولُ يا ليتنى اتَّخذْتُ مَعَ الرَّسول سَبيلًا) إلى قوله (للإنسان خَذُولًا) .

ومَشَى أبىُّ بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظمٍ بالٍ قد ارفَتَّ فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرمَّ[2] !

---

(١) القريتان : مكة والطائف . (٢) أرم : بلى ، وصار رمة .

ثم فتَّه فى يده ثم نفخَه فى الريح نحوَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك الله النار ! فأنزل الله تعالى : (وضَرَبَ لنا مَثَلًا ونَسِىَ خَلْقَهُ قالَ من يُحيِي العِظامَ وهِىَ رمِيمٌ . قُلْ يحييها الذى أنْشأَهَا أوَّلَ مرَّةٍ وهُوَ بكُلِّ خَلقٍ عَليمٌ . الَّذى جَعَلَ لكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخضَرِ نارًا فإذَا أنتم منه تُوقِدُونَ) .

واعترض رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يطوف بالكعبة فيما بلغنى ، الأسودُ بنُ عبد المطَّلب بن أسد بن عبد العزَّى ، والوليدُ بن المغيرة ، وأمية بن أبى خَلفٍ ، والعاصُ بن وائلٍ السَّهْمىّ ، وكانوا ذَوِى أسنانٍ فى قومهم ، فقالوا : يا محمد ، هلُمَّ فلنعبدْ ما تعبدُ ، فنشترك نحنُ وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد ، كُنَّا قد أخذْنا بحظِّنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد ، كنتَ قد أخذتَ بحظِّك منه . فأنزل الله تعالى فيهم : (قُلْ يأيُّها الكافِرونَ . لا أَعبدُ ما تَعْبُدون . ولا أنتم عابِدُونَ ما أعبُدُ . ولا أنا عابدٌ ما عبدتم . ولا أنتم عابدونَ ما أعبُدُ . لكمْ دينُكم ولىَ دِينِ) .

وأبو جهل بن هشام ، لما ذكر الله عزَّ وجلَّ شجرةَ الزَّقُّوم تخويفًا لهم بها قال : يا معْشَر قريش ، هل تَدْرُون ما شجرةُ الزَّقُّوم التى يخوِّفكم بها محمد ؟ قالوا : لا . قال : عجوة يثرب بالزُّبد ، والله لئن استمكنَّا منها

لنتزقَّمنَّها تزقُّما[1] ! فأنزل الله تعالى فيه : (إن شجرةَ الزَّقُّوم . طَعَامُ الأثيمِ . كالْمهلِ يَغْـلِى فى البُطونِ . كغَلْىِ الحميم) . أى ليس كما يقول .

ووقفَ الوليد بن المغيرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يكلِّمه ، وقد طمِع فى إسلامه ، فبينا هو فى ذلك إذ مرَّ به ابنُ أم مكتومٍ الأعمى ، فكلَّم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وجعل يستقرئه القرآن ، فشقَّ ذلك منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضجره ، وذلك أنَّه شغله عما كان فيه من أمر الوليد ، وما طمع فيه من إسلامه ، فلما أكثر عليه انصرفَ عنه عابساً وتركه . فأنزل الله تعالى فيه : (عَبَس وتولَّى . أنْ جاءهُ الأعمى) إلى قوله تعالى : (فى صُحُفٍ مُكَرَّمة . مَرْفوعةٍ مُطَهَّرَة) . أى إنما بعثتُك بشيرا ونذيرا ، لم أخصَّ بك أحداً دون أحد ، فلا تمنعْه ممن ابتغاه ، ولا تتصدَّينَّ به لمن لا يريده .

وكان النفر الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته أبا لهب والحكم بن أبى العاص ، وعقبة بن أبى معيط ، وعدىّ بن حمراء الثقفى ، وابن الأصداء الهذلىّ ، وكانوا جيرانه ، لم يسلمْ منهم أحدٌ إلاّ الحكم بن أبى العاص ، فكان أحدهم — فيما ذُكر لى — يطرح عليه صلى الله عليه وسلم رَحِمَ الشاة وهو يصلى ، وكان أحدهم يطرحها فى بُرمته[2] إذا نُصِبت له ، حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) التزقم : الابتلاع . (٢) البرمة : القدر من حجارة .

حجراً[1] يستتر به منهم إذا صلى . فكان إذا طرحوا عليه ذلك الأذى ، يخرج به صلى الله عليه وسلم على العُود ، فيقف به على بابه ثم يقول : يا بنى عبد مناف ، أىّ جوارٍ هذا ؟ ! ثم يلقيه فى الطريق .

عودة مهاجرة الحبشة

لما بلغهم إسلام أهل مكة

وبلغ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلامُ أهل مكةَّ ، فأقبلوا لِماَ بلغَهم من ذلك حتى إذا دَنَوا من مَكّة بلغهم أنَّ ما كانوا تحدَّثوا به من إسلام أهل مكَّة كان باطلاً ، فلم يدخلْ منهم أحدٌ إلا بجوارٍ أو مستخفياً . وجميع من قدم عليه من مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلا .

فكان من دخلَ منهم بجوارٍ فيمن سُمِّى لنا : عثمان بن مظعون ابن حبيب الجمحى ، دخل بجوارٍ من الوليد بن المغيرة ؛ وأبو سلمة ابن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ودخل بجوارٍ من أبى طالب بن عبد المطلب . وأم أبى سلمةَ برة بنت عبد المطَّلب .

---

(١) الحجر ، بالكسر : كل ما حجرته من حائط .

حديث نقض الصحيفة

ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريشٌ على بني هاشم وبني المطَّلب نفرٌ من قريش ، ولم يُبْلِ فيها أحدٌ أحسنَ من بلاء هشام بن عمرو ، وذلك أنه كان ابنَ أخي نضلة بن هاشمٍ بن عبد مناف لأمه ، فكان هشامٌ لبني هاشمٍ واصلا ، وكان ذا شرفٍ في قومه ، فكان فيما بلغني يأتي بالبعير ، وبنو هاشم وبنو المطَّلب في الشِّعب ليلا ، قد أوقرَه[1] طعاما ، حتى إذا أقبلَ به فَمَ الشعب خلعَ خِطامَه من رأسه ، ثم ضَرَب على جنْبه ، فيدخل الشِّعبَ عليهم . ثم يأتي به قد أوقره بزًّا[2] فيفعلُ به مثل ذلك .

ثم إنه مَشَى إلى زُهير بن أبي أمية بن المغيرة ، وكانت أمه عاتكةَ بنتَ عبد المطَّلب ، فقال : يا زهير ، أقد رضيتَ أن تأكلَ الطعام ، وتلبسَ الثيابَ ، وتنكح النساء ، وأخوالُك حيث قد علمتَ ، ولا يُباعون ولا يُبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا يُنكَح إليهم . أمَا إنِّي لأحلفُ بالله أنْ لو كانوا أخوالَ أبي الحكم بن هشام ثم دعوتَه إلى

---

(١) أوقره : حمَّله .

(٢) البز : الثياب .

مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً ! قال : ويحكَ يا هشام فماذا أصنع ؟ إنَّما أنا رجلٌ واحد ، والله أنْ لو كان معى رجلٌ آخرُ لقُمتُ فى نقضها حتى أنقضَها . قال : قد وجدتُ رجلاً . قال : فمن هو ؟ قال : أنا . قال له زهير : أبْغِنا رجلاً ثالثا .

فذهب إلى المطعِم بن عدىٍّ فقال له : يا مطعم ، أقد رضيتَ أن يهلكَ بطنانِ من بنى عبد منافٍ وأنت شاهدٌ على ذلك ، موافقٌ لقريشٍ فيه ؟ ! أمَا والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدُنَّهم إليها منكم سراعا . قال : ويحك فماذا أصنع ؟ إنَّما أنا رجل واحد . قال : قد وجدتُ ثانيا . قال : من هو ؟ قال : أنا . قال : أبْغِنا ثالثا . قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية . قال : أبغنا رابعا .

فذهب إلى أبى البَخترَىّ بن هشام ، فقال له نحواً مما قال للمطعم ابن عدى . فقال : وهل من أحدٍ يعين على هذا ؟ قال نعم . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، والمطعم بن عدى ، وأنا معك . قال : أبغنا خامساً .

فذهب إلى زمَعَة بن الأسود بن المطَّلب ، فكلَّمه وذكر له قرابتهمَ وحقَّهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعمْ . ثمَّ سمى له القوم .

فاتَّعدوا خَطْمِ الحَجُونِ[1] ليلاً بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك فأجمعوا أمرَهم وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقُضوها . وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أوَّل من يتكلَّم .

فلما أصبحوا غَدَوْا إلى أنديتهم ، وغدا زُهير بن أمية عليه حُلَّة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكَّة ، أنأكل الطعامَ ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلـكَى لا يباع ولا يبتاع منهم ! والله لا أقعدُ حتى تشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة !

قال أبو جهلٍ — وكان فى ناحية من المسجد : كذبتَ والله لا تُشق !

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، مارضِينا كتابتها حيثُ كُتبَتْ . قال أبو البَخْترىّ : صدقَ زمعَة ، لا نَرضى ما كُتب فيها ولا نقرُّ به . قال المطعمُ بن عدىّ : صدقتما ، وكذَبَ من قال غيرَ ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومماَّ كتِب فيها ! قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمرٌ قضى بلَيل ، تشُووِر فيه بغير هذا المكان .

قال : وأبو طالب جالسٌ فى ناحية المسجد . فقام المطعِم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » .

وكان كاتب الصحيفة منصورَ بن عِكرمة ، فشُلَّتْ يدهُ فيما يزعمون .

---

(١) خطم الحجون : موضع . والحجون : جبل بأعلى مكة .

أمر الإراشى الذى باع أبا جهل إبله

قال ابن إسحاق: حدثنى عبد الملك بن عبد الله بن أبى سفيان الثقفى وكان واعية، قال:

قدِم رجلٌ من إراشٍ بإبلٍ له مكّة، فابتاعَها منه أبو جهل، فمطَلَه بأثمانها، فأقبلَ الإراشىُّ حتى وقفَ على نادٍ من قريش، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناحية المسجد جالس، فقال: يا معشرَ قريش، مَنْ رجلٌ يُؤْدِينى[1] على أبى الحكم بن هشام؛ فإنِّى رجلٌ غريبٌ، ابنُ سبيلٍ، وقد غلَبنى على حقِّى؟ فقال له أهلُ ذلك المجلس: أتَرى ذلك الرجلَ الجالس — لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وهم يهزءون به، لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة — اذهبْ إليه فإنّه يُؤْديك عليه!

فأقبلَ الإراشىُّ حتّى وقفَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا عبدَ الله، إنّ أبا الحكم بنَ هشام قد غلَبنى على حقٍّ لى قِبلَه، وأنا رجلٌ غريبٌ ابنُ سبيل، وقد سألتُ هؤلاء القومَ عن رجلٍ يؤْدينى عليه، يأخذ لى حقِّى منه، فأشاروا لى إليك، فخذْ لى حقِّى منه يرحمك الله! قال: انطلقْ إليه. وقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قام معه قالوا لرجلٍ ممَّن معهم: اتْبَعْه فانظر ماذا يصنع؟

---

(١) يؤْدينى: يعيننى.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فضربَ عليه بابه ، فقال : مَن هذا ؟ قال : محمد ، فاخرجْ إلىّ . فخرج إليه وما فى وجهه من رائحة[1] ، قد انتقِع لونُه ، فقال : أعطِ هذا الرجلَ حقَّه ، قال : نعم ، لا تبرحْ حتَّى أعطيَه الذى له . فدخلَ فخرجَ إليه بحقِّه فدفعَه إليه .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال للإراشى : الحقْ بشأنك . فأقبل الإراشىّ حتى وقفَ على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً ، فقد واللهِ أخذَ لى بحقّى .

قال : وجاء الرجلُ الذى بعثوا معه فقالوا : ويحك ! ماذا رأيت ؟ قال : عجباً من العجب . والله ما هو إلّا أنْ ضربَ عليه بابَه ، فخرج إليه وما معَه روحُه ، فقال له : أعط هذا حقَّه ، فقال : نعم ، لا تبرحْ حتّى أخرجَ إليه حقَّه ، فدخل فخرج إليه بحقِّه فأعطاه إياه !

ثم لم يلبَثْ أبو جهلٍ أن جاء ، فقالوا له : ويلك ! مالك ؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قطُّ ! قال : ويحكم ، والله ما هو إلا أن ضربَ علىّ بابى وسمعتُ صوتَه ، فملئتُ رُعباً ثم خرجتُ إليه ، وإن فوقَ رأسه لفحلًا من الإبل ما رأيت مثل هامته ، ولا قَصَرته ، ولا أنيابِه لفحلٍ قطُّ ! والله لو أَبَيتُ لأكَلنى !

---

(١) أى بقية روح .

حديث الإسراء

ثم أُسرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[1] ، وهو بيت المقدس من إيلياء ، وقد فشا الإسلام بمكةَ فى قريشٍ وفى القبائل كلّها .

كان عبد الله بن مسعود يقول :

أُتِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبُراق ، وهى الدابّةُ التى كانت تُحمَل عليها الأنبياء قبلَه ، تضع حافرَها فى منتهى طرفها ؛ فُحمِل عليها ، ثم خرج به صاحبُه ، يرى الآياتِ فيما بين السماء والأرض ، حتّى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجدَ فيه إبراهيمَ الخليل وموسى وعيسى فى نفرٍ من الأنبياء قد جُمعوا له ، فصلَّى بهم . ثم أُتى بثلاثة آنية : إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فسمعتُ قائلًا يقول حينَ عُرِضَتْ علىّ : إن أخذ الماء غرِق وغرِقت أمّتُه ، وإن أخذَ الخمرَ غوَى وغوت أمّتُه ، وإن أخذ اللبنَ هُدِى وهديت أمّتُه . قال : فأخذتُ إناء اللبن فشربت منه ، فقال لى جبريل عليه السلام : هُدِيتَ وهديتْ أمتُك يا محمد !

وحُدِّثت عن الحسن أنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا أنا نائمٌ فى الحِجر إذْ جاءنى جبريلُ فهمزَنى بقدمه ، فجلستُ فلم أرَ شيئا ، فعدت إلى مضجعى ؛

---

(١) قال السهيلى : قيل كان قبل الهجرة بعام .

فجاءنى الثانيةَ فهمزَنى بقدمه ، فجلستُ فلم أرَ شيئا ، فعدت إلى مضجعى ؛ فجاءنى الثالثةَ فهمزنى بقدمه ، فجلستُ فأخذَ بعضدى ، فقمتُ معه ، فخرج بى إلى باب المسجد ، فإذا دابّةٌ أبيض ، بين البغل والحمار ، فى فخذيه جناحان يَحفِزُ[1] بهما رجليه ، يضع يدَه فى منتهى طَرْفه ، فحملنى عليه ، ثم خرجَ معى لا يفوتنى ولا أفوته .

قال الحسن فى حديثه : فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى جبريل عليه السلام معه حتى انتهى به إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفرٍ من الأنبياء ، فأمّهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فصلَّى بهم ، ثم أُتِىَ بإناءين فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر ، فقال له جبريل : هُدِيتَ للفطرة وهديتْ أمّتُك يا محمد ، وحُرِّمت عليكم الخمر . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبحَ غدا على قريش فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْرُ[2] البيِّن ! والله إنَّ العِيرَ لتَطَّردُ[3] شهرًا من مكّة إلى الشام مدبرةً ، وشهراً مقْبلة ، أفيذهب ذلك محمدٌ فى ليلةٍ واحدةٍ ويرجع إلى مكة !

---

(١) يحفز : يدفع .

(٢) الإمر ، بكسر الهمزة : العجيب المنكر .

(٣) العير : القافلة . تطرد اطرادا : تجرى وتسرع .

قال : فارتدَّ كثير ممّن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا له : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ، يزعم أنّه قد جاء هذه الليلةَ بيتَ المقدس وصلَّى فيه ورجعَ إلى مكة ! فقال لهم أبو بكر : إنّكم تكذِبون عليه . فقالوا : بلَى ، ها هو ذاك فى المسجد يحدِّث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قالَه لقد صدَق ، فما يُعجبُكم من ذلك ! فوالله إنّه ليُخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعةٍ من ليلٍ أو نهار فأصدِّقُه ! فهذا أبعدُ مما تَعجبون منه . ثم أقبلَ حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبىَّ الله ، أحدَّثتَ هؤلاء القومَ أنّك جئتَ بيت المقدس هذه الليلةَ ؟ قال : نعم . قال : يا نبى الله فصِفْه لى ، فإنِّى قد جئتُه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرُفِع لى حتى نظرتُ إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفُه لأبى بكر ويقول أبو بكرٍ : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : وأنت يا أبا بكرٍ الصِّدِّيق . فيومئذٍ سمّاه « الصِّدِّيق » .

عن سعيد بن المسيِّب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى حين رآهم فى تلك الليلة فقال :

أمّا إبراهيم فلم أر رجلًا أشبهَ قطُّ بصاحبكم ، ولا صاحبُكم أشبهُ به منه[1] . وأما موسى فرجلٌ آدَمُ طويلٌ ضَربٌ جَعْدٌ أقنَى[2] كأنّه من رجال شَنوءة[3] . وأما عيسى بن مريم فرجلٌ أحمر بين القصير والطويل ، سَبْط الشَّعر ، كثير خِيلان الوجه[4] ، كأنّه خرجَ من ديماس[5] ، تخال رأسَه يقطر ماءً وليس به ماء ، أشبهُ رجالكم به عروة بن مسعود الثّقفيّ .

(١) أى ولم أر رجلا صاحبكم أشبه به منه .

(٢) آدم : أسمر . الضرب : الخفيف اللحم . الجعد : المجتمع بعضه إلى بعض . الأقنى : العالى قصبة الأنف .

(٣) شنوءة : قبيلة من الأزد .

(٤) الخيلان : جمع خال ، وهو الشامة السوداء .

(٥) الديماس ، بكسر الدال وفتحها : الحمام .

قصّة المعراج

قال ابن إسحاق : وحدّثنى من لا أتهم عن أبى سعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه أنه قال :

سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لمّا فرغتُ مما كان فى بيت المقدس أُتِىَ بالمعراج ، ولم أر شيئاً قطُّ أحسنَ منه ، وهو الذى يمدُّ إليه ميّتكم عينيه إذا حُضِرَ ، فأصعدَنى صاحبى فيه حتى انتهى بى إلى بابٍ من أبواب السماء يقال له باب الحفَظَة ، عليه مَلَكٌ من الملائكة يقال له إسماعيل ، تحت يديه اثنا عشر ألفَ ملك ، تحت يدَىْ كلِّ ملك منهم اثنا عشر ألف مَلك ـــ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حدّث بهذا الحديث : (وما يَعلمُ جنودَ ربِّك إلاّ هو) ـــ فلما دخل بى قال : منَ هذا يا جبريل ؟ قال : هذا محمد . قال : أو قد بُعث ؟ قال : نعم . قال : فدعا لى بخيرٍ وقاله .

لما دخلت السماءَ الدنيا رأيت بها رجلاً جالساً تعرَض عليه أرواح بنى آدم ، فيقول لبعضها إذا عُرضَتْ عليه خيراً ويُسرُّ به ، ويقول : روح طيّبة خرجتْ من جسدٍ طيِّب . ويقول لبعضها إذا عُرضَتْ عليه : أُفّ ! ويَعبِس بوجهه ويقول : روح خبيثة خرجتْ

من جسدٍ خبيث . قلتُ : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك آدم ، تعرَض عليه أرواحُ ذرّيته فإذا مرّت به روح المؤمن منهم سرَّ بها وقال : روح طيبة خرجت من جسدٍ طيّب ! وإذا مرّت به روح الكافر منهم أفّف[1] منها وكرِهها وساءه ذلك ، وقال : روح خبيثة خرجت من جسدٍ خبيث !

ثمّ رأيت رجالاً لهم مَشافر[2] كمشافر الإبل ، فى أيديهم قِطعٌ من نار كالأفهار[3] ، يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أدبارهم . فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء أكلةُ أموال اليتامى ظُلما .

ثمّ رأيت رجالاً لهم بطونٌ لم أر مثلهَا قَطُّ ، بسبيل آل فرعون[4] يمرّون عليهم كالإبل المهيومة[5] حين يُعرَضون على النار ، يطئونهم لايقدرون على أن يتحوّلوا من مكانهم ذلك . قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء أكلةُ الربا .

ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحمٌ سمين طيب ، إلى جنبه لحمٌ غثٌّ منتن[6] ، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السَّمين الطيِّب . قلت :

---

(١) أى قال : أف ، تضجرا . (٢) المشفر : شفة البعير .

(٣) الأفهار : جمع فهر ، حجر مقدار ملء الكف

(٤) آل فرعون ، لهم فى الآخرة أشد العذاب .

(٥) المهيومة : العطاش . (٦) الغث : الضعيف المهزول .

مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحلّ اللهُ لهم من النساء ، ويَذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهنّ .

ثمّ رأيت نساءً معلقّات بثُديهنّ ، فقلت : مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتى أدخلن على الرِّجال مَن ليس من أولادهم .

ثم أصعدَنى إلى السماء الثانية ، فإذا فيها ابنا الخالة : عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا .

ثم أصعدنى إلى السماء الثالثة ، فإذا فيها رجلٌ صورتُه كصورة القمر ليلة البدر ، قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف بن يعقوب .

ثم أصعدنى إلى السماء الخامسة ، فإذا فيها كهلٌ أبيض الرأس واللحية ، عظيم العثنون[1] ، لم أر كهلاً أجمل منه ؛ قلت : من هذا ياجبريل ؟ قال : هذا المحبّب فى قومه هارون بن عِمران .

ثم أصعدنى إلى السماء السادسة ، فإذا فيها رجلٌ آدم طويلٌ أقنى ، كأنّه من رجال شنوءة ؛ فقلت له : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران .

ثم أصعدنى إلى السماء السابعة ، فإذا فيها كهلٌ جالسٌ على كرسىّ إلى باب البيت المعمور ، يدخله كلّ يوم سبعون ألفَ ملك ، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة ، لم أر رجلاً أشبهَ بصاحبكم

---

(١) العثنون : اللحية .

ولا صاحبُكم أشبه به منه . قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك ابرهيم .

ثم دخل بى الجنة فرأيت فيها جاريةً لعساء[1] فسألتها : لمن أنت ؟ وقد أعجبتنى ورأيتها ، فقالت : لزيد بن حارثة .

فبشر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأقبلت راجعاً ، فلما مررت بموسى بن عمران ، ونعم الصاحبُ كان لكم ، سألنى : كم فُرض عليك من الصلاة ؟ فقلت : خمسين صلاةً كلَّ يوم . فقال : إن الصلاةَ ثقيلة ، وإن أمّتك ضعيفة ، فارجعْ إلى ربِّك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمَّتك . فرجعتُ فسألتُ ربِّى أن يخفِّف عنى وعن أمتى ، فوضع عنِّى عشرا . ثم انصرفت فمررتُ على موسى فقال لى مثلَ ذلك ، فرجعتُ فسألت ربِّى فوضعَ عنِّى عشراً . ثم انصرفت فمررت على موسى فقال مثل ذلك ، فرجعت فسألته فوضع عنى عشرا ثم لم يزلْ يقول لى مثلَ ذلك ، كلمَّا رجعت إليه قال : فارجع فاسأل . حتى انتهيت إلى أن وضعَ ذلك عنى إلاَّ خمسَ صلواتٍ فى كل يومٍ وليلة . ثم رجعت إلى موسى فقال لى مثل ذلك ، فقلتُ : قد راجعتُ ربِّى وسألته ، حتى استحييتُ منه ، فما أنا بفاعل .

فمنْ أدّاهنّ منكم إيماناً بهنّ واحتساباً لهن ، كان له أجر خمسين صلاةً مكتوبة .

---

(١) اللعساء : التى يضرب لون شفتها إلى السواد قليلا .

وفاة أبي طالب وخديجة

ثم إنّ خديجة بنتَ خُويلدٍ وأبا طالب هَلكا في عامٍ واحد ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائبُ ، بهُلك خديجة ، وكانت له وزيرَ صدقٍ على الإسلام ، يشكو إليها ؛ وبهُلك عمّه أبي طالب ، وكان له عضداً وحِرزاً في أمره ، ومَنَعَةً وناصراً على قومه ، وذلك قبلَ مُهاجَرهِ إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالبٍ نالت قريشٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى مالم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترَضه سفيهٌ من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا . ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتَه والتُّرابُ على رأسه ، فقامت إحدى بناته فجعلت تغسل عنه الترابَ وهي تبكي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : لا تبكي يا بُنَيّة فإنَّ اللهَ مانعٌ أباك . ويقول بين ذلك : ما نالت منّي قريشٌ شيئًا أكرهه حتّى مات أبو طالب .

ولما اشتكى أبو طالبٍ [1] وبلغ قريشًا ثِقَله ، قالت قريشٌ بعضُها لبعض : إن حمزةَ وعُمر قد أسلما ، وقد فشا أمرُ محمدٍ في قبائل قريش كلِّها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالبٍ فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليُعطِه منّا ، والله ما نأمنُ أن يبتزّونا أموالَنا .

---

(١) اشتكى : مرض . والشكو والشكوى والشكاة والشكاء : المرض .

قال ابن عباس : مشَوا إلى أبى طالب فكلَّموه، وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بنُ هشام ، وأمية بن خلَف ، وأبو سفيانَ بن حرب ، فى رجالٍ من أشرافهم ، فقالوا : يا أباطالب ، إنك منّا حيث قد علمت ، وقد حضَرك ما ترى وتخوَّفْنا عليك ، وقد علمتَ الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه نُخذ له منّا وخذْ لنا منه ، ليكفّ عنّا ونكفَّ عنه ، وليدَعنا ودينَنا وندعْه ودينه .

فبعث إليه أبو طالب فجاءه ، فقال : يا ابن أخى ، هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ليُعطوك وليأخذوا منك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم كلمةٌ واحدة تعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم . فقال أبو جهل : نعمْ وأبيك وعشرُ كلمات : قال : « تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » . فصفّقوا بأيديهم ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلٰها واحدا ، إن أمرَك لعجَب ! ثم قال بعضُهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلِقوا وامضُوا على دين آبائكم ، حتّى يحكم الله بينكم وبينه .

ثم تفرقوا ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله يا ابن أخى ، ما رأيتك سألتهَم شططا ! فلما قالها أبو طالب طمِع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إسلامه ، فجعل يقول له : أى عمٍّ ، فأنت فقُلْها استحلَّ لك بها الشفاعةَ يومَ القيامة .

فلما رأى حرصَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا ابن أخى ، والله لولا مخافةُ السُّبّةِ عليك وعلى بنى أبيك مِن بعدى وأن تظن قريشٌ أنّى إنّما قلتها جزعًا من الموت لقلتُها ، لا أقولُها إلّا لأسُرَّك بها .

فلما تقارب من أبى طالبٍ الموتُ نَظر العباس إليه يحرِّك شفتيه ، فأصغى إليه بأذنه فقال : يا ابنَ أخى ، والله لقد قال أخى الكلمةَ التى أمرتَه أن يقولها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أسمع .

قال : وأنزل الله تعالى فى الرّهط الذين كانوا اجتمعوا إليه وقال لهم ما قال وردّوا عليه ما ردُّوا : (صٓ والقرآنِ ذى الذِّكرِ . بَل الذينَ كَفَرُوا فى عِزّةٍ وشِقاق) إلى قوله تعالى : (أجعَلَ الآلهةَ إلٰهًا واحدًا إنَّ هذا لشىءٌ عُجاب . وانطَلَقَ الملأُ مِنْهم أن امْشُوا واصبِروا عَلَى آلهتِكُمْ إنَّ هذا لَشىءٌ يُراد . ما سَمِعْنا بِهٰذا فى المِلَّةِ الآخِرةِ) — يعنون النصارى لقولهم : (إنَّ الله ثالث ثلاثة) — (إنْ هذا إلّا اختِلاقٌ) .

ثم هلك أبو طالب .

سعى الرسول إلى ثقيف يطلب النّصرة

ولمَّا هلك أبو طالبٍ نالت قريشٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النُّصرة من ثقيف ، والمَنَعة بهم من قومه ، ورجاءَ أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عزّ وجلَّ ، فخرج إليهم وحدَه .

ولمّا انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطّائف ، عَمَد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذٍ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوةٌ ثلاثة : عبد ياليلَ بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب ابن عمرو بن عمير ، وعند أحدهم امرأةٌ من قريش من بنى جُمَح ، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم إلى الله وكلَّمهم بما جاءهم له من نُصرته على الإسلام ، والقيام معه على مَن خالفَه من قومه ، فقال له أحدهم : هو يمرْط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أمَا وجدَ الله أحدًا يرسلُه غيرك ! وقال الثالث : واللهِ لا أكلِّمك أبدا ، لئن كنتَ رسولًا من الله كما تقول ، لأنت أعظمُ خطرًا من أن أُردَّ عليك الكلام ، ولئن كنتُ تكذبُ على الله ما ينبغى لى أن أكلِّمك !

---

(١) يمرطها : ينزعها ويرمى بها .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن عندهم ، وقد قال لهم : إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنّى . وكرِه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغَ قومُه عنه فيذْئرهم[1] ذلك عليه . فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبُّونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط[2] لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيفٍ مَن كان يتبعه ، فَعَمد إلى ظلِّ حَبَلةٍ[3] من عنب ، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقىَ من سفهاء أهل الطائف .

وقد لقى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المرأة التى من بنى جُمَح فقال لها : ماذا لقينا من أحمائك ! !

فلما اطمأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — فيما ذُكر لى — : اللهم إليك أشكو ضعفَ قوّتى ، وقِلّةَ حيلتى ، وهوانى على الناسِ ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفَين ، وأنت ربّى ، إلى مَن تكِلُنى : إلى بعيدٍ يتجهَّمُنى[4] ، أم إلى عدوٍّ ملّكتَه أمرى ؟ إن لم يكنْ بك علىَّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكنَّ عافيتَك هى أوسعُ لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقتْ له الظُّلمات ، وصلَح عليه أمر الدُّنيا والآخرة ، من أن تنزِل بى غضبك ، أو يحُلَّ علىّ سَخَطُك ، لك العُتبَى[5] حتى ترضى ، ولا حول ولا قوّةَ إلا بك !

---

(١) أذأره عليه : أثاره وجرأه . (٢) الحائط : البستان إذا كان عليه جدار .
(٣) الحبلة : شجرة العنب . (٤) يتجهمنى : يلقانى بالغلظة والوجه الكريه .
(٥) العتبى : الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضى العاتب .

فلما رآه ابنا ربيعة : عتبة وشيبة ، وما لقِيَ ، تحركتْ له رَحِمهما ، فدعَوَا غلاماً لهما نصرانيا يقال له « عَدَّاس » فقالا له : خُذْ قِطفًا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهبْ به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه . ففعل عدّاس ، ثم أقبل به حتّى وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له : كلْ . فلما وضعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يدَه قال : باسم الله . ثم أكل ، فنظر عدّاسٌ فى وجهه ثم قال : والله إنّ هذا الكلامَ ما يقوله أهل هذه البلاد ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومِن أيّ البلاد أنت يا عدّاس ، وما دينُك ؟ قال : نصرانىّ ، وأنا رجلٌ من أهل نِينَوى[1] . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونسَ بن مَتَّى . فقال له عدّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى ، كان نبيا وأنا نبى ! فأكبَّ عدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّل رأسَه ويدَيه وقدمَيه .

قال : يقول ابنا ربيعة أحدُهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاءهما عدّاس قالا له : ويلك يا عدّاس ، مالك تقبِّل رأس هذا الرجلِ ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدى ، ما فى الأرض شىءٌ خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمرٍ ما يعلمه إلا نبىّ ! قالا له : ويحك يا عدّاس ، لا يصرفنَّك عن دينك ، فإن دينَك خير من دينه !

---

(١) نينوى : قرية بالموصل ، من العراق .

أمر جنّ نصيبين

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعاً إلى مكّة ، حين يئس من خَير ثَقيف ، حتى إذا كان بنخلةَ[1] قام من جوف الليل يصلّى ، فمرّ به النفر من الجنّ الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم — فيما ذكر لى — سبعة نفرٍ من جنّ أهل نَصِيبين[2]، فاستمعوا له، فلمّا فرغَ من صَلاته ولّوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا .

فقصَّ الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم . قال الله عزّ وجلّ : (وإذْ صَرَفْنا إليكَ نفَرًا مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القرآنَ) إلى قوله : (وَيُجِرْكُم مِنْ عَذَابٍ أليمٍ) . وقال تبارك وتعالى : (قُلْ أُوحِىَ إلَىَّ أنّهُ اسْتمعَ نفرٌ مِنَ الجِنِّ) إلى آخر القصّة من خبرهم فى هذه السورة .

---

(١) نخلة : واديان على ليلتين من مكة ، يقال لأحدهما نخلة الشامية ، وللآخر نخلة اليمانية .

(٢) نصيبين : مدينة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل إلى الشام .

عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم
نفسَه على القبائل

ثم قدِم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكة وقومُه أشدُّ ما كانوا عليه من خِلافه وفِراق دينه، إلا قليلا مستضعَفين ممن آمنَ به، فكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَعرِض نفسه فى المواسم إذا كانت، على قبائل العرب، يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنّه نبيٌّ مرسَل، ويسألهم أن يصدِّقوه ويمنعوه حتى يبيِّن لهم عن الله ما بعثه به.

قال ربيعة بن عباد:

إنى لَغلامٌ شابٌّ مع أبى بمِنًى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: يا بنى فلان، إنّى رسولُ الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دُونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بى وتصدّقوا بى وتمنعونى، حتى أبيِّن عن الله ما بعثنى به. وخلفَه رجلٌ أحولُ وضىء، له غديرتان[1]، عليه حُلّة عَدَنية، فإذا فرغَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل: يا بنى فلان، إنّ هذا إنما يدعوكم إلى أن تَسلَخوا اللاتَ والعُزّى من أعناقكم، وحُلفاءكم من

---

(١) الغديرة: الذؤابة من الشعر.

بنى مالك بن أُقَيشٍ [1]، إلى ما جاء به من البِدعة والضَّلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه!

فقلت لأبى: من هذا الذى يتبعه ويردُّ عليه ما يقول؟ قال: هذا عمُّه عبد العُزّى بن عبد المطلب، أبو لهب.

قال ابن إسحاق: حدثنا ابن شهاب الزهرى: أنه أتى كِندةَ فى منازلهم، وفيهم سيِّدٌ لهم يقال له مُلَيح، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وعرضَ عليهم نفسَه فأبَوا عليه.

وأنَّه أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ وعرَض عليهم نفسه، فقال له رجلٌ منهم يقال له «بَيْحَرة بن فِراس»: والله لو أنِّى أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب! ثم قال له: أرأيت إنْ نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرَك اللهُ على مَن خالفك أيكونُ لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. فقال له: أفتُهدَفُ [2] نحورُنا للعرب دونك، فإذا أظهرَك الله كان الأمرُ لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك! فأبَوا عليه.

فلما صدر الناسُ رجعت بنو عامرٍ إلى شيخٍ لهم قد كانت أدركته السنُّ حتى لا يقدرُ أن يوافىَ معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه

---

(١) هم حى من الجن تنسب إليهم الإبل الأقيشية، وهى إبل ليست عتاقا، تنفر من كل شىء.

(٢) تهدف: تصير هدفاً للرمى.

حدَّثوه بما يكون فى ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العامَ سألهم عما كان فى موسمهم ، فقالوا : جاءنا فتًى من قريش ، ثم أحدُ بنى عبد المطَّلب ، يزعم أنه نبىّ ، يدعونا إلى أن نمنعَه ونقومَ معه ونخرج به إلى بلادنا ! فوضعَ الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بنى عامر ، هل لها من تَلَافٍ (١) ، هل لِذُناباها من مَطلَب (٢) ! والذى نفسُ فلانٍ بيده ما تقوَّلها إسماعيلىٌّ قطّ ، وإنَّها لحقّ ، فأين رأيكم كان عنكم ؟ !

عن عبد الله بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم إلى الله ، وعرضَ عليهم نفسَه ، فلم يكن أحدٌ من العرب أقبحَ عليه ردًّا منهم .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره ، كلَّما اجتمع له النـاس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسـلام ، ويَعرِض عليهم نفسَه وما جاء به من الله من الهُدَى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادمٍ يقدَم مكّة من العرب ، له اسمٌ وشرف ، إلا تصدّى له فدعاه إلى الله ، وعرض عليه ما عنده .

قدم سويد بن صامتٍ ، أحد بنى عمرو بن عوف ، مكّةَ حاجًّا أو معتمراً ، فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ،

---

(١) التلافى : التدارك .

(٢) مثل يضرب لما فات ، وهو من « ذنابى الطائر » أى ذنبه ، إذا أفلت من الحبالة فطلبت الأخذ به .

فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعلَّ معك مثل الذى معى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : مَجَلَّةُ لُقمان . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرِضْها علىَّ . فعرَضها عليه . فقال له : إنَّ هذا لكلامٌ حسن ، والذى معى أفضلُ من هذا ، قرآنٌ أنزلَه الله تعالى علىَّ ، هو هدًى ونور . فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فلم يَبعُد منه . وقال : إنَّ هذا لقولٌ حسن . ثم انصرف عنه ، فقدِم المدينةَ على قومه ، فلم يلبثْ أن قتلتْه الخزرج .

فإن كان رجالٌ من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قتِل وهو مسلم . وكان قتلُه قبل يوم بُعاث[1]

---

(١) بعاث : موضع من نواحى المدينة ، كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج .

بدء إسلام الأنصار

فلما أراد الله عزّ وجلّ إظهارَ دينه ، وإعزار نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وإنجاز موعدِه له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقيه فيه النفَرُ من الأنصار ، فعرضَ نفسَه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العَقَبة[١] لقىَ رهطًا من الخزرج أراد اللهُ بهم خيرا[٢] .

لمّا لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمِنْ موالى يهود ؟ قالوا : نعمْ . قال : أفلا تجلسون أكلّمُكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام ، أن يهودَ كانوا معهم فى بلادهم . وكانوا أهلَ كتاب وعلم ، وكانوا هم أهلَ شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غَزَوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إنّ نبيًا مبعوثٌ الآنَ قد أظلَّ زمانُه ، نتّبعه فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم !

---

(١) العقبة : موضع بين منى ومكة ، بينها وبين مكة نحو ميلين ، ومنها ترمى جمرة العقبة .

(٢) كان ذلك فى السنة الحادية عشرة من النبوة .

فلمّا كلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: تعلّموا والله إنّه للنبيّ الذى توعّدكم بهم يهود، فلا يسبقنَّكُم إليه.

فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عَرَض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومَنا ولا قومَ بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسَنَقْدَم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجلَ أعزُّ منك.

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدَّقوا. وهم فيما ذُكر لى ستةُ نفر من الخزرج.

فلما قدِموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودَعوهم إلى الإسلام حتّى فشا فيهم، فلم تَبق دارٌ من دور الأنصار إلّا وفيها ذِكرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بيعة العقبة الأولى

حتى إذا كان العامَ المقبل وافَى الموسِمَ من الأنصار اثنا عشر رجلًا، فلَقُوه بالعقبة، وَهى العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء [1]، وذلك قبل أن تُفتَرَضَ عليهم الحرب، منهم أسعد بن زُرارة، ورافع بن مالك، وعُبادة بن الصامت، وأبو الهيثم بن التيِّهان.

عن عبادة بن الصامت قال:

كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنَىْ عشر رجلا، فبايعْنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على ألا نشرك بالله شيئا، ولا نَسرِق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف. فإن وفيتُم فلكم الجنة، وإن غشيتُم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء عذب، وإن شاء غفر.

قال ابن إسحاق: فلما انصرفَ عنه القومُ بَعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلّمهم الإسلامَ، ويفقِّههم فى الدين، فكان يسمَّى المقرئ بالمدينة.

كان يصلى بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كرِه بعضُهم أن يؤمّه بعض.

---

(١) أى على نمطها. وكانت بيعة النساء فى ثانى يوم الفتح على جبل الصفا بعد ما فرغ من بيعة الرجال.

بيعة العقبة الثانية

ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكّة ، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم ، مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدِموا مكة ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبةَ ، من أوسط أيام التشريق[1] حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته ، والنصر لنبيِّه ، وإعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله .

قال كعب بن مالك :

خرجنا فى حجاج قومِنا من المشركين ، وقد صلَّينا وفقُهنا ، ومعنا البَرَاء بن معرور ، سيدُنا وكبيرُنا ، فلما وجَّهْنا[2] لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البَرَاء لنا : يا هؤلاء ، إنّى قد رأيتُ رأيًا فوالله ما أدرى أتوافقوننى عليه أم لا ؟ قلنا : وما ذاك ؟ قال : رأيت ألّا أدَعَ هذه البَنيّة منّى بظهر — يعنى الكعبة — وأن أصلِّىَ إليها . فقلنا : والله ما بلغنا أن نبيّنا صلى الله عليه وسلم يصلى إلّا إلى الشام[3] ، ومانريد أن نخالفه . فقال : إنى لمصلٍّ إليهما . فقلنا له : لكنّا لانفعل . فكنّا إذا حضرت الصلاة صلّينا إلى الشام وصلّى إلى الكعبة ، حتى قدِمْنا مكة ، وقد كنّا عِبنا عليه ما صنعَ وأبى إلّا الإقامة على ذلك . فلما قدِمنا مكةَ قال لى :

---

(١) أيام التشريق : ثلاثة بعد النحر ، كانوا يشرقون فيها لحم الأضاحى للشمس.
(٢) وجهنا : اتجهنا . (٣) أى بيت المقدس .

يا ابنَ أخى ، انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نسألَه عما صنعتُ فى سفرى هذا ، فإنه والله لقد وقعَ فى نفسى منه شىء ، لمـا رأيت من خلافكم إياى فيه .

قال : فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنّا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلا من أهل مكّة فسألناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا . قال : فهل تعرفان العباسَ بن عبد المطلب عمَّه . قلنا : نعَم — وقد كنّا نعرف العباس ، كان لا يزال يقدَم علينا تاجرا — قال : فإذا دخلتما المسجدَ فهو الرجلُ الجالسُ مع العبّاس . فدخلنا المسجد فإذا العباسُ جالس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس معه ، فسلَّمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا العباس ؟ قال : نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك . فوالله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشاعر ؟ قلت : نعم . فقال له البَرَاء بن معرور : يا نبىَّ الله ، إنى خرجت فى سفرى هذا وقد هدانى الله للإسلام ، فرأيت ألّا أجعل هذه البَنِـيَّةَ منى بظهر ، فصلَّيتُ إليها ، وقد خالفَنى أصحابى فى ذلك ، حتَّى وقعَ فى نفسى من ذلك شىء ، فما ذا ترى يا رسول الله ؟ قال : قد كنتَ على قبلةٍ لو صبرت عليها !

قال : فرجع البَراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلَّى معنا إلى الشام .

ثمَّ خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم العقبةَ من أوسط أيام التشريق . فلما فرغْنا من الحج وكانت الليلة التى واعدْنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لها ومعنا عبد الله بن عمرو بن حَرَام أبو جابر ، سيِّد من ساداتنا ، وشريفٌ من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنَّا نكتم مَن معنا مِن قومنا من المشركين أمرَنا ، فكلَّمناه وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيِّد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنَّا نَرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً . ثم دعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد الرسول صلى الله عليه وسلم إيانا العقبة . فأسلمَ وشهد معنا العقبةَ وكان نقيباً .

فنمنا تلك الليلةَ مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلَّل تَسلُّلَ القَطَا مستخفين ، حتَّى اجتمعنا فى الشِّعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائنا : نُسَيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدى [1] .

قال : فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى جاءنا ومعه عمُّه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذٍ على دين قومه ،

---

(1) قال ابن إسحاق : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصافح النساء ، إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررن قال : اذهبن فقد بايعتكن .

إلّا أنّه أحبَّ أن يحضرَ أمرَ ابن أخيه ويتوثَّق له . فلما جلسَ كان أول متكلِّم العباسَ بن عبد المطلب، فقال : يا معشر الخزرج — وكانت العرب تسمى هذا الحيّ من الأنصار : الخزرج، خزرجها وأوسها — إنْ محمدًا منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا . ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عزٍّ من قومه ، ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلّا الانحياز إليكم ، واللحوقَ بكم ، فإن كنتم تَرَون أنكم وافُون له بما دعوتموه إليه ، ومانِعوه ممن خالفَه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآنِ فَدعوه ، فإنه فى عزٍّ ومَنَعةٍ من قومه وبلده. فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسولَ الله ، فخذ لنفسك ولربّك ما أحببت .

فتكلمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم !

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق نبيًّا ، لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرنا[1] ، فبايِعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحَلْقة[2] ، ورثناها كابرًا عن كابر !

---

(١) كنوا بالأزر عن النساء ، أو عن النفوس ، يقال لكل منهما : إزار .
(٢) الحلقة : السلاح كله .

فاعترض القولَ ، والبراء يكلِّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبو الهيثم بن التَّيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالًا وإنّا قاطِعوها — يعنى اليهود — فهل عَسَيت إن نحن فعلْنا ذلك ثم أظهرَك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدَّمُ الدم ، والهَدْم الهَدْم[1] ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب مَن حاربتم ، وأسالم من سالمتم !

وقد كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخرِجوا إلىَّ منكم اثنَىْ عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم . فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس[2] .

وكان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء ابن معرور ، ثم بايع بعدُ القومُ .

فلما بايعْنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطانُ من

---

(١) الهدم ، بإسكان الدال وفتحها : إهدار الدم ، أى إن طلب دمكم فقد طلب دمى ، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمى . والهدم ، بالتحريك : القبر والمنزل ، أى أقبر حيث تقبرون ، وأنزل حيث تنزلون .

(٢) أما نقباء الخزرج السبعة فهم : أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو ابن حرام ، وعبادة بن الصامت .

وأما نقباء الأوس فهم : أسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن المنذر . قال ابن هشام : وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ، ولا يعدون رفاعة .

رأس العقبة بأنفذ صوت سمعتُه قطّ ! يا أهل الجباجب[١] ، هل لكم فى مذمَّمٍ[٢] والصُّباةِ[٣] معه ، قد اجتمعوا على حربكم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أزبُّ العقبة ، هذا ابن أزْيَب[٤] !

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفضُّوا إلى رحالكم . فقال له العباس بن عُبادة بن نضلة : والله الذى بعثَكَ بالحقّ ، إن شئتَ لَنَميلَنَّ على أهل منًى غداً بأسيافنا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم .

فرجعنا إلى مضاجعنا ، فنمنا عليها حتى أصبحنا ، فلما أصبحنا غدت علينا جِلّةُ قريشٍ فقالوا : يا معشرَ الخزرج ، إنه قد بلغَنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما مِن حىّ من العرب أبغضُ إلينا أن تنشَب الحربُ بيننا وبينهم ، منكم !

فانبعث مَن هناك مِن مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء ، وما علمناه ! وقد صدقوا ، لم يَعلموه . قال : وبعضنا ينظر إلى بعض .

---

(١) الجباجب : المنازل ، منازل منى .

(٢) كان المشركون يلقبونه بذلك .

(٣) الصباة : جمع صاب . والصابئ : الخارج من دينه ، كانوا يسمون من أسلم بذلك .

(٤) أزب بن أزيب : اسم شيطان .

ونفر الناس من منًى، فتنطَّسَ[1] القومُ الخبرَ فوجدوه قد كان، وخرجوا فى طلب القوم، فأدركوا سعد بن عُبادة بأَذاخر[2]، والمنذر ابن عمرو، وكلاهما كان نقيبا. فأما المنذر فأعجزَ القوم، وأما سعد فأخذوه، فربَطوا يديه إلى عنقه بنِسْع رحلِهِ[3]، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجُمّته[4]؛ وكان ذا شَعر كثير.

قال سعد:

فوالله إنى لفى أيديهم إذْ طلع علىَّ نفرٌ من قريش، فيهم رجلٌ وضىءٌ أبيض، شَعشاعٌ[5] حلوٌ من الرجال، فقلت فى نفسى: إن يكُ عند أحدٍ من القوم خيرٌ فعند هذا. فلما دنا منّى رفع يدَه فلكمنى لكمةً شديدة، فقلت فى نفسى: والله ما عندهم بعد هذا من خير! فوالله إنّى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى لى[6] رجلٌ ممّن كان معهم فقال: ويحك! أما بينك وبين أحدٍ من قريشٍ جوارٌ ولا عهد؟ قلت: بلى والله، لقد كنت أُجير لجُبَير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف تِجارَهُ، وأمنعهم ممّن أراد ظلمَهم ببلادى؛ وللحارث بن حرب بن أمية

---

(١) أى أكثروا البحث.

(٢) أذاخر: موضع قريب من مكة.

(٣) النسع: شراك يشد به الرحل.

(٤) الجمة: مجتمع شعر الرأس.

(٥) الشعشاع: الطويل الحسن.

(٦) أوى له: رق له ورحمه.

ابن عبد شمس بن عبد مناف . قال : ويحكَ فاهتفْ باسم الرجلين ، واذكرْ ما بينك وبينهما .

قال : ففعلتُ وخرج ذلك الرجلُ إليهما ، فوجدَهما فى المسجد عند الكعبة ، فقال لهما : إنّ رجلًا من الخزرج الآنَ يُضرَب بالأبطح ويهتف بكما ، ويذكُر أنّ بينه وبينكما جوارا . قالا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة . قالا : صدق والله ، إنْ كان لَيجيرُ لنا تِجارنا ، ويمنعهم أن يُظلَموا ببلده !

قال : فجاءا فخلّصا سعداً من أيديهم ، فانطلق .

شروط بيعة العقبة الأخيرة

وكانت بيعة الحرب حين أذِن اللهُ لرسوله فى القتال شروطاً سِوى شرطه عليهم فى العقبة الأولى . كانت الأولى على بيعة النساء ، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، فلما أذن الله له فيها ، وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود ،أخذ َلنفسه ، واشترط على القوم لربه ، وَجعل لهم على الوفاء بذلك الجنةَ .

قال عُبادة بن الصامت :

بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب ، على السمع والطاعة ؛ فى عُسرنا ويُسرنا ، ومَنْشَطنا ومَكْرَهنا[1] ، وأَثَرةٍ علينا[2] ، وألا ننازعَ الأمرَ أهلَه ، وأن نقول بالحق أينما كنّا ، لا نخاف فى الله لومة لائم .

---

(١) المنشط : الأمر تنشط له وتخف له . وهو خلاف المكره .

(٢) الأثرة بمعنى الاستئثار ، إشارة إلى إيثارهم المهاجرين على أنفسهم .

نزول الأمر بالقتال

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذنْ له في الحرب ولم تُحلَل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصَّبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفَوهم من بلادهم ، فهم من بين مفتونٍ في دينه ، ومن بين معذَّب في أيديهم ، وبين هاربٍ في البلاد فراراً منهم ؛ منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفي كل وجه . فلما عَتَتْ قريشٌ على الله عزَّ وجل ، وردُّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذَّبوا نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، وعذَّبوا ونفَوا من عَبَده ووحَّده وصدَّق نبيَّه ، واعتصم بدينه ، أذِن الله عزّ وجلّ لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال والانتصار ممن ظلَمهم وبَغَى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال ، فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء ، قول الله تبارك وتعالى : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا

الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).

أى إنى إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظُلموا، ولم يكن لهم ذنبٌ فيما بينهم وبين الناس ، وإنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكَر . يعنى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين .

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه : (وقاتلوهُمْ حَتَّى لا تكونَ فتنةٌ) أى لا يُفتَنَ مؤمنٌ عن دينه (ويكونَ الدِّينُ لِلَّهِ) ، أى حتى يُعبَدَ الله لا يعبد معه غيره .

الإذن بهجرة المسلمين إلى المدينة

فلما أذِن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، وبايعه هذا الحىُّ من الأنصار على الإسلام والنُّصرةِ له ولمن اتَّبعه وأوى إليه من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكة من المسلمين ، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : « إن الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » . فخرجوا أرسالا[1] ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربُّه فى الخروج من مكة ، والهجرة إلى المدينة .

---

(١) أى جماعات ، واحدة إثر الأخرى .

ذكر المهاجرين إلى المدينة

فكان أوّل من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من المهاجرين من قريش من بنى مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلامُ من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً .

ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبى سلمة عامر بن ربيعة ، معه امرأته ليلى بنت أبى حَثْمة . ثم عبد الله بن جحش ، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش ، وهو أبو أحمد ، وكان أبو أحمد رجلاً ضرير البصر ، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ، وكان شاعراً .

ثم خرج عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبى ربيعة المخزومى ، حتى قدما المدينة ، ثم تتابع المهاجرون .

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة، ولم يتخلَّف معه بمكة أحدٌ من المهاجرين إلّا من حُبِس وفتن، إلا عليّ بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، رضى الله عنهما. وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تَعَجَلْ لعلَّ الله يجعلُ لك صاحبا». فيطمع أبو بكر أن يكونه.

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعةٌ وأصحابٌ من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروجَ أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم مَنْعة، فحذِروا خروجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، وعرفوا أنه قد أجمعَ لحربهم.

فاجتمعوا له فى دار النَّدوة — وهى دار قصيّ بن كلاب التى كانت قريشُ لا تَقضِى أمراً إلا فيها — يتشاورون فيها ما يصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين خافوه.

عن ابن عباس قال: لما أجمعو لذلك واتَّعدوا أن يدخلوا فى دار النَّدوة، ليتشاوروا فيها فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، غدَوا فى اليوم الذى اتَّعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمَّى يوم الزَّحمة،

فاعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل [١] ، عليه بَتّ [٢] . فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : مَن الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد [٣] سمع بالذى اتّعدتم له ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى ألا يُعدمكم منه رأيا ونُصحا ! قالوا : أجلْ فادخل . فدخلَ معهم وقد اجتمع فيها أشراف قُريش ، فقال بعضُهم لبعض : إنَّ هذا الرجلَ قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنّا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتّبعه من غيرنا . فاجمِعوا فيه رأيا .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربّصوا به ما أصاب أشباهَه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابغة ، ومن مضى منهم ، مِن هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم ! فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ، ليخرجنَّ أمرُه من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزِعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتّى يغلبوكم على أمركم . ما هذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره .

---

(١) جليل : مسن .

(٢) البت : كساء غليظ مربع .

(٣) السهيلى : إنما قال لهم ، إنى من أهل نجد ، لأنهم قالوا لا يدخلن معكم فى المشاورة أحد من أهل تهامة ، لأن هواهم مع محمد ، فلذلك تمثل لهم فى صورة شيخ نجدى .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم[1] : نُخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا أخرجَ عنّا فوالله ما نبالى أين ذهبَ ، ولا حيث وقع ، إذا غابَ عنّا وفرغنا منه ، فأصلَحْنا أمرَنا وألفَتنا كما كانت .

فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حُسنَ حديثه ، وحلاوةَ منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحُلَّ على حيٍّ من العرب ، فيغلبَ عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعلَ بكم ما أراد ، أدِيرُوا فيه رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل بن هشام : والله إنّ لى لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعدُ . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أن نأخذ من كل قبيلةٍ فتىً شاباً جليدا نسيبا وسيطاً[2] فينا ، ثم نعطى كلَّ فتىً منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربةَ رجلٍ واحدٍ فيقتلوه ، فنستريحَ منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمُه فى القبائل جميعا ، فلم يَقدِر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضُوا منا بالعقل[3] ، فعقلناه لهم .

---

(١) هو أبو الأسود ربيعة بن عامر .

(٢) الوسيط : الشريف .

(٣) العقل : الدية .

فقال الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل ، هذا الرأى لا رأى غيره ! ! فتفرق القومُ على ذلك وهم مجمعون له .

فأتى جبريلُ عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تَبِت هذه الليلةَ على فراشك الذي كنتَ تبيت عليه .

فلما كانت عتمةً من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام ، فيثبون عليه . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلى ابن أبى طالب : نَمْ على فراشى ، وتَسَجَّ[1] ببردِى هذا الحضرمى الأخضر[2] فنَمْ فيه ، فإنه لن يَخلُص إليك شىء تكرهه منهم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى برده ذلك إذا نام .

عن محمد بن كعب القرظى قال :

لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام ، فقال وهُم على بابه : إنّ محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بُعثتم من بعد موتكم فجُعلت لكم جنانٌ كجنان الأردنّ ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جُعلت لكم نارٌ تُحرَقون فيها .

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب فى يده ، ثم قال : أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم . وأخذ الله تعالى

---

(١) تسجى بالثوب : غطى به جسده ووجهه .

(٢) الحضرمى : منسوب إلى حضرموت .

على أبصارهم عنه فلا يرَونه . فجعل ينثرُ ذلك الترابَ على رءوسهم
وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس : (يس . والقرآنِ الحكيم) إلى قوله :
(فأغشيناهم فهُمْ لا يُبصرون) ، حتى فرغ رسُول الله صلى الله عليه وسلم
من هؤلاء الآيات ، ولم يبقَ منهم رجلٌ إلَّا وقد وضَعَ على رأسه
ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟ قالوا
محمدا . قال : خيّبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثمّ ما ترك منكم
رجلاً إلّا وقد وضع على رأسه ترابا ، وانطلق لحاجته ، أفما ترونَ
ما بكم ؟ فوضع كلُّ رجلٍ منهم يَده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثمّ
جعلوا يتطلَّعون فيرون عليا على الفراش مُتَسجِّيا ببرد رسول الله
صلى الله عليه وسلم فيقولون : والله إن هذا لمحمدٌ نائماً عليه برده .
فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . فقام على رضى الله عنه عن الفراش
فقالوا : والله لقد كان صدَقَنا الذى حدَّثنا .

قال ابن إسحاق : وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلاً ذا مال ،
فكان حينَ استأذنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فقال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تعجلْ لعلّ الله يجعلُ لك صاحبا —
قد طمع بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يعنى نفسه حين
قال له ذلك — فابتاع راحلتين فاحتبسهما فى داره يعلفهما ،
إعداداً لذلك .

قالت عائشة : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحدَ طرفَى النّهار ، إما بُكرةً وإمّا عشيّة ، حتّى إذا كان اليوم الذى أَذِن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرَىْ قومه ، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة فى ساعةٍ كان لا يأتى فيها ، فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعةَ إلّا لأمرٍ حدث . فلمَّا دخل تأخّر له أبو بكرٍ عن سريره ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند أبى بكرٍ إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرِجْ عنّى مَن عندك . فقال يا رسول الله : إنّما هما ابنتاى ، وما ذاك ؟ فداك أبى وأمّى ! فقال : إنّ الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة . فقال أبو بكر : الصُّحبةَ يا رسول الله ؟ قال : الصُّحبة . قالت : فوالله ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم أنّ أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكرٍ يبكى يومئذ . ثم قال : يا نبىّ الله ، إنَّ هاتين راحلتان قد كنت أعددتُهما لهذا . فاستأجرا عبدَ الله ابن أرقط ، وكان مشرِكًا ، يدلُّهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما .

قال ابن إسحاق : ولم يَعلم فيما بلغنى بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ ، حين خرج ، إلّا علىّ بن أبى طالب ، وأبو بكر الصديق وآل أبى بكر . أما علىٌّ فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنى — أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلّف بعده بمكة . حتى يؤدّىَ

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحدٌ عنده شىء يخشى عليه إلّا وضعَه عنده، لما يعلم مِن صدقه وأمانته.

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروجَ، أتى أبا بكر ابن أبى قُحافة، فخرجا من خَوخةٍ[1] لأبى بكر فى ظهر بيته، ثم عمدَا إلى غارٍ بثَور[2] فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بنَ أبى بكر أن يتسمَّع لهما ما يقول الناسُ فيهما نهارَه، ثم يأتيهما إذا أمسَى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر. وأمر عامرَ بن فُهيرَةَ مولاه أن يرعى غنمَه نهارَه ثم يريحَها عليهما، يأتيهما إذا أمسى فى الغار. وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يُصلحهما[3].

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر، وجعلت قريشٌ فيه، حين فقدوه، مائة ناقة، لمن يردُّه عليهم. وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهارَه معهم، يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر، ثم

---

(١) الخوخة: باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين ينصب عليها باب.

(٢) ثور: جبل بأسفل مكة.

(٣) ابن هشام عن الحسن البصرى: «انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا، فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمس الغار، لينظر: أفيه سبع أو حية؟ يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه».

يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر . وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضى الله عنه ، يَرعى في رُعيانٍ أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنمَ أبي بكر ، فاحتلبا وذبحا ، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة ، اتّبع عامر بن فهيرة أثَره بالغنم حتى يعفّيَ عليه ، حتّى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبُهما الذى استأجراه ، ببعيريهما وبعيرٍ له ، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسُفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عِصاما[1] ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلّق السفرةَ فإذا ليس لها لها عِصام ، فتحلّ نطاقَها فتجعله عصاما ، ثم علّقتها به .

فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر : ذات النطاق ، لذلك[2] .

فلما قرّب أبو بكر ، رضى الله عنه ، الراحلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّم له أفضلهما ثم قال : اركب ، فِداك أبي وأمى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّى لا أركب بعيراً ليس لى . قال : فهى لك يا رسول الله ، بأبي أنت وأمى ! قال : لا ، ولكن ما الثمن الذى ابتعتَها به ؟ قال : كذا وكذا . قال : قد أخذتها به . قال : هما لك يا رسول الله .

---

(١) العصام : رباط القربة والمزادة ونحوهما .

(٢) قال ابن هشام : « وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول : ذات النطاقين . وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها باثنين ، فعلقت السفرة بواحد ، وانتطقت بالآخر » .

فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكرٍ الصدّيق رضى الله عنه عامرَ ابن فهيرة مولاه خلفه، ليخدُمهما فى الطريق .

قالت أسماء بنت أبى بكر : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، رضى الله عنه ، أتانا نفرٌ من قريشٍ فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبى بكر ، فخرجت إليهم فقالوا : أين أبوكِ يا بنت أبى بكر ؟ قلت : لا أدرى والله أين أبى . قالت : فرفع أبو جهلٍ يدَه – وكان فاحشاً خبيثاً – فلطمَ خدِّى لطمةً طرح منها قرطى !

ثم انصرفوا . فمكثنا ثلاث ليال وما ندرى أين وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتَّى أقبلَ رجلٌ من الجنِّ من أسفل مكَّة ، يتغنَّى بأبياتٍ من شعر غِناء العرب ، وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته ما يَرَونه ، حتَّى خرج من أعلى مكَّة وهو يقول :

جزى اللهُ ربُّ الناس خيرَ جزائه ... رفيقَين حلَّا خيمتَىْ أمِّ معبدِ [1]
هما نزلا بالـبرِّ ثم تروّحا ... فأفلحَ مَن أمسى رفيقَ محمدِ
لِيَهْنِ بنى كعبٍ مـكانُ فتاتهم ... ومَقعدُها للمؤمنين بمرصـد

(١) أم معبد ، واسمها عاتكة بنت خالد : امرأة من بنى كعب ، نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، وعبد الله بن أرقط ، فسألوها لحما وتمرا يشترون منها ، فلم يصيبوا عندها شيئا ، ورأى رسول الله شاة بكسر الخيمة لاتدر ، فاستأذنها أن يحلبها ، فمسح ضرعها فدرت درا غزيرا ، ثم بايعته المرأة على الإسلام .

فلما سمعنا قوله عرَفنا حيث وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن وَجهَه إلى المدينة.

قال سراقة بن مالك جُعشم: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائةَ ناقة لمن ردَّه عليهم. فبينا أنا جالس فى نادى قومى إذْ أقبلَ رجلٌ منَّا حتى وقَف علينا، فقال: والله لقد رأيت رَكَبةً ثلاثةً مرُّوا علىّ آنفاً، إنى لأراهم محمداً وأصحابَه. فأومأت إليه بعينى: أن اسكتْ. ثم قلت: إنما هم بنو فلانٍ يبتغون ضالَّة لهم! قال: لعلّه. ثم سكتَ. ثم مكثت قليلا ثم قمت فدخلت بيتى، ثم أمرت بفرسى فقُيِّد لى إلى بطن الوادى، وأمرتُ بسلاحى فأخرِج لى من دُبر حجرتى، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها، ثم انطلقت فلبستُ لأمتى [1] ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها، فخرج السهم الذى أكره «لا يضره» [2].
وكنت أرجو أن أردّه على قريش فآخذ المائة الناقة. فركبتُ على أثره، فبينا فرسى يشتدُّ بى عثر بى، فسقطت عنه، فقلت: ما هذا! ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها، فخرج السهم الذى أكره «لا يضره». فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت فى أثره، فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فسقطت عنه فقلت: ما هذا! ثم أخرجت قداحى

(١) اللأمة: الدرع والسلاح.
(٢) أى المكتوب فيه هذه الكلمة.

فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضرّه » . فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى . فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعهما دخانٌ كالإعصار . فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنع منى وأنَّه ظاهر [1] ، فناديت القوم فقلت : أنا سراقة بن جُعشُم ، أنظِرونى أكلمْكم ، فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : قل له : وما تبتغى منا ؟ فقال ذلك أبو بكر ، قلت : تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك . قال : اكتبْ له يا أبا بكر .

فكتبَ لى كتاباً فى عظم ، أو فى رقعة ، أو فى خرَقة ، ثمَّ ألقاه إلىَّ ، فأخذته فجعلتهُ فى كنانتى ثم رجعت . فسكتُّ فلم أذكر شيئا مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرغ من حُنين والطائف ، خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقِيتُه بالجِعرّانة [2] ، فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون : إليك إليك ، ماذا تريد ؟ فدنوتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، والله لكأنّى أنظر إلى

---

(١) أى غالب منتصر .

(٢) جعرانة : ماء بين الطائف ومكة .

ساقِه فى غَرزِه[1] كأنها جُمَّارة ، فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت : يارسول الله . هذا كتابك لى ، أنا سراقة بن جعشم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يومُ وفاءٍ وبر ، ادنهْ . فدنوتُ منه فأسلمت . ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فما أذكره ، إلّا أنى قلْت : يا رسول الله ، الضالَّة من الإبل تغشى حياضى وقد ملأتها لإبلى ، هل من أجرٍ فى أن أسقيها ؟ قال : « نعم ، فى كل ذات كبدٍ حرّى أجر » . ثم رجعت إلى قومى فسُقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتى .

قال ابن إسحاق :

فلما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط ، سلك بهما أسفلَ مكةَّ ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفلَ من عُسْفان ، ثم سلك بهما على أسفل أمج ، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قُديدا ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرّار ، ثم سلك بهما لِقْفاً ، ثم أجاز بهما مَدلجة لِقْف ، ثم استبطن بهما مَدلجة مَحَاج ، ثم سلك بهما مَرجِح محاج ، ثم تبطن بهما مَرجِح من ذى الغَضَوين ثم بطن ذى كَشْر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الأجرد . ثم سلك بهما ذا سَلم من بطن أعداء مَدلجة تِعهِن ، ثم على العبابيد ، ثم أجاز بهما الفاجّة .

---

(١) الغرز للرحل ، بمنزلة الركاب للسرج .

قال ابن هشام: ثم هبط بهما العرج وقد أبطأ عليهما بعضُ ظهرهم، فحمل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ من أسلم يقال له أوس ابن حُجر، على جملٍ له يقال له ابن الرِّداء، إلى المدينة، وبعث معه غلاماً له يقال له مسعود بن هنيدة، ثم خرج بهما دليلهما من العرج، فسلك بهما ثنية العائر عن يمين رَكوبة، حتّى هبط بهما بطن رئم، ثم قدِم بهما قُباء على بنى عمرو بن عوف، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين، حين اشتدَّ الضَّحاء وكادت الشمس تعتدل.

قدوم قباء

عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة، قال: حدّثني رجالٌ من قومي، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا:

لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، وتوكّفْنا[1] قدومه، كنّا نخرج إذا صلّينا الصبح إلى ظاهر حَرّتنا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوالله لا نبرح حتّى تغلبنا الشمسُ على الظِّلال، فإذا لم نجد ظلًّا دخلنا، وذلك في أيام حارّة، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبقَ ظلٌّ دخلْنا بيوتنا. وقدمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلْنا البيوتَ، فكان أوّل مَن رآه رجلٌ اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع وأنّا ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا، فضرخَ بأعلى صوته: يا بني قَيلة[2]، هذا جَدُّكم[3] قد جاء.

فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظلٍّ نخلة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سِنِّه، وأكثرنا لم يكن رأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك، وركبهُ الناس[4] وما يعرفونه من أبي بكر،

---

(١) توكفناه: استشعرناه وانتظرناه.

(٢) هم الأنصار جميعا، وقيلة جدة كانت لهم.

(٣) الجد، الحظ.   (٤) أي ازدحموا عليه.

حتى زال الظلّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو بكرٍ فأظلَّه بردائه ، فعرفناه عند ذلك .

قال ابن إسحاق :

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما يذكرون — على كُلثوم بن هِدم ، ويقال : بل نزل على سعد بن خَيثمة . ويقول من يذكر أنه نزل على كلثوم بن هدم : إنّما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج من منزل كلثوم بن هدم جلس للناس فى بيت سعد ابن خيثمة ، وذلك أنّه كان عزباً لا أهل له ، وكان منزلَ الأعزاب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين .

ونزل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على خُبَيب بن إساف . ويقول قائل : كان منزلهُ على خارجة بن زيد .

وأقام على بن أبى طالب عليه السلام بمكّة ثلاث ليالٍ وأيّامَها ، حتى أدّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عندَه للناس ، حتى إذا فرغ منها لِحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل معه على كلثوم بن هدم .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقُباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، يوم الاثنين ، ويوم الثلاثاء ، ويوم الأربعاء ، ويوم الخميس . وأسس مسجده .

ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة . فأدركت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الجمعةُ فى بنى سالم بن عوف ، فصلَّاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، وادى رانوناء ، فكانت أولَ جمعةٍ صلّاها بالمدينة .

فأتاه عِتْبان بن مالك ، وعباس بن عُبادة بن نَضْلة ، فى رجالٍ من بنى سالم بن عوف ، فقالوا : يا رسول الله ، أقِمْ عندنا فى العدد والعُدّة والمنعة . قال : خلُّوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، لناقته . فخلّوا سبيلها ، فانطلقَتْ حتى إذا وازنت دار بنى بَيَاضة تلقّاه زياد بن لبيد ، وفروة ابن عمرو ، فى رجالٍ من بنى بياضة ، فقالوا : يا رسول الله ، هلمَّ إلينا ، إلى العدد والعُدّة والمَنَعَة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة اعترضَه سعدُ بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، فى رجالٍ من بنى ساعدة ، فقالوا : يا رسول الله ، هلمَّ إلينا إلى العدد والعُدَّة والمنعة . قال : خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة . فخلَّوا سبيلها فانطلقت ، حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج ، اعترضَه سعد بن الربيع ، وخارجة بن زيد ، وعبد الله بن رواحة ، فى رجال من بنى الحارث بن الخزرج فقالوا : يا رسول الله ، هلمَّ إلينا ، إلى العدد والعُدَّة والمنعة . قال : خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة . فخلَّوا سبيلها فانطلقت .

حتى إذا مرت بدار بنى عدىّ بن النجار ، وهم أخواله دِنيا ، — أم عبد المطلب سلمى بنتُ عمرو ، إحدى نسائهم — اعترضه سليط بن قيس وأبو سَليط أُسيرة بن أبى خارجة ، فى رجالٍ من بنى عدىّ بن النجار ، فقالوا : يا رسول الله ، هلمّ إلى أخوالك ، إلى العدد والعُدّة والمنعة . قال : خلّوا سبيلَها فإنّها مأمورة . فخلّوا سبيلَها فانطلقت .

حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النّجار ، بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذٍ مِربَدٌ[1] لغلامين يتيمين من بنى النّجار — وهما فى حجر معاذ بن عفراء — سهل وسهيل ابنَى عمرو . فلما بركت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل وثبتَ ، فسارت غيرَ بعيدٍ ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم واضع لها زمامَها لا يَثنيها به ، ثم التفتت إلى خلفها ، فرجعت إلى مبركها أوّلَ مرة ، فبركتْ فيه ، ثم تحلحلت[2] ورزمت[3] ووضعت جرانها[4] ، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاحتمل أبو أيوبَ خالدُ بن زيدٍ رحلَه فوضعَه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأل عن المِربد : لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله

---

(١) المربد : الموضع الذى يجفف فيه التمر .

(٢) تحلحت : تحركت .

(٣) أرزمت : صوتت .

(٤) الجران : ما يصيب الأرض من صدر الناقة وباطن حلقها .

لسهل وسُهَيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان لى وسأرضيهما منه ، فاتخذْه مسجدا .

فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُبنَى مسجداً ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فعمِل فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليرغِّب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، ودأبوا فيه ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبىُّ يعملُ   لَذَاكَ مِنَّا العملُ المضلَّلُ

وارتجز المسلمون ، وهم يبنونه ، يقولون : « لا عيش إلا عيشُ الآخرة ، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة » . فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار » .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أبى أيوب حتى بُنى له مسجدُه ومساكنه ، ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبى أيوب ، رحمةُ الله عليه ورضوانه .

قال أبو أيوب :

لما نزل علىّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى نزل السُّفل ، وأنا وأمُّ أيوب فى العُلْو ، فقلت له : يا نبىَّ الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى

لأ كرهُ وأعْظِـم أن أكون فوقك وتكونَ تحتى ، فاظهر أنت فكن فى العلو ، وننزل نحن فنكون فى السُّفل . فقال : يا أبا أيوب ، إنَّ أرفقَ بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت .

قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سُفله وكنّا فوقَه فى المسكن ، فلقد انكسر حُبٌّ[1] لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأمّ أيوب بقطيفةٍ[2] لنا مالنا لحافٌ غيرها نَنشَف بها الماء ، تخوّفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء يؤذيه .

قال : وكنا نصنع له العَشاء ثم نبعث به إليه ، فإذا ردَّ علينا فضلَه تيمَّمتُ أنا وأم أيوب موضع يده ، فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلةً بعَشائه وقد جعلنا له بصلاً أو ثُوماً ، فردَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم أر ليده فيه أثراً ، فجئته فزِعاً فقلت : يا رسول الله ، بأبى وأنت وأمّى ، رددتَ عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنتُ إذْ رددتَه علينا تيممت أنا وأم أيوب موضعَ يدك ، نبتغى بذلك البركة . قال : إنِّى وجدتُ فيه ريحَ هذه الشجرة ، وأنا رجلٌ أُناجَى ، فأما أنتم فكلوه .

قال : فأكلناه ، ولم نصنع له تلك الشجرةَ بعد .

---

(١) الحب : الجرة ، أوجرة ضخمة .

(٢) القطيفة : كساء له خمل ، أى أهداب .

قال ابن إسحاق : وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق بمكّة منهم أحدٌ إلاّ مفتون أو محبوس ، ولم يُوعب أهل هجرةٍ من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أهلُ دُورٍ مسمَّون : بنو مظعون من بنى جمح ، وبنو جحش بن رئاب حلفاء بنى أمية ، وبنو البُكير من بنى سعد بن ليث حلفاء بنى عدى بن كعب ، فإنَّ دُورَهم غُلِّقتْ بمكّة هجرة ، ليس فيها ساكن .

الخطب والعهود بالمدينة

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة إذ قدِمها شهرَ ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة ، حتَّى بُنى له فيها مسجدُه ومساكنه واستجمع له إسلام هذا الحىّ من الأنصار ، فلم يبق دارٌ من دور الأنصار إلَّا أسلم أهلها ، إلَّا ما كان من خَطْمة وواقف ووائل وأمية ، وتلك أوس الله ، وهم حىّ من الأوس ، فإنهم أقاموا على شركهم .

وكانت (أوَّلَ خطبة) خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، نعوذ بالله أن نقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل — أنه قام فيهم ، فحمِد الله وأثنى عليه عليه بما هو أهلُه ، ثم قال :

أما بعد ، أيُّها الناس ، فقدِّموا لأنفسكم . تعلَمُنَّ والله ليُصعَقَنَّ أحدُكم ، ثم ليَدَعنَّ غنمَه ليس لها راع ، ثم ليقولنَّ له ربُّه وليس له تَرجمانٌ ولا حاجبٌ يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلَّغَك ، وآتيتك مالًا وأفضلْتُ عليك ؟ فما قدَّمتَ لنفسك ؟ فلينظر يميناً وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرنَّ قُدَّامَه فلا يرى غير جهنَّم . فمن استطاعَ أن يقىَ وجهَه من النار ولو بشِقِّ تمرة فليفعلْ ، ومَن لم يجد فبكلمةٍ طَيِّبة ، فانَّ بها تُجزَى الحسنةُ بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضِعف . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ مرةً أخرى فقال:

إنّ الحمدَ للهِ[1]، أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إن أحسن الحديث كتابُ الله تبارك وتعالى، وقد أفلح من زيّنه الله فى قلبه، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنّه أحسن الحديث وأبلغه. أحبُّوا ما أحبَّ الله، أحبّوا الله من كل قلوبكم، ولا تملُّوا كلامَ الله وذكرَه، ولا تقسُ عنه قلوبكم، فإنّه مِن كلِّ ما يخلق الله يختار ويصطفى، قد سمّاه الله خِيرته من الأعمال[2] ومصطفاه من العباد[3]، والصالحَ من الحديث، ومن كل ما أوتى الناس الحلالُ والحرام. فاعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئا، واتّقوه حقّ تقاته، واصدقوا الله صالحَ ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروح الله بينكم. إن الله يغضب أن يُنكثَ عهدُه. والسلام.

* * *

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادَع فيه يهودَ. وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم:

---

(١) أى إنه الحمد لله.

(٢) أى الذكر وتلاوة القرآن لقوله تعالى: (يخلق مايشاء ويختار).

(٣) أى وسمى المصطفى من عباده.

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم . إنَّهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رِبْعتهم[1] يتعاقلون بينهم[2] ، وهم يَفْدون عانيَهم[3] بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفةٍ تَفدي عانيها بالمعروف والقسطِ بين المؤمنين . وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معَاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تَفدِي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفةٍ منهم تَفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النَّبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عليها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وإن المؤمنين لا يتركون مُفرَحاً[4] بينهم

---

(١) الربعة : الحال التى وجدهم عليها الإسلام .

(٢) أى يعقل بعضهم عن بعض . والعقل : الدية .

(٣) العانى : الأسير . (٤) المفرح : المثقل بالدين والكثير العيال .

أن يُعطوه بالمعروف فى فداءٍ أو عقل . وألّا يخالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه ، وإن المؤمنين المتّقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعةَ[1] ظُلْم أو إثم أو عدوان أو فسادٍ بين المؤمنين ؛ وإن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولدَ أحدهم . ولا يقتلْ مؤمنٌ مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن . وإن ذمّة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم . وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس . وإنه من تبعنا من يهودَ فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولامتناصرين عليهم . وإن سِلْمَ المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمنٍ فى قتال فى سبيل الله إلّا على سواءٍ وعدل بينهم . وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا . وإن المؤمنين يُبىء[2] بعضهم على بعض بما نالَ دماءَهم فى سبيل الله . وإن المؤمنين المتقين على أحسن هَدىٍ وأقومه . وإنه لا يجير مشركٌ مالاً لقريش ولا نفسا ، ولا يحولُ دونه على مؤمن ، وإنّه من اعتَبَط[3] مؤمنا قتلاً عن بيّنة فإنّه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولىُّ المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافّة ، ولا يحلُّ لهم إلّا قيام عليه . وإنّه لا يحلُّ لمؤمنٍ أقرّ بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدِثاً ولا يؤويه ، وإنه من نَصَره أو آواه فإنّ عليه لعنة الله وغضبَه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف

---

(١) الدسيعة : العظيمة .

(٢) أباءه به : قتله به ، جعله بواء له .

(٣) اعتبطه : قتله بلا جناية توجب القتل .

ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلّا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتِغُ[1] إلّا نفسه وأهل بيته. وإن ليهود بني النّجار مثلَ ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلّا من ظلم وأثم فإنّه لا يُوتِغ إلا نفسَه وأهل بيته. وإن جفنة بطنٌ من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشُّطيبة مثلَ ماليهود بني عوف، وإن البرّ دون الإثم[2]، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهودَ كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلّا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم، وإنه لا ينحجز على ثارِ جُرح، وإنّه من فتكَ فبنفسه فَتَكَ وأهل بيته، إلّا مَن ظلم. وإن الله على أبرّ هذا. وإن على اليهود نفقتَهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصرَ على من حاربَ أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم. وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإنّ النصر

---

(١) يوتغ: يهلك.

(٢) أى إن البر والوفاء ينبغى أن يكون حاجزا عن الإثم.

للمظلوم . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين[1] . وإن يثرب حرام جوفُها لأهـــل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنَّفس غير مضارٍّ ولا آثم ، وإنّه لا تُجار حرمة إلاّ بإذن أهلها . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإن الله على أتقَى ما فى هذه الصحيفة وأبرّه[2] ، وإنّه لا تُجار قريش ولا مَن نصرها ، وإنّ بينهم النصر على مَن دهِم يثرب ، وإذا دُعوا إلى صلحٍ يصالحونه ويَلبسونه ، فإنّهم يصالحونه ويلبسونه . وإنّهم إذا دعَوا إلى مثل ذلك فإنّه لهم على المؤمنين ، إلّا مَن حارب فى الدّين ، على كلّ أناسٍ حصّتهم من جانبهم الذى قِبلهم . وإنّ يهود الأوس ، مواليَهم وأنفسَهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة . وإن البرّ دون الإثم ، لا يكسب كاسبُ إلّا على نفسه ، وإنّ الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبرّه ، وأنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالمٍ أو آثم . وإنّه من خرج آمن ، ومن قَعَدَ آمن بالمدينة ، إلاّ من ظلم وأثم ، وإن الله جارٌ لمن برَّ واتَّقى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أى إن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به .

(٢) كان هذا قبل أن تفرض الجزية وحين كان الإسلام ضعيفا ، كان لليهود إذ ذاك نصيب فى المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين شرط عليهم فى هذا الكتاب النفقة معهم فى الحروب .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

قال ابن إسحاق :

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال — فيما بلغنا ، ونعوذ بالله أن نقول عليه مالم يقل — :

« تآخوا فى الله أخوين أخوين » . ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال : هذا أخى . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدُ المرسلين وإمامُ المتقين ، ورسول رب العالمين ، الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه أخوين . وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله صلى الله عليه وسلم وعمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزيد بن حارثة مولى رسول أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدثَ به حادث الموت . وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين الطّيّار ، ومعاذ ابن جبل أخو بنى سلمة أخوين .

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه بن أبى قحافة وخارجة بن زهير أخوين . وعمر بن الخطاب وعِتبان بن مالك أخوين . وأبو عبيدة ابن الجراح وسعد بن معاذ أخوين . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين . والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين .

وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخوين . وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين . وسعِيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبيّ بن كعب أخوين . ومصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين . وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين . وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين . وأبو ذر الغِفاريّ والمنذر بن عمرو أخوين .

وكان حاطب بن أبي بَلتعة وعُويم بن ساعدة أخوين . وسلمان الفارسي وأبو الدرداء أخوين . وبلال مولى أبي بكر وأبو رويحة أخوين .

فهؤلاء من سمّى لنا ، ممن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بينهم من أصحابه .

خبر الأذان

فلما اطمأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار، استحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة، وفرضت الزكاة والصيام وقامت الحدود، وفرض الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدِمها إنّما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدِمها أن يجعل بُوقاً كبوق يهود الذى يهرعون به لصلاتهم، ثم كرهه. ثم أمر بالناقوس فنُحت ليُضرَب به للمسلمين للصلاة.

فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة أخو بلحارث ابن الخزرج، النداء، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا رسول الله، إنّه طاف بى هذه الليلةَ طائف. مرّ بى رجلٌ عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً فى يده فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر. الله أكبر الله أكبر. أشهد ألا إله إلا الله، أشهد ألا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله. حىّ

على الصلاة . حى على الصلاة . حىّ على الفلاح ، حىّ على الفلاح . الله أكبر ، الله أكبر . لا إله إلّا الله .

فلما أخبرَ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنّها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقُمْ مع بلالٍ فألقها عليه فليؤذّن بها ، فإنّه أندى صوتاً منك . فلما أذّن بها بلالٌ سمعها عمرُ بن الخطاب وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجرّ رداءه ، وهو يقول : يا نبى الله ، والذى بعثك بالحقّ لقد رأيت مثل الذى رأى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلله الحمد على ذلك .

ذكر من اعتل من أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم

عن عائشة رضى الله عنها قالت :

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قدِمها وهى أوبأ أرضِ الله من الحُمَّى ، فأصابَ أصحابَه منها بلاء وسقم ، فصرفَ اللهُ ذلك عن نبيِّه صلى الله عليه وسلم . فكان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة وبلالٌ موليا أبى بكر ، مع أبى بكرٍ فى بيتٍ واحد ، فأصابتهم الحمّى ، فدخلت عليهم أعودُهم ، وذلك قبل أن يُضرَب علينا الحجاب ، وبهم ما لا يعلمه إلّا الله من شدة الوَعْك[1] فدنوت من أبى بكر فقلت له : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كل امرئٍ مصبَّح فى أهله ... والموت أدنى من شِراك نعله

فقلت : والله ما يدرى أبى ما يقول . ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت له : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذوقه ... إنّ الجبانَ حتفُه من فوقه

كل امرئٍ مجاهدٌ بطَوقِه[2] ... كالثور يحمى جلدَه بروِقه[3]

فقلت : والله ما يدرى عامر ما يقول !

---

(١) الوعك : شدة ألم المرض .

(٢) الطوق : الطاقة .

(٣) الروق : القرن .

وكان بلالٌ إذا تركته الحمّى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته[1] فقال:

أَلَا ليت شعرى هل أبيتَنَّ ليلةً بفخٍّ وحولى إذخِرٌ وجليلُ[2]
وهلْ أرِدنْ يومًا مياهَ مَجَنَّةٍ وهل يبدُوَن لى شامةٌ وطَفِيلُ[3]

فذكرتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت منهم فقلت: إنّهم لَيَهْذُون وما يعقلون من شِدّة الحمّى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« اللهم حبِّبْ إلينا المدينةَ كما حبَّبتَ إلينا مكّة أو أشدَّ، وباركْ لنا فى مُدِّها وصاعها[4]، وانقلْ وباءها إلى مَهْيَعة[5] ».

(١) أى رفع صوته.

(٢) فخ: موضع خارج مكة. الإذخر: نبت طيب الرائحة. والجليل: الثمام.

(٣) مجنة: اسم سوق للعرب فى الجاهلية كانت بأسفل مكة على قدر بريد منها. وشامة وطفيل: جبلان بمكة.

(٤) أى مايكال بالمد والصاع. المد: رطلان عند أهل العراق، ورطل وثلث عند أهل الحجاز. والصاع: أربعة أمداد عند الحجازيين.

(٥) مهيعة، هى الجحفة، وهى ميقات أهل الشام.

تاريخ الهجرة

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ يوم الاثنين ، حين اشتدّ الضحاء وكادت الشمس تعتدل ، لثنتى عشرة ليلةً مضت من شهر ربيع الأول ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة ، وذلك بعد أن بعثه الله عز وجلّ بثلاث عشرة سنة ، فأقام بها بقية شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر ، وجماديين ، ورجبا ، وشعبان ، وشهر رمضان ، وشوّالا ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، والمحرم .

أول الغزوات

ثم خرج غازياً فى صفر غزوة ودان على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه المدينة ، حتى بلغ ودّان ، وهى غزوة الأبواء ، يريد قريشاً وبنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فوادعته فيها بنو ضَمرة ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ولم يلق كيدا . فأقام بها بقية صفر وصدراً من شهر ربيع الأول .

سرية عبيدة بن الحارث

وهى أول راية عقدها عليه السلام

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى مقامه ذلك بالمدينة ، عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصى ، فى ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، فسار حتى بلغ ماء بأسفل ثنية المرة ، فلقى بها جمعاً عظيما من قريش ، فلم يكن بينهم قتال ، إلّا أنّ سعد بن أبى وقّاص قد رُمى يومئذ بسهم . فكان أول سهم رُمى به فى الإسلام .

ثم انصرف القوم عن القوم ، وللمسلمين حامية .

سرية حمزة إلى سيف البحر

وبعث فى مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب بن هاشم إلى سِيف البحر[1] من ناحية العِيص ، فى ثلاثين راكبا من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل فى ثلثمائة راكب من أهل مكة ، فحجز بينهم مجدىّ بن عمرو الجهنى ، وكان موادعاً للفريقين ، فانصرف بعض القوم عن بعض ، ولم يكن بينهم قتال .

---

(١) السيف ، بالكسر : الشاطىء.

غزوة بواط

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأول يريد قريشا[1] ، حتى بلغ بُواط[2] ، من ناحية رضوى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا ، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى .

غزوة العُشيرة

ثم غزا قريشا[3] ، فسلك على نقب بنى دينار ، ثم على فيفاء الخَبار فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر ، فصلَّى عندها ، فثَمّ مسجدُه صلى الله عليه وسلم ، وصُنع له طعام فأكل منه وأكل الناسُ معه ، فموضع أثافى البُرمة معلوم هنالك ، واستُقى له من ماء به يقال له : المُشترَب ، ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم فترك الخلائق[4] بيسار ، وسلك شعبة يقال لها شعبة عبد الله ، ثم صبَّ لليسار حتى هبط يَلْيَل ، فنزل بمجتمعه ومجتمع الضَّبوعة ، واستقى من بئر بالضبوعة . ثم سلك الفرش : فرش ملل ، حتى لقى الطريق بُصحيرات اليمام ، ثم اعتدل به الطريقُ حتَّى نزل العُشيرة من بطن ينبع ، فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة ، ووادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضَمرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا .

---

(١) واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون .
(٢) جبل من جبال جهينة ، بقرب ينبع .
(٣) واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد .
(٤) أرض بالمدينة لعبد الله بن أحمد بن جحش .

سرية سعد بن أبى وقاص

وقد كان بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين ذلك من غزوةٍ سعدَ بن أبى وقّاص ، فى ثمانية رهط من المهاجرين ، فخرج حتى بلغ الخَرَّار من أرض الحجاز ، ثم رجع ولم يلق كيدا .

غزوة سفوان

وهى غزوة بدرٍ الأولى

ولم يقم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين قدم من غزوة العُشَيْرة إلا ليالىَ قلائل لا تبلغ العشر ، حتى أغار كُرز بن جابرٍ الفِهرىّ على سرح المدينة[1] ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبه[2] حتى بلغ وادياً يقال له سَفوان من ناحية بدر ، وفاته كرز بن جابر فلم يدركه ، وهى غزوة بدر الأولى . ثم رجع رسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجباً وشعبان .

---

(١) السرح : الإبل والمواشى تسرح للرعى بالغداة .

(٢) واستعمل على المدينة زيد بن حارثة .

سرية عبد الله بن جحش

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش فى رجب ، مَقفله من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتابا ، وأمره ألّا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضى لما أمرَه به ، ولا يستكره من أصحابه أحدا .

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه ، فإذا فيه : إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل « نخلة » بين مكة والطائف ، فترصَّدْ بها قريشا وتعلمْ لنا من أخبارهم .

فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال : سمعاً وطاعة . ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى إلى نخلة أرصدُ بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهانى أن أستكرهَ أحداً منكم . فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف منهم أحد .

وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدنٍ فوق الفُرُع يقال له : بَحْران ، أضلَّ سعدُ بن أبى وقاص وعُتبة بن غَزوان بعيراً لهما كانا

يعتقبانه ، فتخلفّا عليه فى طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة ، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدَما[1] وتجارة من تجارة قريش ، فيها عمرو بن الحضرمى ، وعثمان بن عبد الله ابن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم ، فأشرف لهم عكّاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه . فلما رأوه أمنوا وقالو : عُمّارٌ لا بأس عليكم منهم . وتشاور القوم فيهم ، وذلك فى آخر يوم من رجب ، فقال القوم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلةَ ليدخلُنَّ الحرم فليمتنِعُنَّ منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتُلنّهم فى الشهر الحرام! فتردّد القوم وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجّعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدَروا عليه منهم وأخذِ ما معهم . فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بنَ الحضرمىِّ بسهمٍ فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت القومَ نوفلُ بن عبد الله فأعجزَهم ، وأقبل عبد الله بن جحش بالعِير والأسيرين حتى قدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

فلما قدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، فوقف العِير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الأدم : الجلد .

سُقِط فى أيدى القوم وظنوا أنهم هلكوا ، وعنَّفهم إخوانهم المسلمون فيما صنعوا . وقالت قريش : قد استحلَّ محمدٌ وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ! فقال من يردُّ عليهم من المسلمين ممّن كان بمكة : إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان .

فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وإخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ) . أى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدُّوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله مِن قتل مَن قتلتم منهم (وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ) أى قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه حتى يردُّوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل (وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دينكم إنِ اسْتَطَاعُوا) . أى ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين .

فلما نزل القرآن بهذا من الأمر ، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَق[1] ، قَبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير

---

(١) الشفق : الخوف والحذر .

والأسيرين ، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم ابن كيسان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نُفديكموهما حتى يَقدَم صاحبانا — يعنى سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزْوان — فإنا نخشاكم عليهما ؛ فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم . فقدم سعد وعتبة ، فأفداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم .

فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسُنَ إسلامه ، وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بئر مَعُونة شهيدا . وأما عثمان ابن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرا .

صرف القبلة إلى الكعبة

ويقال : صُرفت القبلة فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من مَقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

غزوة بدر الكبرى

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلاً من الشام فى عِيرٍ لقريش عظيمة ، فيها أموال لقريش ، وتجارةٌ من تجاراتهم ، وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون ، منهم مَخرمة بن نوفل ، وعمرو بن العاص . فندب المسلمين إليهم وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنْفِلكموها . فانتدب الناسُ ، فخفّ بعضُهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا .

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان ، تخوُّفا على أمر الناس ، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان : إن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعِيرك ! فحذر عن ذلك ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغِفارى فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرَض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة .

وقد رأت عاتكة بنت عبد المطّلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها ، فبعثَتْ إلى أخيها العباس بن عبد المطّلب فقالت له : يا أخى ، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى ، وتخوّفت أن يدخُل على قومك منها شرٌّ ومصيبة ، فاكتمْ عنى ما أحدّثك به . فقال لها :

وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبلَ على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يالغُدُرِ لِمَصارعكم فى ثلاث! فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجدَ والناس يتبعونه، فبينما هم حوْله مَثَل به بعيره[1] على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يالغُدُر لمصارعكم فى ثلاث! ثم مَثَل به بعيره على رأس قبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلتْ تهوى، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّت[2] فما بقى بيتٌ من بيوت مكة ولا دارٌ إلا دخلتها منها فِلقة!

قال العباس: والله إنّ هذه لرؤيا! وأنتِ فاكتميها ولا تذكريها لأحد.

ثم خرج العباس فلقى الوليد عتبة بن ربيعة، وكان له صديقا، فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، ففشا الحديث بمكة حتّى تحدثتْ به قريشٌ فى أنديتها.

قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت، وأبو جهل بن هشام فى رهط من قريش قعودٍ يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآنى أبو جهل قال: يا أبا الفضل، إذا فرغتَ من طوافك فأقبل إلينا. فلما فرغت أقبلتُ حتى جلست معهم فقال لى أبو جهل: يا بنى عبد المطلب، متى حَدَثت فيكم هذه النَّبية؟ قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التى رأت

---

(١) مثل به: قام.

(٢) ارفضت: تفرقت وتفتت.

عاتكة . فقلت : وما رأت ؟ قال : يابنى عبد المطّلب ، أما رضيتم أن أن يتنبّأ رجالكم حتى تتنبّأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال : انفروا فى ثلاث . فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقًّا ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شىء نكتبْ عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيتٍ فى العرب .

قال العباس : فوالله ما كان منى إليه كبير ، إلا أنى جحدت ذلك ، وأنكرت أن تكون رأت شيئا . ثم تفرقنا ، فلما أمسيت لم تبق امرأةٌ من بنى عبد المطّلب إلا أتتنى فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غِيَرٌ[1] لشىء مما سمعت ! قلت : قد والله فعلت ، ما كان منى إليه من كبير ، وايمُ الله لأتعرضنَّ له ، فإن عاد لأكفينَّكنه .

فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مُغضَب أُرَى أنّى قد فاتنى منه أمرٌ أحبُّ أن أدركه منه . فدخلت المسجد فرأيته ، فوالله إنّى لأمشى نحوه أتعرَّضُه ليعود لبعض ما قال فأقَعَ به — وكان رجلاً خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديدَ النظر — إذ خرجَ نحو باب المسجد يشتدّ ، فقلت فى نفسى : ما له لعنَه الله ، أكُلُّ هذا فَرَقٌ منّى أن أشاتمه ! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع : صوت ضمضم بن

---

(١) الغير : الغيرة .

عمرو الغِفارى وهو يصرُخ ببطن الوادى واقفا على بعيره ، قد جدّع بعيره[1] وحوّل رحله ، وشق قميصه ، وهو يقول : يا معشر قريش : اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرَض لها محمدٌ فى أصحابه ، لا أرى أن تُدركوها ! الغوث الغوث !

فشغلنى عنه ، وشغله عنى ما جاء من الأمر .

فتجهز الناس سراعا وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى[2] . كلا والله ليعلمن غير ذلك ! فكانوا بين رجلين : إما خارج وإما باعث مكانه رجلا . وأوعبت[3] قريش ، فلم يتخلَّف من أشرافها أحد ، إلا أنَّ أبا لهبٍ بن عبد المطلب تخلَّف وبعث مكانَه العاصىَ بن هشام بن المغيرة ، وكان قد لاط له[4] بأربعة آلاف درهم كانت له عليه ، أفلس بها ، فاستأجره بها على أن يجزئ عنه .

وأن أمية بن خلف كان أجمعَ القعودَ ، وكان شيخًا جليلاً جسيما ثقيلا ، فأتاه عقبة بن أبى مُعيطٍ ، وهو جالسٌ فى المسجد بين ظهرانَى قومه ، بمجمرة يحملها فيها نار و مجمر[6] حتى وضعَها بين يديه ثم قال :

---

(١) جدعه : قطع أنفه .

(٢) هو عمرو بن الحضرمى الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش . انظر ما سبق فى صفحة ١٩٠ .

(٤) أوعبت : خرجت كلها للغزو .

(٥) لاط : احتبس وامتسك . (٦) المجمر : العود يتبخر به .

يا أباعلى ، استجمر ، فإنما أنت من النساء . قال . قبحك الله وقبح ماجئت به ! ثم تجهز فخرج مع الناس .

ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا المسير ذكروا ما كان بينهم وبين بنى بكر بن عبد مناة من الحرب فقالوا : إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا . فكاد ذلك يثنيهم ، فتبدَّى لهم إبليس فى صورة سُراقة بن مالك بن جُعشُم المدلجى فقال لهم : أنا جارٌ لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه . فخرجوا سراعا .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليال مضت من شهر رمضان ، فى أصحابه ، واستعمل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس ثم ردَّ أبا لُبابة من الروحاء واستعمله على المدينة . ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، وكان أبيض ، وكان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان ، إحداهما مع على بن أبى طالب ، يقال لها العقاب والأخرى مع بعض الأنصار .

وكانت إبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سبعين فاعتقبوها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيرا . وكان حمزة بن عبد المطَّلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتقبون بعيرا . وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا .

فسلك طريقَه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ، ثم على العقيق ، ثم على ذى الحليفة ، ثم على أولات الجيش . ثم مرّ على تُرْبان ثم على مَلَل ثم غَميس الحمَام من مَرَيَن ، ثم على صُخَيرات اليمـام ، ثم على السيّالة ، ثم على فجّ الرَّوحاء ، ثم على شَنُوكة ، حتّى إذا كان بعِرق الظبيةِ لقُوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبرا ، فقال له الناس : سلِّمْ على رسول الله . قال : أوَفيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم . فسلمَ عليه . ثم قال : إن كنت رسول الله فأخبرنى عما فى بطن ناقتى هذه . قال له سلمة بن سلامة بن وقْش : لا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلْ إلىّ فأنا أخبرك عن ذلك ، نزوتَ عليها ، ففى بطنها منك سَخلة[1] . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مه ، أفحشتَ على الرجل ! ثم أعرض عن سلمة .

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بسجسج ، وهى بئر الروحاء ، ثم ارتحل منها حتى إذا كان بالمنصرف ترك طريقَ مكّة بيسار ، وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدرا ، فسلك فى ناحية منها حتى جزع واديا يقال له رُحقان ، بين النازية وبين مضيق الصفراء . ثم على المضيق ، ثم انصبّ منه حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسبسَ بن الجهنىّ وعدىّ بن أبى الزَّغباء الجهنى إلى بدر يتحسَّسان له الأخبار عن

(١) السخلة : الصغيرة من الضأن ، استعارها لولد الناقة .

أبي سفيان بن حرب وغيره . ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قدّمهما .

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عِيرهم ، فاستشار الناسَ وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصدّيق فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله ، امضِ لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهَبْ أنتَ وربُّك فقاتِلَا إنّا هاهنا قاعِدُون) . ولكن اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحقّ لو سرتَ بنا إلى بَرك الغِماد[1] لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغه . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له به .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا علىّ أيها الناس . وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنّهم عُدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله ، إنّا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمّتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألّا تكون الأنصار ترى عليها نُصرةً إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه ، وأنْ ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك

(١) برك الغماد : موضع باليمن .

تريدنا يا رسول الله؟ قال: أَجَلْ . قال : فقد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحقّ ، وأعطيناك على ذلك عُهودَنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامض يا رسولَ الله لما أردتَ فنحن معك ، فوالذى بعثَك بالحقّ ، لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضتَه لخضناه معك ، ما تخلَّف منا رجلٌ واحد . وما نكره أن تَلقَى بنا عدوّنا غدا ، إنّا لصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعلّ الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك ، فسِرْ بنا على بركة الله .

فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ونشّطه ذلك ، ثم قال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين [1] ، والله لكأنى الآنَ أنظر إلى مصارع القوم !

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قريباً من بدر ، فركب هو ورجل من أصحابه [2] حتى وقف على شيخٍ من العرب فسأله عن قريش ، وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أخبرتنا أخبرناك . قال : أذاك بذاك ؟ قال : نعم . قال الشيخ : فإنه بلغَنى أن محمداً

---

(١) الطائفة الأولى طائفة عير قريش ذات التجارة العظيمة ، وفيها أبو سفيان وأبو عمرو بن العاص ؛ والأخرى الطائفة التى استنفرها أبو جهل ، وكانوا ذوى شوكة وعدد .

(٢) هو أبو بكر الصديق .

وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدقَ الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا . للمكان الذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى أخبرنى صدقنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذى فيه قريش . فلمَّا فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن من ماء ! ثم انصرف عنه . يقول الشيخ : ما مِن ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، فى نفر من أصحابه ، إلى ماء بدر يلتمسون الخبرَ عليه ، فأصابوا راوية[1] لقريش فيها أسلَم غلام بنى الحجاج ، وعَريض أبو يسار غلام بنى العاص ابن سعيد ، فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلّى ، فقالا : نحن سُقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم خبرَهما ورجَوا أن يكونا لأبى سفيان ، فضربوهما ، فلما أذلقوهما[2] قالا : نحن لأبى سفيان . فتركوهما ، وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدتيه ، ثم سلّم وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ؟ صدقَا والله إنّهما لِقريش ! أخبرانى عن قريش ؟ قالا : هم والله وراء هذا الكثيب الذى ترَى بالعُدوة القُصوى . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم القوم ؟ قالا : لا ندرى . قال : كم

---

(١) الراوية : البعير يستق عليه الماء .

(٢) أذلقوهما : بالغوا فى ضربهما حتى أجهدوهما .

ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوما تسعا ويوما عشرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم فيما بين التسعمائه والألف . ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البَخْترىّ بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطُعيمة بن عدى بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزَمعة بن الأسود . وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ودّ . فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال : هذه مكة قد ألقَتْ إليكم أفلاذَ كبدها[1] !

وكان بَسَبس بن عمرو ، وعدى بن أبي الزَّغْباء قد مضيا حتى نزلا بدرا ، فاناخا إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذا شناًّ[2] لهما يستقيان فيه ومَجدىّ بن عمرو الجهنىّ على الماء ، فسمع عدىٌّ وبَسبسٌ جاريتين من جوارى الحاضر[3] وهما يتلازمان[4] على الماء ، والملزومة[5] تقول لصاحبتها : إنّما تأتى العير غداً أو بعد غدٍ فأعملُ لهم ثم أقضيك الذى لك . قال مجدىّ : صدقتِ . ثم خلّص بينهما . وسمع ذلك عدىٌّ وبسبس فجلسا على بعيريهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبراه بما سمعا .

---

(١) جمع فلذة ، وهى القطعة . (٢) الشن : الزق البالى .

(٣) الحاضر : القوم النزول على الماء . (٤) التلازم : أن يتعلق الغريم بغريمه .

(٥) الملزومة : المدينة .

وأقبل أبو سفيانَ بن حرب حتى تقدم العير حذراً حتى ورد الماء، فقال لمجدىّ بن عمرو : هل أحسست أحداً ؟ قال : ما رأيت أحداً أنكرُه ، إلاّ أنّى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التلّ، ثم استقيا فى شنٍّ لهما ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مُناخَهما فأخذ من أبعار بعيريهما ففتَّه فإذا فيه النوى . فقال : هذه والله علائف يثرب . فرجع إلى أصحابه سريعا فضربَ وجهَ عِيره عن الطريق ، فساحَلَ بها، وترك بدراً بيسار ، وانطلق حتى أسرع .

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عِيرَه أرسل إلى قريش : إنكم إنَّما خرجتم لتمنعوا عِيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجَّاها الله فارجعوا . فقال أبو جهل بن هشام : والله لانرجع حتى نرِدَ بدرا — وكان بدرٌ موسماً من مواسم العرب ، يجتمع لهم به سوقٌ كلَّ عام — فنقيمَ عليه ثلاثا ، فننحر الجزُر ونُطعم الطعام ، ونُسقَى الخمر وتعزف علينا القيان [1] ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ، فامضُوا .

ومضت قريشٌ حتَّى نزلوا بالعُدوة القصوى من الوادى ، وبعث الله السماء ، وكان الوادى دهساً [2] ، فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم عن السير ، وأصاب قريشاً

---

(١) القيان : الجوارى المغنيات .

(٢) الدهس : اللين لم يبلغ أن يكون رملا .

منها مالم يقدروا على أن يرتحلوا معه ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادرهم إلى الماء : حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به .

قال الحباب بن المنذر : يارسول الله ، أرأيتَ هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يارسول الله ، فإنّ هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتىَ أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغوّر[1] ما وراءه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرتَ بالرأى . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس ، فسار حتَّى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقُلب فغُوّرت ، وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه ، فملىء ماء ، ثمّ قذفوا فيه الآنية .

وقال سعد بن معاذ : يا نبى الله ، ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ، ونُعِدُّ عندك ركائبَك ، ثم نلقى عدوَّنا ، فإن أعزَّنا الله وأظهرنا على عدوِّنا ، كان ذلك ما أحببنا . وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقتَ بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلَّفَ عنك أقوامٌ يا نبىّ الله ِ ما نحن بأشد لك حبًّا منهم ، ولو ظنُّوا أنَّك تلقى حرباً ما تخلَّفوا عنك يمنعكُ الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

(١) التغوير : الدفن والطمس .

فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له بخير ، ثم بنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش فكان فيه .

وقد ارتحلت قريش حين أصبحت ، فأقبلت ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تَصوَّبُ[1] من العَقَنْقَل — وهو الكثيب الذى جاءوا منه إلى الوادى — قال : اللهمّ هذه قريشٌ قد أقبلَتْ بخُيلائها[2] وفخرها ، تحادُّك وتكذّب رسولك . اللهمَّ فنصرَك الذى وعدتنى ، اللهم أحِنْهُم الغداة[3] !

فلما نزل الناس أقبل نفرٌ من قريش حتّى وردوا حوضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم حكيم بن حزام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوهم . فما شِرب منه رجلٌ يومئذٍ إلا . قُتل إلاّ ما كان من حكيم بن حزام ، فإنه لم يقتَل ، ثم أسلمَ بعد ذلك فحَسُنَ إسلامهُ ، فكان إذا اجتهد فى يمينه قال : لا والذى نجّانى من يوم بدر !

ولما اطمأنّ القوم بعثوا عُمَير بن وهب الجمحى فقالوا : احزُر[4] لنا أصحابَ محمد . فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال : ثلثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظرَ

---

(١) أى ينحدر .

(٢) الخيلاء : الكبر والإعجاب .

(٣) أحنهم : أهلكهم . حان : هلك .

(٤) احزر : أى قدر بالحدس والظن .

ألقوم كمين أو مدد؟ فضرب فى الوادى حتى أبعد، فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما وجدتُ شيئا، ولكنى قد رأيت يا معشر قريشٍ البلايا[1] تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموتَ الناقع[2]، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجلٌ منهم حتى يقتُلَ رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادَهم فما خيرُ العيش بعد ذلك؛ فرَوْا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حِزَام ذلك مشى فى الناس، فأتى عتبةَ بنَ ربيعةَ فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى ألا تزالَ تذكرُ فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى[3] قال: قد فعلتُ، أنت علىَّ بذلك، إنما هو حليفى فعلىَّ عقلُه[4] وما أصيب من ماله، فأتِ ابن الحنظلية[5] فإنى لا أخشى أن يشجُرَ أمرَ الناسِ[6] غيره. ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبا فقال: يا معشر قريش، إنكم والله

---

(١) البلايا: جمع بلية، وهى الناقة أو الدابة تربط إلى قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت.

(٢) النواضح: الإبل يستقى عليها. الناقع: الثابت، البالغ فى الإفناء.

(٣) انظر ما مضى فى سرية عبد الله بن جحش ص ١٩٠.

(٤) العقل: الدية.

(٥) هو أبو جهل بن هشام. أمه من حنظلة بن مالك.

(٦) أى يخالف بينهم.

ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجلٍ يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلُّوا بين محمد وسائر العرب . فإن أصابوه فذاك الذى أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرَّضوا منه ما تريدون .

قال حكيم : فانطلقت حتى جئت أبا جهلٍ فوجدته قد نثل[1] درعاً له من جرابها فهو يَهْنِئُها[2] ، فقلت له : يا أبا الحكم ، إن عتبةَ أرسلنى إليك بكذا وكذا ، للذى قال . فقال : انتفخ واللهِ سَحْره[3] حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بِعتبةَ ما قال ، ولكنَّه قد رأى أنَّ محمداً وأصحابه أكَلَةُ جزور[4] وفيهم ابنه ، فقد تخوَّفكم عليه . ثم بعثَ إلى عامر بن الحضرمى فقال : هذا حليفُك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقُم فانشُدْ خُفْرتك[5] ومقتل أخيك .

---

(١) نثل : أخرج .

(٢) يهنئها : يطليها بعكر الزيت . ويروى « يهيئها » .

(٣) السحر : الرئة . وهذا كناية عن الجبن .

(٤) أى قليلو العدد . وأكلة الجزور نحو المائة .

(٥) أى أطلب من قريش الوفاء بخفرتهم لك أى عهدهم ، فقد كان جارا لهم وحليفا .

فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف ثم صرخ : واعَمْراه واعَمْراه[1] !
فحميت الحرب ، وحَقِب أمر الناس[2] ، واستوسقوا[3] على ما هم
عليه من الشر ، وأُفسِد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة .

وقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى — وكان رجلا
شرساً سيئ الخلق — فقال : أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم أو
لأهدمنّه أو لأموتنّ دونه ! فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب،
فلما التقيا ضربه حمزةُ فأطنّ قدَمه[4] بنصف ساقه ، وهو دون
الحوض ، فوقع على ظهره تشخُب[5] رجلُه دماً نحو أصحابه ثم، حبا إلى
الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن يبرّ بيمينه وأتْبعه حمزة فضربه حتى
قتله فى الحوض .

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة ، بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن
عتبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من
الأنصار ثلاثة ، وهم عوف ومعوّذ ابنا الحارث ، ورجل آخر يقال
هو عبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار
قالوا : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يامحمد ، أخرِجْ إلينا

---

(١) يندب أخاه عمرو بن الحضرمى .
(٢) حقب : اشتد .
(٣) استوسقوا : اجتمعوا .
(٤) أطنها : أطارها .
(٥) تشخب : تسيل بصوت .

أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عبيدة ابن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا على . فلما قاموا ودَنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ قال عبيدة : عبيدة . وقال حمزة : حمزة . وقال علىٌّ : على . قالوا: نعم أكْفاء كرام . فبارز عبيدةُ ــ وكان أسنَّ القوم ــ عتبةَ بن ربيعة، وبارز حمزةُ شيبةبن ربيعة ، وبارز على الوليدَ بن َعتبة. فأما حمزة فلم يمهل شيبةَ أن قتله ، وأما علىٌّ فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبت صاحبه[1] ، وكرَّ حمزةُ وعلىٌّ بأسيافهما على عتبةَ فذفَّفا عليه[2] واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه .

ثم تزاحف الناس ودنا بعضُهم من بعض ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ألَّا يَحمِلوا حتَّى يأمرَهم ، وقال : إن اكتنفكم القومُ فانضحوهم[3] عنكم بالنبل . ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش معه أبو بكرٍ الصديق .

فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبعَ عشرةَ من رمضان .

ثم عدَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه أبو بكر الصديق ، ليس معه غيره ،

---

(١) أثبته : جرحه جراحة لم يقم معها .

(٢) ذفف عليه : أجهز وأسرع .

(٣) انضحوهم : ارموهم .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربّه ما وعدَه من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تَهلِكْ هذه العصابة اليوم لا تعبد ! وأبو بكر يقول : يا نبى الله ، بعضَ مناشدتك ربّك ، فإنّ الله منجز لك ما وعدك .

وقد خفق رسول الله خفقةً[1] وهو فى العريش ، ثمّ انتبه فقال : أبشرْ يا أبا بكر ، أتاك نصرُ الله . هذا جبريلُ آخذٌ بعنان فرسٍ يقوده ، على ثناياه النَّقْع[2] .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فحرّضهم وقال : والذى نفسُ محمد بيدهِ ، لا يقاتِلهم اليومَ رجلٌ فيقتَل صابرا محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلّا أدخله الله الجنّة . فقال عُمير بن الحُمام ، أخو بنى سلمة ، وفى يده تمَرَاتٌ يأكلهنّ : بخ بخ[3] ، أفما بينى وبين أن أدخل الجنّة إلّا أن يقتلنى هؤلاء ! ثم قذَف التمراتِ من يده وأخذ سيفه ، فقاتَل القوم حتى قُتلِ .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حَفنةً من الحصباء فاستقبلَ قريشاً بها ، ثم قال : شاهت الوجوه ! ثم نفحهم بها ، وأمر

---

(١) أى نام نومة يسيرة .

(٢) النقع : الغبار .

(٣) كلمة تقال عند الإعجاب .

أصحابَه فقال : شُدُّوا ! فكانت الهزيمة . فقَتل الله من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم .

عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يومئذ : إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرِجوا كَرهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشمٍ فلا يقتلْه ، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقي العباس ابن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مُستكرها . فقال أبو حذيفة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العبّاس ! والله لئن لقيتُه لألحُمَنَّه السيف[1] ! فبلَغتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص ، أيَضرِب وجه عمٍّ رسول الله بالسيف ؟ فقال عُمر : يا رسول الله دعْني فلأضربْ عنقَه بالسيف فوالله لقد نافقَ . فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قلتُ يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفِّرها عنّي الشهادة ! فقتل يوم اليمامة شهيدا .

ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى بدرٍ من الأيام ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عَدداً ومددا ، لا يَضربون .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوّه أمر بأبي جهل

---

(١) أي لأمكنن منه السيف . ويروى : « لألجمنه » أي لأضربنه به في وجهه .

أن يلتمس فى القتلى . قال ابن مسعود : احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، هذا رأس عدوّ الله أبى جهل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آللهِ[1] الذى لا إله غيره ؟ — قال : وكان يمينَ رسول الله صلى الله عليه وسلم — قلت : نعم والله الذى لا إله غيره . ثم ألقيت رأسه بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله .

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُطرَحوا فى القليب طُرحوا ، إلَّا ما كان من أميّة بن خلف ، فإنه انتفخ فى درعه فملأها ، فذهبوا ليحرّكوه فتزايَلَ[2] لحمه فأقرُّوه ، وألقوا عليه ما غيّبه من التراب والحجارة . فلما ألقاهم فى القليب وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعه أصحابه من جوف الليل وهو يقول : يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل — فعدّد من كان منهم فى القليب — هل وجدتم ما وعد ربُّكم حقًّا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربِّى حقا ؟ فقال المسلمون : يارسول الله ، أتنادِى قوماً قد جَيَّفوا ؟ قال : ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى !

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بما فى العسكر ، مما جَمع الناس ، فُجمع ، فاختلف المسلمون فيه ، فقال من جمعه : هو لنا . وقال

(١) أى والله . (٢) أى تساقط .

الذين كانوا يقاتلون العدوّ ويطلبونه : والله لولا نحن ما أصبتموه ، لَنحنُ شغَلْنا عنكم القوم حتّى أصَبتم ما أصبتم . وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافة أن يُخالفَ إليه العدوّ : والله ما أنتم بأحقَّ منا . والله لقد رأينا أن نقتُل العدوّ إذْ منَحنا الله تعالى أكتافَه ، ولقد رأينا أن نأخذ المتاعَ حين لم يكن دُونه مَن يمنعه ، ولكنّا خِفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كَرَّةَ العدوّ فقمنا دونه ، فما أنتم بأحقَّ به منّا .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية بما فتح الله عزّ وجلّ على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة ، ثم أقبل قافلا إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين ، وفيهم عُقبة بن أبى مُعَيط والنضر بن الحارث . واحتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه النفَل الذى أُصيب من المشركين ، وجعل على النَّفَل عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف .

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا خرج من مَضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية ، فقسم هنالك النفل الذى أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء .

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين ، فقال لهم

سلمة بن سلامة : ما الذى تهنئونا به ؟ فوالله إن لقينا إلّا عجائز صُلْعًا كالإبل المعقَّلة فنحرناها ! فتبسَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أى ابنَ أخى ، أولئك الملأ !

حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفراء قُتِـل النضر ابن الحارث ، قتله على بن أبى طالب . ثم خرج حتى إذا كان بعِـرق الظَّبية قتل عُقبة بن أبى معيط ، فقال عُقبة حين أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقتله : فمن للصِّبية يا محمد ؟ قال : النار . فقتله عاصم بن ثابت ابن أبى الأقلح الأنصارى . ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم ، وحين أقبل بالأسارى فرّقهم بين أصحابه وقال : استوصوا بالأسارى خيرا .

وكان أوّل من قدم مكة بمصاب قريش الحَيسُمان بن عبد الله .

وناحت قريش على قتلاهم ثم قالوا : لا تفعلوا فيبلغَ محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنوا بهم [١] لا يأرب [٢] عليكم محمد وأصحابه فى الفداء . وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده : زمعة بن الأسود ، وعقيل بن الأسود ، والحارث ابن زمعة ، وكان يحبّ أن يَبكىَ على بنيه ، فبينما هو كذلك إذْ سمع

---

(١) أى تؤخروا فداءهم .

(٢) يأرب : يشتد .

نائحة من الليل ، فقال لغلام له وقد ذهب بصره : انظرْ هل أُحِلَّ النَّحب[1] ؟ هل بكت قريشٌ على قتلاها ؟ لعلّى أبكى على أبى حكيمة — يعنى زَمَعة — فإنّ جوفى قد احترق ! فلما رجَع إليه الغلام قال : إنما هى امرأةٌ تبكى على بعيرٍ لها أضلّته . فذلك حين يقول الأسود :

أتبكى أن يضلَّ لها بعير ويمنعها من النوم السُّهودُ

فلا تبكى على بَكْرٍ ولكنْ على بدر تقاصرت الجدود[2]

على بدرٍ سراة بنى هُصَيص ومخزوم ورهط أبى الوليد

وبكّى إن بكيتِ على عَقيلٍ وبكّى حارثًا أسدَ الأسود

وبكّيهم ولا تَسَمِى جميعا وما لأبى حكيمة من نديد[3]

ثم بعثت قريشٌ فى فداء الأسارى . فقدِم مِكْرز بن حفص فى فداء سهيل بن عمرو ، فلما قاولهم فيه مكرز وانتهى إلى رضاهم قالوا : هات الذى لنا . قال : اجعلوا رجلى مكان رجله وخلُّوا سبيلَه حتى يبعث إليكم بفدائه . فخلَّوا سبيل سهيل ، وحبسوا مكرزا مكانه عندهم .

وكان عمر بن الخطاب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، دعنى أنزعْ ثنيّتَىْ سهيل بن عمرو ، ويَدْلَع[4] لسانُه

---

(١) النحب : النحيب وهو رفع الصوت بالبكاء .

(٢) البكر : الفتى من الإبل .

(٣) لا تسمى : لا تسأمى . النديد : المثيل .

(٤) يدلع : يخرج .

فلا يقوم عليك خطيباً فى موطنٍ أبدا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أمثِّل به فيمثِّل الله بى وإن كنت نبيًّا .

وقد كان فى الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى . ختَنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته زينب، وكان الإسلام فرَّقَ بين زينب حين أسلمت وبين أبى العاص بن الربيع ، إلاَّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدر أن يفرِّق بينهما ، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه ، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سارت قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع ، فأصيب فى الأسارى يومَ بدر ، فكان بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما بعث أهل مكة فى فداء أسرائهم ، بعثت زينب بنتُ رسول صلى الله عليه وسلم فى فداء أبى العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها . فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رقَّ لها رقَّة شديدة ، وقال : إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها مالها فافعلوا . فقالوا : نعمْ يارسول الله . فأطلقوه وردوا عليها الذى لها .

وأقام أبو العاص بمكة ، وأقامت زينب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، حتى فرَّق بينهما الإسلام ، حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجرا إلى الشام ، وكان رجلًا مأمونا ، بمالٍ له وأموال

لرجالٍ من قريش ، أبضَعوها معه ، فلمّا فرغ من تجارته وأقبل قافلاً لقيته سريّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابوا ما معه ، وأعجزهم هارباً . فلما قدمت السريَّة بما أصابوا من ماله ، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستجار بها فأجارته ، وجاء فى طلب ماله ، فلمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصُّبح فكبّر وكبّر الناس معه ، صرخت زينب من صُفـّة النساء[1] : أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع . فلمّا سلَّم رسول الله صلى الله عليه وسلَّم من الصلاة أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعتُ ؟ قالوا : نعم . قال : أما والذى نفس محمد بيده ما علمتُ بشىء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على ابنته فقال : أى بُنَيَّة ، أكرمى مثواه ، ولا يَخْلُصَنَّ إليك ، فإنك لا تَحِلِّين له .

عن عبد الله بن أبى بكر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى السريّة الذين أصابوا مال أبى العاص فقال لهم : إن هذا الرجل منّا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تُحسِنوا وتردُّوا عليه الذى له فإنّا نحبُّ ذلك ، وإن أبَيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحقُّ به . فقالوا : يارسول الله ، بل نردهُّ عليه . فردُّوه عليه حتى إن

---

(١) الصفة : السقيفة .

الرجل ليأتى بالدَّلو، ويأتى الرجُل بالشَّنَّة[1]. وبالإداوة[2]، حتى إنَّ أحدهم ليأتى بالشِّظاظ[3]، حتى ردُّوا عليه ماله بأسْره لا يفقِد منه شيئا. ثم احتَمَل إلى مكَّة فأدَّى إلى كلِّ ذى مال من قريشٍ مالَه، ومن كان أبضَعَ معه. ثم قال: يا معشر قريش، هل بقى لأحد منكم عندى مالٌ لم يأخذْه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفيًّا كريما. قال: فأنا أشهد ألَّا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله! والله مامنَعنى من الإسلام عِنده إلا تخوُّفُ أن تظنُّوا أنِّى إنما أردتُ أن آكلَ أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمت.

ثم خرج حتى قدم على رسول الله.

وكان ممن سمِّى لنا من الأسارى ممن مُنَّ عليه بغير فداء أبو العاص ابن الربيع، والمطلب بن حَنْطَب، وصَيفى بن أبى رفاعة، وأبو عَزَّة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أُهَيب بن حُذافة بن جُمَح. كان محتاجاً ذا بنات فكلَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله، لقد عرفتَ مالى من مال، وإنى لذو حاجة وذو عيال، فامْنُنْ علَىَّ. فمنَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عليه ألا يظاهرَ عليه أحدا، فقال أبو عزّة فى ذلك يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكر فضلَه فى قومه:

---

(1) الشنة: السقاء البالى. (2) الإداوة: وعاء من الجلد صغير.

(3) الشظاظ: خشبة تدخل فى عروتى الجوالق.

مَن مُبلغ عنّى الرسول محمدا ... بأنك حقٌّ والمَليك حميد

وأنت امرُؤٌ تدعو إلى الحقِّ والهدى ... عليك من الله العظيم شهود

وأنت امرؤ بوِّئت فينا مباءة ... لها درجات سَهلة وصعود[1]

فإنك مَن حاربته لمحارَبٌ ... شقيٌّ ومَن سالمتَه لَسعيدُ

وكان فداء المشركين يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف درهم، إلَّا من لا شيء له، فمَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه.

وجميع من شهد بدراً من المهاجرين ومن ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ثلاثة وثمانون رجلا. وجميع من شهد بدراً من الأوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ضرب له بسهمه وأجره واحد وستون رجلا. وجميع من شهد بدرا من الخزرج مائة وسبعون رجلاً.

فجميع من شهد بدراً من المسلمين من المهاجرين والأنصار، من شهدها منهم ومن ضُرِب له بسهمه وأجره ثلثمائة رجل وأربعة عشر رجلا.

---

(1) أى أنزلت فينا منزلة عظيمة.

غزوة بنى سُلَيم بالـكُدْر

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقم بها إلاَّ سبعَ ليال حتَّى غزا بنفسه، يريد بنى سُلَيم[1] فبلغ ماءً من مياههم يقال له «الـكُدْر» فأقام عليه ثلاث ليالٍ ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا ، فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وأفدى فى إقامته تلك ُجلّ الأسارى من قريش .

---

(١) واستعمل على المدينة حينئذ سباع بن عرفطة الغفارى ، وقيل : ابن أم مكتوم .

aabbcc
Lemal.

غزوة السَّويق

ثم غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السَّويق[1] فى ذي الحِجة ، وولى تلك الحجّة المشركون من تلك السَّنَة ، فكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة ورجع فلُّ[2] قريش من بدر ، نذر ألا يمس رأسه ماء من جَنابة[3] حتى يغزوَ محمدا صلى الله عليه وسلم. فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبرَّ بيمينه ، فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبلٍ يقال له « ثَيْب » من المدينة على بريد أو نحوه ، ثم خرجَ من الليل حتى أتى بنى النَّضِير تحت اللَّيل ، فأتى حُيَيَّ بن أخطب فضربَ عليه بابهَ ، فأبَى أن يفتحَ عليه بابه وخافَه ، فانصرف إلى سلّام بن مِشْكم وكان سيّد بنى النضير فى زمانه ذلك وصاحب كنزهم[4] فاستأذنَ عليه فأذِن له فقراه[5] وسقاه ، وبَطَن له[6] من خبر الناس . ثم خرج فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه، فبعث رجالًا من قريشٍ إلى المدينة ، فأتو

---

(١) سميت بذلك لأن أكثر ماطرح القوم من أزوادهم السويق ، فهجم المسلمون على كثير منه . والسويق : مطحون الحنطة أو الشعير ، ويؤكل ممزوجا باللبن والعسل والسمن ، أو بالماء.

(٢) الفل : المنهزمون.

(٣) كان الغسل من الجنابة معمولا به فى الجاهلية ، كالحج والنكاح .

(٤) يراد بالكنز ما كانوا يجمعونه من مال بينهم ، لنوائبهم وما يعرض له .

(٥) قراه : أطعمه القرى ، وهو طعام الضيف .

(٦) بطن له : أعلمه سرهم .

ناحيةً منها يقال لها العُرَيض ، فحرَّقوا فى أصوار[1] من نخلٍ بها ، ووجدوا بها رجلًا من الأنصار وحليفاً له فى حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين ، ونَذِر[2] بهم الناس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبهم ، واستعمل على المدينة بشيرَ بن عبد المنذر ، حتى بلغ « قَرقرة الكُدْر » ، ثم انصرف راجعا وقد فاته أبو سفيان وأصحابه ، وقد رأوا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها فى الحَرْث ، يتخففون منها للنجاء ، فقال المسلمون حين رَجع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، أتطمع لنا أن تكون غزوةً ؟ قال : نعم .

---

(١) جمع صور ، بالفتح ، وهو جماعة النخل .

(٢) نذروا بهم : علموا بهم .

غزوة ذى أَمَر

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذى الحجة أو قريبا منها ، ثم غزا نجدا ، يريد غطفان ، وهى غزوة ذى أَمَر[1] .

فأقام بنجد صفرا كلَّه أو قريباً من ذلك ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا ، فلبث بها شهر ربيع الأول كلّه ، أو إلاّ قليلا منه .

غزوة الفُرُع من بَحران

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قريشا[2] حتى بلغ بَحران ، معدِناً بالحجاز من ناحية الفُرُع ، فأقام بها شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا .

---

(١) واستعمل على المدينة عثمان بن عفان .

(٢) واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

أمر بنى قَينُقاع

كان من أمر بنى قَينُقاع[1] أن امرأةً من العرب قدِمت بجَلَبٍ[2] لها فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها فصاحت . فوثَب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشرُّ بينهم وبين بنى قينقاع .

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، فقام إليه عبد الله بن أبىّ بن سلول حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد ، أحسنْ فى موالىَّ ! فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد ، أحسِنْ فى موالىَّ ! فأعرض عنه ، فأدخل يده فى جيب دِرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أرسلْنى !

---

(١) بفتح القاف وتثليث النون ، شعب من اليهود .

(٢) الجلب ، بالتحريك : ما يجلب للأسواق ليباع فيها .

وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأو لوجهه ظُللا[1]، ثم قال: ويحك أرسِلْنى. قال: لا، والله، لا أرسلك حتى تُحسنَ فى موالىَّ: أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود[2] تحصدهم فى غداة واحدة، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر. فقال رسول صلى الله عليه وسلم: هم لك.

ومشى عُبادةُ بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان لهم من حِلفه مثلُ الذى لهم من عبد الله بن أبى، فخلعهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتبرأ إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حِلفهم، وقال: يا رسول الله، أتولَّى الله ورسولَه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وأبرأ من حِلف هؤلاء الكفَّار وولايتهم.

ففيه وفى عبد الله بن أبى نزلت هذه القصة من المائدة: (يا أيُّها الذين آمنوا لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارَى أولياء، بعضُهم أولياء بعْضٍ، ومن يتولَّهم منكُمْ فإنَّه منهم، إنَّ اللهَ لا يهدِى القومَ الظَّالمينَ. فترَى الذينَ فى قلوبِهم مرَضٌ يسارِعونَ فِيهم يقُولُونَ نَخْشَى أنْ تُصيبنا دَائرَةٌ فعَسَى اللهُ أنْ يَأتىَ بالفَتْح أو أمْرٍ مِن عندِه فيُصبِحُوا

---

(١) جمع ظلة، وأصلها السحابة، عنى بذلك تغير الوجه إلى السواد حين يشتد الغضب.

(٢) أى العجم والعرب.

على ما أسَرُّوا في أنفسهم نادِمِينَ . ويَقُول الذين آمَنُوا أهؤلاءِ الذين أقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيمانهم) ثم القصة إلى قوله تعالى : (إنَّما وليُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُه والذين آمنوا الذين يُقيمون الصَّلاة وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهم راكعون) . وذكر لتولِّى عُبادة بن الصامت الله ورسولَه والذين آمنوا ، وتبرِّيه من بنى قينقاع وحلفهم وولايتهم : (ومَن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنُوا فإنَّ حزْبَ الله هُم الغالبون) .

سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدَة

ماء من مياه نجد .

وكان من حديثها أن قريشاً خافوا طريقهم الذين كانوا يسلكون إلى الشام ، حين كان من وقعة بدر ما كان ، فسلكوا طريق العراق فخرج منهم تجَّار فيهم أبو سفيانَ بن حرب ، ومعه فضَّة كثيرة ، وهى عُظْم تجارتهم ، واستأجروا رجلاً من بنى بكر بن وائل يقال له فُرات ابن حيان ، يدلُّهم على ذلك الطريق .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فلقيهم على ذلك الماء ، فأصاب تلك العِير وما فيها ، وأعجزه الرجالُ ، فقدِم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

غزوة أحد

لما أصيب يوم بدر من كفّار قريش أصحابُ القليب ، ورجع فَلُّهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حربٍ بِعِيره ، مشى عبد الله ابن أبي ربيعة ، وعِكرمة بن أبي جهل ، وصَفوان بن أمية ، في رجالٍ من قريش ، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلَّموا أبا سفيان بن حربٍ ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا مَعشرَ قريش ، إنّ محمداً قد وَتَركم وقتلَ خيارَكم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلَّنا ندركُ منه ثأرنا بمن أصابَ منّا . ففعلوا .

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها[1] ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظُّعُن[2] التماسَ الحفيظة ، وألّا يفرُّوا . فخرجَ أبو سفيان بن حرب ، وهو قائد الناس ، بهند بنت عتبة ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأمّ حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج صفوان بن أمية بَبرْزَة بنت مسعود الثقفية ، وخرج عمرو ابن العاص بريطةّ بنت منبه بن الحجاج .

---

(١) الأحابيش : من اجتمع إلى العرب وانضم إليهم من غيرهم .
(٢) جمع ظعينة ، وهي المرأة .

فأقبلوا حتى نزلوا بعينَين ، بجبل ببطن السَّبْخة ، من قناة على شفير الوادى ، مقابل المدينة . فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين : إنّى قد رأيت والله خيرا ، رأيت بقراً لى تذبح ، ورأيت فى ذُباب[1] سيفى ثَلْما ، ورأيت أنّى أدخلت يدى فى درعٍ حصينة[2] ، فأوّلتُها المدينة . فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدَعوهم حيث نزَلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ بنى مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ؟ وكان رأى عبد الله بن أبىّ بن سَلول مع رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى رأيه فى ذلك وألا يَخرجَ إليهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الخروج ، فقال رجالٌ من المسلمين ، ممن أكرم الله بالشهادة يوم أُحد وغيره ، ممن كان فاتَه بدر : يا رسولَ الله ، اخرجْ بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنّا جُبنّا عنهم وضعُفنا ! فقال عبد الله بن أبىّ بن سلول : يا رسول الله ، أقمْ بالمدينة لا تخرجْ إليهم ، فوالله ما خرجْنا منها إلى عدوٍّ لنا قطُّ إلّا أصابَ منا ، ولا دخلَها علينا إلا أَصَبنا منه ، فدعْهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مَحبِس ، وإن دخلوا قاتَلَهم الرجالُ فى وجههم ، ورماهم النساءُ والصِّبيان بالحجارة من فوقهم ،

---

(١) ذباب السيف : حده .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم : « أما البقر فهى ناس من أصحابى يقتلون . وأما الثلم الذى رأيت فى ذباب سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل » .

وإن رَجعوا رَجعوا خائبين كما جاءوا . فلم يزل الناسُ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين كان من أمرهم حبُّ لقاء القوم ، حتّى دخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيتهَ ، فلبِس لأمتَه[1] ، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ، وقد مات فى ذلك اليوم رجلٌ من الأنصار يقال له مالك بن عمرو ، فصلَّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج عليهم ، وقد ندم الناسُ وقالوا : استكرهنْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن لنا ذلك . فلمَّا خرج عليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسولَ الله ، استكرهناك ولم يكنْ ذلك لنا ، فإن شئت فاقعدْ صلى الله عليك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ينبغى لنبى إذا لبِس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ألفٍ من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشَّوط ، بين المدينة وأحد ، انخزل عنه عبد الله بن أبىّ بن سلول بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصانى ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس !

فرجع بمن اتّبعه من قومه من أهل النفاق والرَّيب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ، يقول : يا قوم ، أذ كّركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيّكم عندما حَضر من عدوِّهم . فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال . فلما استعصَوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله ، فسُيغنى الله عنكم نبيَّه .

(١) اللأمة : الدرع ، وقيل : السلاح .

وقال الأنصار يوم أحد : يا رسول الله ، ألا نستعين بحلفائنا من يهود ؟ فقال : لا حاجة لنا فيهم .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشِّعب من أُحد فى عُدوَة الوادى إلى الجبل ، فجعل ظهرَه وعسكره إلى أحد ، وقال لا يقاتِلن أحدٌ منكم حتى نأمرَه بالقتال ، وقد سرَّحت قريشٌ الظهرَ والكُراع[1] فى زروع كانت بالصَّمْغة[2] من قناةٍ للمسلمين ، فقال رجلٌ من الأنصار حين نَهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن القتال : أتُرعى زروعُ بنى قَيلة[3] ولمَّا نُضارب !

وتعبَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى سبعمائة رجل ، وأمَّر على الرماة عبد الله بن جُبير ، وهو معْلِمٌ يومئذ بثيابٍ بيض ، والرماة خمسون رجلا ، فقال : انضح الخيل عنَّا بالنَّبل[4] ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت علينا لا نؤتينَّ من قِبلك . وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين[5] ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، أخى بنى عبد الدار .

---

(١) الظهر : الإبل . والكراع : الخيل .

(٢) الصمغة : أرض قرب أحد .

(٣) هم الأوس والخزرج ، وقيلة أمهم .

(٤) انضحهم : ادفعهم .

(٥) ظاهر بينهما : لبس إحداهما فوق الأخرى .

وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سَمُرة بن جندب، ورافع بن خديج وهما ابنا خمسَ عشرة سنة، وكان قد ردّهما، فقيل له: يارسول الله، إن رافعاً رامٍ. فأجازه، فلما أجاز رافعا قيل له: يا رسول الله، فإن سمرة يصرع رافعاً. فأجازه. ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت والبراء بن عازب، وعمرو بن حزم، وأُسَيد بن ظُهير، ثم أجازهم يوم الخندق وهم أبناء خمسَ عشرة سنة.

وتعبأت قريش، وهم ثلاثة آلاف رجل، ومعهم مائتا فرس قد جَنَبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالدَ بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجالٌ، فأمسكه عنهم، حتّى قام إليه أبو دُجانة سِماك ابن خَرَشة فقال: وما حقُّه يا رسول الله؟ قال: أن تضربَ به العدوَّ حتى ينحنى. قال: أنا آخذُه يارسول الله بحقّه. فأعطاه إياه. وكان أبو دُجانة رجلاً شجاعا يختال عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أَعْلَمَ بعصابةٍ له حمراء فاعتصب بها علم النّاسُ أنه سيقاتل. فلمّا أخذ السيفَ مِن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجَ عصابتَه تلك فعصَب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى أبا دُجانة: إنّها لِمشيةٌ يُبغضها الله إلّا فى مثل هذا الموطن.

وقد قال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بنى عبد الدار يحرّضهم بذلك على القتال: يابنى عبد الدار، إنكم قدوليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناسُ من قِبَل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإمّا أن تكفُونا لواءنا، وإما أن تخلُّوا بيننا وبينه فنكفيكمُوه. فهَمُّوا به فتواعدوه، وقالوا: نحن نُسْلم إليك لواءنا، ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع! وذلك أراد أبو سفيان.

فلما التقى الناسُ ودنا بعضُهم من بعض، قامت هندُ بنت عتبة فى النسوة اللاتى معها، وأخذن الدفوفَ يضربْن بها خلف الرجال ويحرّضنهم؛ فقالت هند فيما تقول:

ويهًا بنى عبد الدار ويهًا حُمَاة الأدبار(١)

ضربًا بكلِّ بتّار(٢)

وتقول:

إنْ تقبِلوا نعانقْ ونفرشِ النمارقْ(٣)

أو تدبروا نفارقْ فراقَ غير وامق(٤)

---

(١) حماة الأدبار: الذين يحمون أعقابهم.

(٢) البتار: السيف القطاع.

(٣) النمرقة: الوسادة.

(٤) الوامق: المحب.

وكان شِعار[1] أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد: أمِتْ أمتْ!

فاقتتل الناس حتى حميت الحرب، وقاتل أبو دُجانة حتى أمعنَ في الناس، فجعل لا يلقَى أحداً إلاّ ذفَّف عليه[2]، فجعل كلٌّ واحدٍ منهما يدنو من صاحبه، فدعوتُ الله أن يجمعَ بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دُجانة فاتقاه بدرقته فعضّت بسيفه، وضربه أبو دُجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيفَ على مفرق رأسِ هند بنت عتبة، ثم عدلَ السيفَ عنها[3].

وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتّى قتل أرطاةَ بن عبد شُرَحبيل ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وكان أحد النفر الذين يحملون اللواء، ثم مرَّ به سِباع بن عبد العُزّى الغُبْشانيّ، وكان يكنَى بأبي نِيار، فقال له حمزة: هلمّ إليّ يا ابنَ مقطِّعة البُظور! وكانت أمه خَتَّانة بمكة.

قال وحشيّ غلام جبير بن مُطعِم: واللهِ إنّي لأنظرُ إلى حمزة

---

(1) الشعار: علامة يتنادون بها فى الحرب، ليعرف بعضهم بعضا.

(2) ذفف عليه: أجهز عليه.

(3) قال أبو دجانة: رأيت إنسانا يخمش الناس خمشا شديدا، فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول، فإذا امرأة، فأكرمت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة.

يهذُّ[١] النَّاس بسيفه ما يُليق[٢] به شيئا ، مثل الجمل الأورق[٣] ، إذْ تقدَّمنى إليه سباع بن عبد العزّى ، فقال له حمزة : هلمَّ إلىّ يا ابنَ مقطِّعة البظور ! فضربه ضربة فكأنْ ما أخطأ رأسه ، وهززت حربتى حتى إذا رضيتُ منها دفعتُها عليه ، فوقعت فى ثُنّته[٤] حتى خرجتْ من بين رجليه ، فأقبل نحوى فغُلب فوقع ، وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذتُ حربتى ، ثم تنحّيت إلى العسكر ، ولم تكن لى بشىء حاجةٌ غيرَه ، وإنما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة أُعتِقت ، ثم أقمتُ حتى إذا افتتح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها ، فلما خرجَ وفدُ الطائف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلموا تعيَّتْ على المذاهب ، فقلت : ألحق بالشام ، أو اليمن ، أو ببعض البلاد . فوالله إنى لفى ذلك من همّى إذ قال لى رجل : ويحك ! إنّه والله ما يقتل أحداً من الناس دخلَ فى دينه ، وتشهَّد شهادته . فلما قال لى ذلك خرجتُ حتّى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلم يرُعْه إلّا بى قائماً على رأسه أتشهَّد بشهادة الحقّ ، فلما رآنى قال : أوحشىّ ؟ قلت : نعم ، يارسول الله . قال : اقعد

---

(١) يهذ : يسرع فى قطع لحومهم بسيفه . ويروى « يهد » بالمهملة ، ومعناها يرديهم ويهلكهم .

(٢) مايليق : مايبقى .

(٣) الأورق : مالونه إلى الغبرة .

(٤) الثنة : ما بين أسفل البطن إلى العانة .

فحدِّثنى كيف قتلتَ حمزة ؟ فلما فرغت من حديثى قال : ويحك ! غيِّبْ عنى وجهَك فلا أرينّك ! فكنتُ أتنكّب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان ، لئلا يرانى ، حتى قبضه الله ، صلى الله عليه وسلم .

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل ، وكان الذى قتله ابن قمئة الليثى ، وهو يظن أنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فرجع إلى قريش فقال : قتلتُ محمدا ! فلمّا قتِل مصعب أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء علىَّ بن أبى طالب ، وقاتل علىٌّ بن أبى طالب ورجالٌ من المسلمين .

ولما اشتدّ القتال يوم أحد ، جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت راية الأنصار ، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى على ابن أبى طالب : أن قدِّم الراية . فتقدّم علىٌّ فقال : أنا أبو القُصَم[1] ! فناداه أبو سعد بن أبى طلحة ، وهو صاحب لواء المشركين : أنْ هل لك يا أبا القُصَم فى البراز من حاجة ؟ قال : نعم . فبرز بين الصّفين فاختلفا ضربتين ، فضربه علىٌّ فصرَعه ، ثم انصرفَ عنه ولم يجهزْ عليه فقال له أصحابه : أفلا أجهزتَ عليه ؟ قال : إنه استقبلنى بعورته فعطفَتْنى عنه الرحم ، وعرفت أن الله عزَّ وجلَّ قد قتله .

---

(١) القصم : الدواهى ، واحدتها قصمى . وإنما قال ذلك ردا على قول أبى سعد : أنا قاصم من يبارزنى !

وقاتلَ عاصمُ بن ثابت بن أبى الأقلح ، فقتل مسافعَ بن طلحة وأخاه الجُلاس بن طلحة ، كلاهما يُشعِره سهما[1] ، فيأتى أمه سُلافة ، فيضع رأسَه فى حجرها فتقول : يا بنىَّ ، من أصابك ؟ فيقول : سمعتُ رجلاً حينَ رمانى وهو يقول : خُذْها وأنا ابنُ أبى الأقلح . فنذرتْ إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر .

والتقى حنظلة بن أبى عامرٍ الغسيلُ وأبو سفيان ، فلمَّا استعلاه حنظلة بن أبى عامر رآه شدَّاد بن الأسود — وهو ابن شَعوب — قد علا أبا سفيان ، فضربه شدَّاد فقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ صاحبكم — يعنى حنظلَةَ — لتغسِّله الملائكة . فسألوا أهلَه : ما شأنُه ؟ فسئلتْ صاحبتُه عنه فقالت : خرج وهو جُنُبٌ حين سِمع الهاتفة .

ثم أنزل الله نصرَهُ على المسلمين وصدَقهم وعدَه ، فحَسُّوهم بالسُّيوف[2] حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لا شكَّ فيها .

قال الزبير : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصَواحبها ، مشمرات هوارب ، ما دونٍ أخْذهن قليل ولا كثير ، إذ مالت الرماةُ إلى العسكر حين كشفْنا القومَ عنه ، وخلَّوا ظهورَنا

---

(١) أشعره السهم : أصابه به فى جسده فصار له كالشعار .

(٢) حسوهم : قتلوهم واستأصلوهم .

للخيل ، فأُتينا من خلْفنا ، وصرخ صارخ : ألا إنّ محمداً قد قُتِل ! فانكفأنا[1] وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحدٌ من القوم ، ولم يزل صريعاً حتّى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش ، فلاثوا به[2] .

وانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدوّ ، وكان يومَ بلاء وتمحيص ، أكرمَ الله فيه من أكرمَ من المسلمين بالشهادة حتّى خُلِص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرُثّ[3] بالحجارة حتّى وَقَع لشِقِّه[4] ، فأصيبت رَبَاعِيَتُه[5] ، وشُجَّ[6] في وجهه . وكُلِمت[7] شفته . وكان الذى أصابه عُتبة بن أبى وقاص . فجعل الدمُ يسيل على وجهه ، يمسح الدمَ وهو يقول : « كيف يفُلح قومٌ خضَبوا وجهَ نبيِّهم وهو يدعوهم إلى ربِّهم ! » ، فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك : (ليسَ لكَ مِن الأمْرِ شئ أو يتُوبَ عَلَيْهم أوْ يعذِّبهُمْ فإنَّهم ظالِمُونَ) .

---

(١) انكفأنا : رجعنا .

(٢) لاثوا به : اجتمعوا من حوله والتفوا .

(٣) رث : أصيب .

(٤) الشق : الجانب .

(٥) الرباعية : السن المجاورة للناب .

(٦) الشج : الجرح فى الوجه والرأس .

(٧) كلمت : جرحت .

وعن أبى سعيد الخدرى ، أن عتبة بن أبى وقّاص رمَى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى ، وجَرح شفته السُّفلى ، وأنّ عبد الله بن شهابٍ الزهرىّ شجّه فى جبهته ، وأنّ ابن قمئة جرحَ وجنتَه[1] ، فدخلت حَلقتان من حلَق المِغفر فى وَجنته ، ووقع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى حُفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، وهم لا يعلمون ، فأخذ َعلىّ أبى طالب بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورَفعه طَلحة بن عبد الله حتى استوى قائماً ، ومصَّ مالك بن سنان ، أبو أبى سعيد الخُدرىّ ، الدمَ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ازدرده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن مَسَّ دمى دَمه لم تُصبه النار .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين غشِيه القوم : مَن رجلٌ يشترى لنا نفسه ؟ فقام زياد بن السَّكَن فى نفرٍ خمسة من الأنصار ، فقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ثم رجلاً ، يُقتلون دونه ، حتى كان آخرهم زياد ، أو عمارة بن يزيد بن السكَن ، فقاتَل حتى أثبتته الجراحة ، ثم فاءت فئة[2] من المسلمين ، فأجهضوهم عنه[3] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدنوه منى . فأدنَوه منه ، فوسَّده قدمَه فمات وخدُّه على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الوجنة : أعلى الخد .　　(٢) الفئة : الجماعة .

(٣) أجهضوهم : أزالوهم وغلبوهم .

وترَّس دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو دُجانة بنفسه ، يقع النَّبلُ في ظهره وهو منحنٍ عليه ، حتى كثُر فيه النبل . ورمى سعدُ بن أبي وقّاص دون رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال سعد : فلقد رأيتُه يناولني النبل ، وهو يقول : ارم ، فِداك أبي وأمّي ! حتى إنّه ليناولني السهمَ ماله نصل ، فيقول : ارمِ به .

وكان أول مَن عرف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ، وقولِ الناس : قُتِل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كعب بن مالك ، قال : عرفت عينَيه تزهَران[1] من تحت المِغْفر ، فناديتُ بأعلى صوتى : يا معشر المسلمين ، أبشِروا ، هذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ! فأشار إلىّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أن أَنصِتْ .

فلمّا عرف المسلمون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشِّعب ، معه أبو بكرٍ الصدّيق ، وعمر بن الخطّاب وعلىّ بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزُّبير بن العوّام ، رضوان الله عليهم ، والحارث بن الصِّمَّة ، ورهط من المسلمين .

فلمّا أسند رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الشِّعب أدركَه أبىّ بن خلف ، وهو يقول : أى محمد ، لا نجوتُ إن نجوتَ ! فقال القوم : يا رسولَ الله ، أيَعطِف عليه رجلٌ مِنّا ؟ فقال رسول الله صلى الله

(١) تزهران : تلمعان .

عليه وسلم : دَعوه . فلمَّا دنا تناولَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الحربةَ من الحارث بن الصمَّة . فلما تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربةَ من الحارث بن الصِّمّة ، يقول بعض القوم فيما ذُكر لى : فلما أخذَها رسول الله صلى الله عليه وسلم منه انتفضَ بها انتفاضةً تطايرنا عنه تطايُرَ الشَّعْراءِ[1] عن ظهر البعير إذا انتفضَ بها . ثم استقبله فطعنه فى عنُقه طعنةً تدأدأ[2] منها عن فرسه مِرارا .

وكان أبىّ بن خلفٍ يَلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فيقول : يا محمد ، إن عندى العَوْذ[3] ، فرسًا أعلِفُه كلَّ يومٍ فَرَقًا[4] من ذُرة ، أقتلك عليه . فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فلما رجَع إلى قريش وقد خدشَه فى عنقه خدشًا غير كبير ، فاحتقن الدم ، قال : قتلَنى والله محمد ! قالوا له : ذهبَ والله فؤادك ! والله إنْ بكَ من بأس . قال : إنّه قد كان قال لى بمكة : أنا أقتلك ، فوالله لو بصَقَ علىّ لقتلنى

فمات عدوّ الله بسَرِف[5] وهم قافلون به إلى مكةّ .

---

(١) الشعراء : ذباب له لدغ .

(٢) تدأدأ : تدحرج .

(٣) العوذ : اسم فرسه .

(٤) الفرق ، بالفتح والتحريك : مكيال يسع اثنى عشر رطلا .

(٥) سرف ، بفتح فكسر : موضع على ستة أميال من مكة .

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته[1] ماء من المِهراس[2]، فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشرب منه، فوجد له ريحاً، فعافه فلم يشرب منه. وغسَل عن وجهه الدمَ، وصبّ على رأسه وهو يقول: اشتدّ غضب الله على مَن دمّى وجهَ نبيّه.

ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوَها، وقد كان بدّن[3] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وظاهَرَ بين درعين، فلما ذهب لينهضَ صلى الله عليه وسلم لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ: أَوجَبَ طلحة[4]! حين صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم ما صنع.

وكان ممن قُتِلَ يومَ أُحد مُخَيْرِيق، وكان أحد بني ثعلبة بن الفِطيَوْن، لما كان يوم أحد قال: يا معشرَ يهود، والله لقد علمتم إن نصرَ محمدٍ عليكم لحقّ. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبتَ لكم

(١) الدرقة: ترس من جلود.

(٢) المهراس: ماء بأحد، أو حجر ينقر ويجعل إلى جانب البئر ويودع فيه الماء.

(٣) بدن: أسن وضعف.

(٤) أي وجبت له الجنة.

فأخذَ سيفَه وعُدَّته ، وقال : إن أُصِبتُ فمالى لمحمدٍ يصنع فيه ماشاء . ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلَ معه حتَّى قُتِل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مخيريق خير يهود .

وكان أبو هريرة يقول : حدِّثونى عن رجلٍ دخل الجنة لم يصلِّ قطُّ ؟ فإذا لم يعرفه الناس سألوه : من هو ؟ فيقول : اصيرِم بنى عبد الأشهل ، عمرو بن ثابت بن وَقش .

قال الحصين بن عبد الرحمن : فقلت لمحمود بن أسد : كيف كان شأنُ الأصيرم ؟ قال : كان يأبى الإسلام على قومه ، فلما كان يوم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحدٍ بَدا له فى الإسلام فأسلم ، ثم أخذ سيفَه فعدا حتى دخَل فى عُرض الناس ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة[1] . فبينا رجالٌ من بنى عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم فى المعركة إذا هم به ، فقالوا : والله إنَّ هذا لَلأُصيرم ، ماجاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكِرٌ لهذا الحديث . فسألوه : ماجاء به ؟ فقالوا : ما جاء بك يا عمرو ؟ أحدَب على قومك أم رغبةٌ فى الإسلام ؟ قال : بل رغبة فى الإسلام ، آمنتُ بالله وبرسوله وأسلمت ، ثم أخذتُ سيفى فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قاتلتُ حتى أصابنى ما أصابنى . ثم لم يلبث أن مات فى أيديهم ، فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنَّه من أهل الجنَّة .

---

(١) أثبتته : أثقلته فلم يتحرك .

وكان عمرو بن الجموح رجلاً أعرجَ شديد العرَج ، وكان له بنون أربعةٌ مثل الأُسْد ، يشهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد ، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسَه وقالوا له : إن الله عزّ وجلّ قد عذرك . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنّ بنىّ يُريدون أن يحبسونى عن هذا الوجهِ والخروج معك فيه ، فوالله إنى لأرجو أن أطأ بِعرْجتى هذه فى الجنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد عذرَك الله فلا جهادَ عليك . وقال لبنيه : ما عليكم ألاَّ تمنعوه ، لعلَّ الله أن يرزقه الشهادة . فخرجَ معه فقُتِل معه يوم أحد .

ووقعت هندُ بنت عتبة والنسوة اللاتى معها ، يمثِّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجدّعن الآذان والآنف ، حتَّى اتَّخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خدَما[1] وقلائد ، وأعطت خدمَها وقلائدها وقِرطَها وحشياً غلام جُبير بن مطعم ، وبَقرتْ عن كبد حمزة ، فلاكَتْها[2] فلم تستطع أن تسيغها ، فلفظتها[3] .

---

(١) الخدم : جمع خدمة ، وهى الخلخال .

(٢) لاكتها : مضغتها .

(٣) لفظتها : طرحتها .

وقد كان الحليس بن زبّان ، وهو يومئذٍ سيّد الأحابيش ، قد مرّ بأبى سفيان ، وهو يَضرِب فى شِدق حمزة بن عبد المطلب بزُجّ الرمح ويقول : ذُقْ عُقَق[1] ! فقال الحليس : يا بنى كنانة ، هذا سيّد قريش يصنع بابن عمّه ما تَرون لحماً[2] ! فقال : ويحك ، اكتُمْها عنّى فإنها كانت زَلّة .

ثم إنَّ أبا سفيانَ بن حربٍ حين أراد الانصرافَ أشرفَ على الجبل ثم صرخَ بأعلى صوته فقال : أنعمتَ فَعَال[3]، إن الحرب سِجال[4] يوم بيوم ، أعْلِ هُبَل[5] ! أى أظهِرْ دينك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عُمر فأجبْه فقل : الله أعلى وأجلّ ! لاسواء[6] ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار . فلما أجابَ عمر أبا سفيان قال له أبو سفيان : هلمَّ إلَّى يا عمر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) يا عقق ، أى يا عاق .

(٢) أى ميتا ليست به قدرة على الانتصار .

(٣) أنعمت : بالغت ، بفتح التاء خطاب لنفسه ، وبكسرها خطاب للحرب أو الوقيعة. عال ، أى ارتفع ، وعالى : ارتفعى . أو فعال : اسم للفعلة ، كما قالوا فجار للفجرة .

(٤) أى مداولة ، مرة لهذا الفريق ومرة لذاك .

(٥) هبل : اسم صنم .

(٦) أى لا نحن سواء ، لسنا مستويين .

لعمر : ائته فانظر ما شأنه ؟ فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر أَقَتَلْنا محمدا ؟ قال عمر: اللهمّ لا ، وإنه ليسمع كلامَك الآن . قال : أنت أصدقُ عندى من ابن قمئة وأبرّ ! لقول ابن قمئة لهم[1] : إنى قد قتلت محمدا !

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان فى قتلاكم مُثْل[2] ، والله مارضيتُ وما سخطت ، وما نهيتُ وما أمرت !

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدرٌ للعام القابل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجلٍ من أصحابه : قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فقال : اخرجْ فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جَنبوا الخيل[3] وامتطوا الإبل فإنّهم يريدون مكّة ؛ وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة . والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ثم لأناجزنَّهم . قال على : فخرجتُ فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون . فجَنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ووجَّهوا إلى مكّة .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٢٣٥ .

(٢) المثل : التمثيل بالقتيل .

(٣) جنبوا الخيل : قادوها إلى جنوبهم .

وفرغ الناس لقتلاهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : مَن رجلٌ ينظرُ لى ما فعلَ سَعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار [1] : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد . فنظر فوجدَه جريحاً فى القتلى وبهِ رَمق . فقلت له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أمرنى أن أنظر ، أفى الأحياء أنت أم الأموات ؟ قال : أنا فى الأموات ، فأبلغْ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنّى السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنّا خيرَ ما جزَى نبيًّا عن أمّته ، وأبلغْ قومَك عنّى السلام وقل لهم : إن سعدَ بن الربيع يقول لكم : إنّه لا عذرَ لكم عند الله إن خُلِص إلى نبيّكم صلى الله عليه وسلم ومنكم عينٌ تَطرِف [2] . قال : ثم لم أبرحْ حتّى مات ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرتُه خبرَه .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما بلغنى ، يلتمس حمزة ابن عبد المطلب ، فوجده ببطن الوادى قد بُقِر بطنُه عن كبده ومُثِّل به ، فجُدِع أنفه وأذناه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى ما رأى : لولا أن تحزنَ صفيةُ ويكون سنةً من بعدى لتركتُه حتى يكون فى بطون السِّباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرَنى الله على قريشٍ فى موطنٍ من المواطن لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم ! فلما رأى

(١) هو محمد بن مسلمة الأنصارى .

(٢) تطرف : تضرب بجفنها الأعلى على الأسفل .

المسلمون حُزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيظَه على من فعلَ بعمه ما فعلَ قالوا : والله لئن أظفرَنا الله بهم يوماً من الدَّهر لنمثّلن بهم مُثلةً لم يمثّلها أحد من العرب .

عن ابن عباس أن الله عزّ وجلّ أنزل فى ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول أصحابه : (وإن عاقبتم فعـاقبوا بمثل ما عُوقبتم به ، ولئن صَبرتُم لهو خيرٌ للصابرين . واصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلا بالله ، ولا تَحزنْ عَلَيْهم ولا تكُ فى ضَيْقٍ مما يمكرونَ) . فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونهى عن المُثْلة .

وأمر رسول الله بحمزة فسُجِّى[1] ببُردة ، ثم صلّى عليه فكبرَّ سبع تكبيرات ، ثم أُتىِ بالقتلى فيوضعون إلى حمزة ، فصلى عليهم وعليه معهم ، حتّى صلّى عليه اثنتين وسبعين صلاة .

قال ابن اسحاق : وقد أقبلَتْ — فيما بلغنى — صفية بنت عبد المطّلب لتنظر إليه ، وكان أخاها لأبيها وأمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنها الزُّبير بن العوام ، القَها فأَرجعهْا لا ترى ما بأخيها . فقال لها : يا أُمَّه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمُرك أن ترجعى . قالت : ولم ؟ وقد بلغنى أنْ مثّل بأخى ، وذلك فى الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ! لأحتسبنّ ولأصبرن إن شاء الله ! فلمّا جاء الزُّبير إلى

---

(١) سجى : غطى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك قال : خلِّ سبيلهَا . فأتته فنظرت إليه واسترجعت[1] واستغفرت له . ثم أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدُفن .

وكان قد احتمل ناسٌ من المسلمين قتلاهم إلى المدينة ، فدفنوهم بها ، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : ادفنوهم حيث صُرعوا .

عن عبد الله بن ثعلبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا أشرفَ على القتلَى يومَ أحدٍ قال : أنا شهيدٌ على هؤلاء أنه ما مِن جريح يُجرَح فى الله إلَّا ويبعثه الله يومَ القيامة يَدمَى جُرحه ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك ! انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر . وكانوا يدفعون الاثنين والثلاثة فى القبر الواحد .

ثم انصرفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة ، فلقيتْه حمْنَة بنت جحش ، فلمَّا لقيت الناسَ نُعى إليها أخوها عبد الله ابن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له . ثم نُعى لها خالها حمزة بن عبد المطَّلب ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نُعى لها زوجُها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت ! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) استرجعت : قالت إنا لله وإنا إليه راجعون .

إنَّ زوج المرأة منها لبمكان! لمَا رأى من تثبُّتها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها.

ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بدارٍ من دُور الأنصار من بنى عبد الأشهل وظَفَر، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى، ثم قال: «لكنّ حمزةَ لا بوَاكىَ له!». فلما رجع سعد بن معاذ، وأسيد بن حُضَير إلى دار بنى عبد الأشهل، أمرا نساءهم أن يتحزّمن ثم يذهبن فيبكين على عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولمّا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بكاءهن على حمزة خرج عليهنّ وهنّ على باب مسجده يبكين عليه، فقال: ارجعن يرحمكن الله، فقد آسيتن[1] بأنفسكنّ.

ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأةٍ من بنى دينارٍ وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأُحد، فلما نُعوا لها قالت: فما فعَل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: خيراً يا أمَّ فلان، هو بحمد الله كما تحبِّين. قالت: أرونى حتى أنظرَ إليه. فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كلُّ مصيبة بعدَكَ جَلَل. تريد صغيرة.

فلمَّا انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله ناولَ سيفَه

---

(١) المؤاساة: التعزية والمعاونة.

ابنَته فاطمة فقال : اغسلى عن هذا دمه يابنيَّة ، فوالله لقد صدقنى اليوم وناولها علىّ بن أبى طالب سيفَه فقال : وهذا أيضاً فاغسلى عنه دمهَ ، فوالله لقد صدقنَى اليوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كنتَ صدقتَ القتالَ لقد صدق معك سهلُ بن حُنيف وأبو دُجانة .

وكان يوم أُحدٍ يومَ السبت ، للنصف من شوَّال .

فلمَّا كان الغد من يوم الأحد لستَّ عشرة ليلةً مضت من شوّال ، أذَّن مؤذّن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس بطلَب العدوّ ، فأذّن مؤذّنه أن لا يخرجن معنا أحدٌ إلّا أحدٌ حضرَ يومَنا بالأمس . فكلَّمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال : يا رسول الله ، إنّ أبى كان خلَّفنى على أخَوات لِى سبع ، وقال : يا بُنّى ، إنّه لا ينبغى لى ولا لك أن نتركَ هؤلاء النسوة لا رجلَ فيهنّ ، ولستُ بالذى أوثِرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسى ، فتخلَّفْ على أخواتك . فتخلَّفتُ عليهنَّ . فأذِن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجَ معه . وإنَّما خرجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُرهباً للعدوّ ، وليبلُغَهم أنّه خرجَ فى طلبهم ليظُنُّوا به قوّة ، وأنَّ الذى أصابهم لم يُوهنهم عن عدوّهم .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى انتهى إلى حمراء الأسد

ــ وهى من المدينة على ثمانية أميال ــ واستعمل على المدينة ابن أمّ مكتوم، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجَع إلى المدينة.

وقد مرَّ به معبد بن أبى معبد الخُزاعى، وكانت خزاعة مُسلمهم ومشركهم عَيبةَ نصحٍ[1] لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة، صَفْقَتُهم معه[2]، لا يُخفون عنه شيئاً كان بها، ومعبدٌ يومئذ مشرك، فقال: يا محمد، أمَا والله لقد عزَّ علينا ما أصابك، ولوددنا أنَّ الله عافاك فيهم. ثم خرج ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد، حتّى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالرَّوحاء[3]، وقد أجمعوا الرَّجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقالوا: أصبنا حدَّ أصحابه وأشرافهم وقادتهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم! لنكُرَّنَّ على بقيتهم فلنفرغنَّ منهم. فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمعٍ لم أرَ مثلَه قطُّ، يتحرَّقون عليكم تحرُّقاً[4]، قد اجتمع معه من كانَ تخلَّفَ عنه فى يومكم، وندِموا على ما صنعوا، فيهم من الحَنَق[5] عليكم شىء لم أرَ مثلَه قطّ! قال: ويحك، ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصىَ الخيل.

---

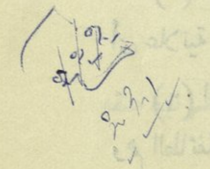
(١) عيبة نصحه: موضع سره.

(٢) الصفقة: الاجتماع.

(٣) الروحاء: قرية لمزينة على ليلتين من المدينة.

(٤) التحرق: الغيظ.

(٥) الحنق: شدة الغيظ.



قال : فوالله لقد أجمْعنا الكرةَ عليهم لنستأصلَ بقيَّتهم . قال : فإنى أنهاك عن ذلك . والله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتا من شعر .
قال : وما قلتَ ؟ قال : قلت :

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتى ... إذْ سالت الأرض بالجُرد الأبابيل [1]

تَردِى بأُسدٍ كرامٍ لا تَنابلةٍ ... عند اللقاءِ ولا مِيلٍ مَعازيلِ [2]

فظَلْتُ عَدْوًا أظنُّ الأرض مائلةً ... لمَّا سَمَوا برئيس غير مخذول [3]

فقُلت ويل ابن حربٍ من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالجيل [4]

إنى نذيرٌ لأهل البَسْل ضاحيةً ... لكلّ ذى إربةٍ منهم ومعقول [5]

مِن جَيش أحمد لا وَخْشٍ قنابلُه ... وليس بوُصَف ما أنذرتُ بالقِيل [6]

فثَنَى ذلك أبا سفيان ومن معه .

---

(١) تهد : تسقط لهول ما رأت . والجرد : جمع أجرد ، وهو الفرس القصير الشعر . الأبابيل : الجماعات .

(٢) تردى : تسرع . التنابلة : القصار . الأميل : الذى لا يثبت على السرج . المعزال : الذى لا سلاح معه .

(٣) العدو : مشى سريع . سموا : ارتفعوا إلينا .

(٤) تغطمطت : اهتزت . الجيل : الصنف من الناس .

(٥) البسل : الحرام . والمراد قريش لأنهم أهل مكة ، ومكة حرام . ضاحية ، أى علانية . الإربة : العقل ، وكذلك المعقول .

(٦) الوخش : رذالة الناس والأخساء منهم . والقنابل : جمع قنبلة وقنبل ، وهم الطائفة من الناس ومن الخيل .

ومرَّ به ركبٌ من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: ولم؟ قالوا: نريد المِيرة[1]. قال: فهل أنتم مُبْلغون عنّى محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمِّل لكم هذه غداً زبيبا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنّا قدأجمعنا السَّيرَ إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيّتهم. فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قال أبو سفيان، فقال: حسبُنا الله ونعم الوكيل.

وأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى جهة ذلك قبل رجوعه إلى المدينة معاويةَ بن المغيرة بن أبى العاص، وأبا عزّة الجمَحَى، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسَره ببدر ثم منَّ عليه، فقال: يا رسول الله، أقِلنى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله لاتمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعتُ محمدا مرتين[2]، اضرب عنقَه يا زبير! فضرب عنقه.

فلما قدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان عبد الله ابن أبىٍّ بن سَلول له مقامٌ يقومه كلّ جمعة لا ينكَر، شرفاً له فى نفسه وفى قومه، وكان فيهم شريفا، إذا جلسَ رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الميرة: الطعام يجلب من بلد إلى آخر.

(٢) وقيل: قال له: إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين! اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت. فضرب عنقه.

يومَ الجمعة وهو يخطب الناس ، قام فقال : «أيها الناس هذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزّكم به ، فانصروه وعزِّرُوه ، واسمعوا له واطيعوا ». ثم يجلس . حتى إذا صنع يوم أحدٍ ما صَنع ورجع بالناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلسْ أىْ عدوّ الله ، لست لذلك بأهل وقد صنعتَ ما صنعتَ ! فخرج يتخطّى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلتُ بُجْراً[1] أنْ قمتُ أشدّد أمرَه ! فلقيَه رجلٌ من الأنصار بباب المسجد فقال : مالك ويلك ! قال : قمت اشدِّد أمرَه فوثبَ علىَّ رجالٌ من أصحابه يجذبونى ويعنّفوننى ، لكأنما قلتُ بُجْراً أنْ قمتُ أشدّد أمره . قال : ويلَك ، ارجعْ يستغفرْ لك رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : والله ما أبتغى أن يَستغفر لى .

قال ابن إسحاق :

كان يوم أحد يومَ بلاءٍ ومصيبة وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ومَحَن به المنافقين ، ممّن كان يُظهر الإيمان بلسانه ، وهو مستخفٍ بالكفر فى قلبه ، ويوماً أكرمَ الله فيه من أراد كرامَته بالشهادة من أهل ولايته .

---

(٢) التعزير : النصر .

(١) البجر : الشر والأمر العظيم .

يوم الرجيع

فى سنة ثلاث

قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أُحدٍ رهطٌ من عَضَل والقارَة[1] فقالوا : يارسول الله، إن فينا إسلاما، فابعثْ معنا نفراً من أصحابك يفقِّهوننا فى الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلِّموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم نفراً من أصحابه، وهم مرثد بن أبى مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت، وخُبيب بن عدىّ، وزيد بن الدَّثِنة، وعبد الله بن طارق. وأمَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم مرثد بن أبى مرثد، فخرج مع القوم حتى إذا كانوا على الرَّجيع : ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدور الهدْأة[2]، غدروا بهم، فاستصرخوا[3] عليهم هُذَيلاً، فلم يَرُع القومَ وهم فى رِحالهم إلاّ الرجالُ بأيديهم السيوف، قد غَشُوهم؛ فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم؛ فقالوا لهم : إنّا والله ما نريد قتلكم، ولكنّا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكّة، ولكم عهدُ الله وميثاقُه ألاّ نقتلكم.

---

(١) قبيلتان من الهون بن خزيمة بن مدركة.

(٢) الهدأة : موضع بين عسفان ومكة.

(٣) استصرخوا : استنصروا.

فأما مرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت ، فقالوا والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبدا . فقال عاصم بن ثابت :

ما عِلّتى وأنا جَلْدٌ نابلُ[1] والقوسُ فيها وترٌ عُنابلُ[2]

تزلٌّ عن صفحتها المعَابلُ[3] الموت حق والحياة باطلُ

وكلٌّ ما حمّ الإلهُ نازلُ[4] بالمرء والمرءُ إليه آئل[5]

ثم قاتل القومَ حتى قُتِل وقتل صاحباه .

فلما قُتِل عاصم أرادت هذيلٌ أخذَ رأسه ليبيعوه من سُلافة بنت سعد بن شُهيد ، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد : لئن قدَرتْ على رأس عاصم لتشربنَّ فى قِحفه الخمر ، فمنعته الدَّبْر[6] فلمَّا حالت بينه وبينهم الدَّبْر قالوا : دَعوه حتّى يُمسى فتذهبَ عنه فنأخذه . فبعث الله الوادىَ فاحتملَ عاصماً فذهبَ به .

وقد كان عاصمٌ قد أعطى الله عهداً ألّا يمسَّه مشرك ولا يمسَّ مشركاً أبدا ، تنجُّسا . فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول حين بلغه أنَّ

---

(١) الجلد : الشديد . النابل : صاحب النبل .

(٢) العنابل : الغليظ الشديد .

(٣) المعابل : جمع معبلة ، وهو نصل عريض طويل .

(٤) حمه الإله : قدره .

(٥) آئل : صائر .

(٦) الدبر : الزنابير والنحل .

الدَّبْر منعته : يحفظ الله العبدَ المؤمن ، كان عاصم نذر ألّا يمسّه مشرك ولا يمسَّ مشركاً أبدًا فى حياته ، فمنعه الله بعد وفاته ، كما امتنع منه فى حياته .

وأما زيد بن الدَّثنة وخُبيب بن عدىّ وعبد الله بن طارق ، فلانُوا ورقُّوا ورغبوا فى الحياة ، فأعطَوْا بأيديهم فأسروهم ، ثم خرجوا بهم إلى مكّة ، ليبيعوهم بها ، حتّى إذا كانوا بالظَّهرانِ انتزع عبد الله بن طارق يدَه من القِـران[1] ، ثم أخذ سيفَه ، واستأخر عنه القومُ فرموه بالحجارة ، فقبرُه رحمه الله بالظَّهران .

وأمّا خُبيب بن عدى وزيد بن الدّثنة فقدموا بهما مكّة ، فباعوهما من قُريش بأسيرين من هذيل كانا بمكّة ، فابتاعَ خبيباً حُجَير بن أبى إهاب لعُقبة بن الحارث بن عامر ، ليقتله بأبيه .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، وبعث به صفوان بن أمية مع مولًى له ، يقال له نِسطاس ، إلى التنعيم[2] ، وأخرجوه من الحرَم ليقتلوه . واجتمع رهطٌ من قريش ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدّم ليقتل : أنشُدك اللهَ يا زيد ، أتحبُّ أنّ محمدًا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقَه

---

(١) القران : حبل يربط به الأسير .

(٢) التنعيم : موضع بين مكة وسرف ، على فرسخين من مكة .

وأنّك فى أهلك ؟ قال : والله ما أحبُّ أنّ محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وأنّى جالس فى أهلى !

يقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحبُ أحداً كحبٍّ أصحاب محمدٍ محمداً !

ثم قتله نسطاس ، يرحمه الله .

عن ماويّة مولاة حُجَير بن أبى إهابٍ — وكانت قد أسلمت — قالت : كان خُبيب عندى ، حُبِس فى بيتى ، فلقد اطّلعت عليه يوماً وإن فى يده لقِطفاً من عنب مثل رأس الرجل ، يأكل منه ، وما أعلم فى أرض الله عنبا يؤكل ، قال لى حين حضَره القتل : ابعثى إلىَّ بحديدةٍ أتطهَّر بها للقتل . فأعطيتُ غلاماً من الحىّ المُوسَى فقلت : ادخلْ بها على هذا الرجل البيتَ . قالت : فوالله ماهو إلَّا أن ولَّى الغلامُ بها إليه ، فقلتُ : ماذا صنعتُ ! أصاب واللهِ الرجلُ ثأرَه بقتل هذا الغلام ، فيكون رجلًا برجل ! فلما ناولَه الحديدة أخذَها من يده ثم قال : لعمرك ما خافت أمُّك غدرى حين بعثتك بهذه الحديدة إلىّ ؟ !

ثم خلّى سبيله .

ثم خرجوا بخبيب حتى إذا جاءوا به إلى التنعيم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم أن تدَعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا . قالوا : دونَك فاركع . فركع ركعتين أتمَّهما وأحسنَهما ، ثم أقبلَ على القوم فقال : أما والله

لولا أن تظنوا أنى إنّما طوّلت جزعًا من القتل لاستكثرتُ من الصلاة!
فكان خبيب بن عدىّ أوّلَ من سنّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين.

ثمّ رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه قال: اللهم إنّا قد بلّغنا رسالة رسولِك فبلِّغْه الغداةَ ما يُصنَع بنا!! ثم قال: اللهم أحصِهم عددا، واقتلهم بدَدا[1]، ولا تغادرْ منهم أحدا!! ثم قتلوه رحمه الله.

فكان معاوية بن أبى سفيانَ يقول: حضرتُه يومئذ فيمن حضَره مع أبى سفيان، فلقد رأيته يلقينى إلى الأرض فَرَقًا[2] من دَعوة خُبيب. وكانوا يقولون: إنَّ الرجل إذا دُعِى عليه فاضطجَع لجنبه زالت عنه.

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعملَ سَعيد بن عامر بن حِذْيم الجمحىّ على بعض الشام، فكانت تصيبُه غَشيةٌ وهو بين ظهرَى القوم، فذُكر ذلك لعمر بن الخطاب، وقيل إن الرجل مصاب، فسأله عمر فى قَدْمةٍ قدِمَها عليه فقال: يا سعيد، ما هذا الذى يصيبك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما بى من بأس، ولكنّى كنت فيمن حضَر خُبيبَ ابنَ عديّ حين قُتِل وسمعتُ دعوتَه، فوالله ما خطرتْ على قلبى وأنا فى مجلسٍ قطُّ إلا غُشِى علىّ! فزادته عند عمر خيرا.

قال ابن عباس: لما أصيب السريّة التى كان فيها مرثد وعاصمٌ

(1) بددا: متفرقين.

(2) الفرق، بالتحريك: الخوف والفزع.

بالرجيع ، قال رجالٌ من المنافقين : يا ويحَ هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا ، لاهم قعدوا فى أهلهم ، ولاهم أدَّوا رسالةَ صاحبهم .

فأنزل الله تعالى فى ذلك من قول المنافقين : (ومِن الناس مَن يُعجِبُكَ قَولُه فى الحَيَاة الدُّنيا) أى لما يُظهِر من الإسلام بلسانه (ويُشهِد اللهَ عَلَى مافى قَلْبِهِ) وهو مخالفٌ لما يقوله بلسانه (وهو ألَدُّ الخصامِ) ، أى ذو جدال إذا كلَّمكَ وراجعك . (وإذا تولَّى) أى خرجَ من عندك (سَعَى فى الأرضِ ليُفسد فيها ويُهلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ واللهُ لا يُحِبُّ الفَسَاد) أى لا يحبّ عملَه ولا يرضاه (وإذا قِيلَ له اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْه العِزَّةُ بالإثْم فحسبُه جهَنَّمُ ولبِئسَ المِهَاد . ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشرِى نفسَه ابتغاءَ مَرْضَاةِ اللهِ واللهُ رَءوفٌ بالعِباد) أى قد شَرَوْا أنفسهم من الله بالجهاد فى سبيله ، والقيام بحقِّه ، حتى هلكوا على ذلك . يعنى تلك السريّة .

وكان ممَّا قيل فى ذلك من الشِّعر قول خُبيب بن عدىّ حين بلغه أن القوم قد اجتمعوا لصَلبه :

لقد جمَّعَ الأحزابُ حولى وألَّبوا قبائلَهم واستجمعوا كلَّ مَجمعِ[1]
وكلُّهم مُبدِى العداوة جاهدٌ علىَّ لأنِّى فى وثاق بمَضيَعِ
وقد جمَّعوا أبناءهم ونساءهم وقُرِّبتُ من جِذعٍ طويل ممنَّعِ

---

(١) ألبوا : جمعوا .

إلى الله أشكو غُربتى ثم كُربتى

وما أرصَدَ الأحزابُ لى عند مَصرعى[١]

فذا العرشِ ، صبَّرنى على ما يراد بى

فقد بضَّعوا لحمى وقد ياسَ مطمعى[٢]

وذلك فى ذات الإله وإن يشأْ

يُبارك على أوْصال شِلوٍ ممزَّع[٣]

وقد خيَّرونى الكُفرَ والموتُ دونَه

وقد هَمَلتْ عيناىَ من غير مَجزَع

وما بى حِذارُ الموت إنِّى لميِّتٌ ولكن حِذارى جَحم نارٍ ملفِّع[٤]

فوالله ما أرجو إذا متُّ مسلماً على أىِّ جنبٍ كان فى الله مصرعى[٥]

فلستُ بمبدٍ للعدوِّ تخشُّعا ولا جزَعًا إنِّى إلى الله مرجعى

وقال حسّان بن ثابت يبكى خبيباً :

ما بال عينك لا تَرقا مدامعها سحًّا على الصَّدر مثل اللؤلؤ القَلِق[٦]

---

(١) أرصدوا : أعدوا .

(٢) بضعوا : قطعوا . ياس : يئس .

(٣) الشلو : الجسد . الممزع : المقطع .

(٤) الجحم : اضطراب النار . ملفع : يشمله من جميع نواحيه .

(٥) أرجو : أخاف .

(٦) ترقا : تسكن . السح : الصب .

على خُبيبٍ فتى الفتيان قد علموا

لا فَشلٍ حين تلقاه ولا نزق[1]

فاذهبْ خبيبُ جزاكَ الله طيِّبة

وجنَّةَ الخلد عند الحُور فى الرُّفَقَ[2]

ماذا تقولون إن قال النبىُّ لكم

حين الملائكة الأبرار فى الأفق

فِيمَ قتلتم شهيدَ الله فى رجلٍ

طاغ قَدَ اوعَثَ فى البلدان والرَّفَق[3]

---

(١) من النزق، وهو التسرع والطيش.

(٢) الرفق: جمع رفقة، وهم الأصحاب.

(٣) الرفق، بالتحريك: المرتع السهل المطلب

حديث بئر مَعُونة

فى صفر سنة أربع

فأقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقية شوال ، وذا القعدة ، وذا الحِجّة — وولى تلك الحَجّة المشركون — والمحرَم ، ثم بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابَ بئر معونة فى صفر ، على رأس أربعة أشهر من أحد .

وكان قد قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ ، فعرضَ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الإسلامَ ودعاه اليهْ ، فلم يُسلم ولم يَبعُد من الإسلام وقال : يا محمد ، لو بعثتَ رجالاً من أصحابك إلى أهل نجدٍ فدَعوهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّى أخشَى عليهم أهل نجد . قال أبو برَاء : أنا لهم جارٌ ، فابعثْهم فليدْعوا الناسَ إلى أمرك .

فبعث رســـول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة ، «المْعنِق ليموت»[1]، فى أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين، منهم الحارث بن الصِّمّة ، وحرام بنِ ملحان ، وعروة بن أسماء ،

---

(١) أعنق : أسرع . وإنما سمى بذلك لأنه أسرع إلى الشهادة .

ونافع بن بديل بن ورقاء، وعامر بن فُهَيرة مولى أبى بكر الصديق، فى رجالٍ مسمَّين من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، وهى بين أرض بنى عامر وحَرَّة بنى سُلَيم، كِلا البلدين منها قريب، وهى إلى حَرَّة بنى سليم أقرب.

فلما نزلوها بعثوا حَرامَ بنَ مِلحان بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدوّ الله عامر بن الطُّفَيل. فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرَّجُل فقتله، ثم استصرخَ[1] عليهم بنى عامرٍ فأبَوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نُخفِر[2] أبا براء. وقد عقَد لهم عَقداً وجوارا. فاستصرخ عليهم قبائل من سُليم فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غَشُوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم، فلمّا رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتى قُتِلوا من عند آخرهم، يرحمهم الله؛ إلاّ كعبَ بن زيد فإنَّهم تركوه وبه رَمق، فارتثَّ[3] من بين القتلى، فعاش حتّى قُتِل يوم الخندق شهيدا، يرحمه الله.

وكان فى سَرح القوم عمرو بن أمية الضَّمْرى، ورجلٌ من الأنصار

---

(١) استصرخهم: استعان بهم.

(٢) نخفره: ننقض عهده.

(٣) الارتثاث: أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف قد أثخنته الجراح.

أحدُ بنى عمرو بن عوف[1] ، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطَّيرُ تحومُ حول العسكر ، فقالا : واللهِ إنّ لهذه الطَّير لشأنا . فأقبلا لينظرا فإذا القوم فى دِمائهم ، وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة ، فقال الأنصارىّ لعمرو بن أميّة : ما ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنخبِره الخبر . فقال الأنصارىّ : ما كنتُ لأرغبَ بنفسى عن موطنٍ قُتِل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنتُ لتخبرنى عنه الرجال! ثم قاتل القومَ حتى قُتل .

وأخذوا عمرو بن أميّةَ أسيراً ، فلمّا أخبرهم أنهُ من مُضَر أطلقه عامر بن الطفيل ، وجز ناصيته ، وأعتقه عن رقبةٍ زعمَ أنها كانت على أمه ، فخرج عمرو بن أمية حتّى إذا كان بالقَرقَرة[2] من صدر قناة[3] ، أقبَل رجلانِ من بنى عامرٍ حتى نزلا معه فى ظلّ هو فيه . وكان مع العامريّين عَقد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وجِوارٌ لم يعلم به عمرو بن أمية ، وقد سألهما حين نزلا : ممّن أنتما ؟ فقالا : من بنى عامر . فأمهلهما حتى إذا ناما عداعليهما ، وهو يرى أنّه قد أصابَ

---

(١) هو المنذر بن محمد بن عقبة .

(٢) قرقرة الكدر ، بينها وبين المدينة ثمانية برد .

(٣) واد يصب فى قرقرة الكدر .

بهما ثُؤرةً[1] من بني عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلمَّا قدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهُ الخبر ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : لقـــد قتلتَ قتيلين لأديـنَّهما ! ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارهاً متخوِّفاً !

فبلغ أبا بَراءٍ فشـقَّ عليه إخفارُ عامرٍ إياه ، وما أصاب أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بسببه وجواره .

وكان فيمن أصيب عامر بن فهُيرة .

عن هشام بن عروة عن أبيه ، أنّ عامر بن الطفيل كان يقول : مَن رجلٌ منهم لمّا قُتِل رأيته بين السماء والأرض حتى رأيتُ السَّماء مِن دُونه ؟ قالوا : هو عامر بن فهيرة .

---

(١) الثؤرة : الثأر .

إجلاء بنى النَّضِير

فى سنة أربع

ثم خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر[1]، اللذين قتل عمرو بن أمية الضَّمرى؛ للجوار الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لهما. وكان بين بنى النَّضير وبين بنى عامر عَقد وحِلف، فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببتَ ممَّا استعنتَ بنا عليه.

ثم خلا بعضُهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجلَ على مثل حاله هذه — ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى جنْب جدارٍ من بيوتهم قاعد — فمَن رجلٌ يعلو على هذا البيت فيُلقى عليه صخرةً فيريحنا منه؟ فانتدَبَ لذلك عمرو بن جِحاش بن كعب، أحدُهم، فقال: أنا لذلك. فصعِد ليُلقِىَ عليه صخرةً كما قال، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى نفرٍ من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلىّ، رضوان الله عليهم.

فأتى رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ من السَّماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعا إلى المدينة. فلما استلبث[2] النبىَّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٢٦٥.

(٢) استلبثه: استبطأه.

أصحابُه قاموا فى طلبه ، فلقُوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه ، فقال: رأيته داخلاً المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا إليه صلى الله عليه وسلم فأخبرهم الخبر ، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به . وأمَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيّؤ لحربِهم والسَّير إليهم . ثم سار بالناس حتى نزل بهم ، فتحصَّنوا منه فى الحصون ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيها ، فنادوه : أن يا محمد ، قد كنتَ تنهى عن الفساد وتعيبُه على من صنعَه ، فما بالُ قطعِ النخيل وتحريقها !

وقد كان رهْطٌ من بنى عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن أبيّ بن سلول ، ووديعة ، ومالك بن أبى قوقل ، وسُويد ، وداعس ، قد بعثوا إلى بنى النضّير ، أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ؛ إن قوتلتم قاتلنا معكم ؛ وإن أخرِجتم خرجنا معكم . فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرُّعب ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكفّ عن دمائهم ، على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلاّ الحَلْقة (١) . ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل ، فكان الرجلُ منهم يهدم بيتَه عن نِجاف بابه (٢) فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم مَن سار إلى الشام .

---

(١) الحلقة : السلاح كله .
(٢) النجاف : العتبة التى بأعلى الباب .

فكان أشرافهم مَن سار منهم إلى خيبر سلاَّم بن أبى الحُقيق، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وحُيَيّ بن أخطب. فلما نزلوها دانَ لهم أهلها.

حدّثنى عبد الله بن أبى بكر أنه حُدِّث أنّهم استقلُّوا بالنساء والأبناء والأموال، معهم الدُّفوف والمزامير، والقيان يعزِفن خلفهم، وإنَّ فيهم لأمَّ عمرٍو صاحبةَ عُروة بن الورد العبْسى التى ابتاعوا منه[1]، بزهاءٍ وفخر ما رُئِىَ مثلُه من حىّ من النَّاس فى زمانهم.

وخلَّو الأموال لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت له خاصَّةً يضعها حيث يشاء، فقسَّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المهاجرين الأوَّلين دون الأنصار، إلاَّ أنَّ سهل بن حُنيف وأبا دُجانة سِماكَ بن خَرَشة ذكرا فقرا، فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونزل فى بنى النَّضير سورةُ الحشر بأسرها، يذكر فيها ما أصابهم

(١) اسمها سلمى، وكانت ناكحاً فى مزينـــة، فأغار عليهم عروة بن الورد فسباها. وكان عروة يتردد على بنى النضير فيستقرضهم إذا احتاج ويبيع منهم إذا غنم. فرأوا عنده سلمى فأعجبتهم، فسألوه أن يبيعها منهم فأبى، فسقوه الخمر واحتالوا عليه حتى ابتاعوها منه وأشهدوا عليه. وفى ذلك يقول:

سقونى الخمـــر ثم تكنفونى عداة الله من كذب وزور

فيا للنـاس كيف غلبت نفسى على شىء ويكرهه ضمـــيرى

الله به من نقمته، وما سلَّط عليهم به رسوله صلى الله عليه وسلم وما عمل به فيهم ، فقال تعالى : (هو الذى أخرَجَ الذين كفروا مِن أهل الكتاب مِن دِيارهم لأوَّل الحَشْر ما ظَنَنْتم أن يَخْرجُوا وظَنُّوا أنهم ما نعتهم حصونُهم من الله فأتاهُم اللهُ من حَيْثُ لم يَحتسبُوا وقَذَفَ فى قلوبهم الرُّعْبَ يُخربون بيوتَهم بأيديهم وأيدى المؤمنينَ) وذلك لهدمهم بيوتَهم عن نُجُفِ أبوابهم إذ احتملوها . (فاعتبِرُوا يا أولى الأبصار . ولوْلا أنْ كتَبَ اللهُ عليهم الجَلاءَ) وكان لهم من الله نقمةً (لعذَّبهم فى الدُّنيا) ، أى بالسَّيف . (ولَهم فى الآخرِة عذابُ النَّار) مع ذلك . (ما قَطعتُم مِن لِينةٍ أو تركتُموها قائمةً عَلَى أصولها) واللِّينة : ما خالف العجوةَ من النخل (فبإذن الله) أى فبأمر الله قُطعت ، لم يكن فَساداً ، ولكن كان نقمةً من الله (وليُخْزِىَ الفاسقين . وما أفاء الله على رَسُوله مِنْهم) يعنى من بنى النَّضير (فما أوجَفْتُم عَلَيه من خَيل ولا ركابٍ ، ولكنَّ الله يُسلِّط رسُله على مَن يشاء والله على كلِّ شىء قديرٌ . ما أفاء الله على رَسُوله مِن أهْلِ القُرىُ فلِله وللَّرسولُ) : ما يُوجف عليه المسلمون بالخيل والرِّكاب وفُتح بالحرب عنوةً فلله وللرسول (ولذى القُربَى واليتامى والمساكينِ وابنِ السَّبيلِ كَيْلا يكونَ دولَةً بَيْنَ الأغنياء منْكم وما آتاكُم الرسولُ فخُذُوه وما نهاكُم عَنْه فانتهوا) .

يقول : هذا قسم آخر فيما أصيب بالحرب بين المسلمين على ما وضعه الله عليه.

ثم قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إلى الذَّين نَافَقُوا) يعنى عبد الله بن أبى وأصحابه ومَن كان على كان على مثل أمرهم (يقولون لإخوانهم الذين كَفَروا من أهل الكِتاب) يعنى بنى النَّضير ، إلى قوله (كمثَل الذين مِن قَبْلِهم ذاقُوا وبَالَ أمرِهِمْ ولهم عذابٌ أليم) يعنى بنى قَينُقاع ، ثم القصّة إلى قوله : (كَمثل الشَّيطان إذْقال للإنسان اكفرْ فلما كفرَ قال إنى برىءٌ مِنْك إنِّى أخافُ اللهَ ربَّ العالمين . فكانَ عاقبتَهما أنَّهما فى النّارِ خالدين فيها وذلك جَزاءُ الظّالمين) .

غزوة ذات الرقاع

فى سنـــة أربع

ثم أقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد غزوة بنى النضير شهرَ ربيع الآخر وبعضَ جُمادى . ثم غزا نجداً يريد بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان ، واستعمل على المدينة أبا ذَرّ الغِفارىّ حتى نزل نخلا [1] ، وهى غزوة ذات الرقاع [2] . فلقى بها جمعاً عظيما من غطَفان ، فتقارب الناسُ ولم يكن بينهم حرب ، وقد خاف الناسُ بعضُهم بعضاً حتَّى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنَّاس صلاة الخوف ، ثم انصرف بالناس .

عن جابر بن عبد الله قال :

خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة ذات الرقاع من نخل ، على جملٍ لى ضعيف ، فلمَّا قفل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جعلَت الرِّفاق تمضى ، وجعلتُ أتخلَّف حتى أدركنى

---

(١) نخل : موضع بنجد من أرض عطفان .

(٢) إنما قيل لها ذات الرقاع لأنهم رقعوا فيها راياتهم . وقيل : ذات الرقاع شجرة بذلك الموضع يقال لها ذات الرقاع . وقيل : لأن الحجارة أوهنت اقدامهم فشدوا رقاعا ، فقيل لها : ذات الرقاع .

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: مالك يا جابر؟ قلتُ: يارسول الله، أبطأ بى جملى هذا. قال: أنِخه. فأنخْتُه وأناخ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: أعطنى هذه العصا من يدك، أواقطعْ لى عصاً من شجرة. ففعلتُ، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنَخَسَه بها نخساتٍ ثم قال: اركبْ. فركبتُ فخرجَ، والذى بعثَه بالحقِّ يواهقُ ناقته مواهقة[1].

وتحدَّثت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى: أتبيعنى جملَك هذا يا جابر؟ قلت: يارسول الله، بل أهبُه لك. قال: لا، ولكن بِعنيه. قلت: فسُمْنيه يارسول الله. قال: قد أخذته بدرهم! قلت: لا، إذن تغبُننى يارسول الله. قال: فبدرهمين؟ قلت: لا. فلم يزل يرفع لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمنه حتى بلغ الأوقيَّة. فقلت: أفقد رضيتَ يارسول الله؟ قال: نعم. قال: فهولك. قال: قد أخذته. ثم قال: ياجابر، هل تزوَّجتَ بعد؟ قلت: نعم يارسول الله. قال: أثيبا أم بكرا؟ قلت: لا، بل ثيِّباً. قال: أفلا جاريةً تلاعبها وتلاعبك؟ قلت: يارسول الله، إنَّ أبى أصيبَ يومَ أحد وترك بناتٍ له سبعاً، فنكحتُ امرأةً جامعةً، تجمع رءوسهنَّ وتقوم عليهنَّ. قال: أصبتَ إنْ شاء الله، أمَا إنَّا لو قد جئنا صراراً[2]

(١) يواهقها: يعارضها فى المشى لسرعته.

(٢) صرار: موضع على ثلاثة أميال من المدينة.

أمرْنا بجَزورٍ فنُحِرت ، وأقمْنا عليها يومَنا ذاك ، وسمِعَتْ بنا فنفضَتْ نمارقها[1] . فقلت : والله يارسولَ الله مالنا مِن نمارق ! قال : إنها ستكون ، فإذا أنت قدِمتَ فاعمل عملاً كيِّسا .

فلما جئنا صراراً أمرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بجزورٍ فنُحرت ، وأقمْنا عليها ذلك اليوم ، فلما أمسى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دخلَ ودخلْنا ، فحدّثتُ المرأةَ الحديثَ وما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : فدونك ، فسَمْعٌ وطاعة .

فلما أصبحتُ أخذتُ برأس الجمل ، فأقبلتُ به حتّى أنختُه على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جلستُ فى المسجد قريباً منه ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى الجملَ فقال : ما هذا ؟ قالوا : يارسول الله ، هذا جملٌ جاء به جابر . قال : فأين جابر ؟ فدُعيتُ له فقال : يا ابن أخى ، خذْ برأس جملك فهو لك . ودعا بلالاً فقال له : اذهبْ بجابرٍ فأعطِه أوقية . فذهبت معه فأعطانى أوقيةً وزادنى شيئاً يسيرا ، فوالله مازال يَنمى عندى ، ويُرى مكانه من بيتنا حتى أصيب أمسِ فيما أصيب لنا — يعنى يومَ الحرّة .

---

(١) النمارق : جمع نمرقة ، وهى الوسادة الصغيرة .

وعنه أيضا قال :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة ذات الرقاع من نخل ، فأصاب رجلٌ إمرأةَ رجلٍ من المشركين ، فلما انصرفَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قافلًا أتى زوجُها وكان غائبا ، فلما أُخبر الخبرَ حلف لا ينتهى حتى يُهَريق فى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم دماً ! فخرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلاً فقال : مَن رجلٌ يكلؤنا ليلتنا هذه ؟ فانتدَب رجلٌ من المهاجرين ورجل آخر من الأنصار فقالا : نحن يا رسول الله . قال : فكونا بفم الشِّعب . فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاريّ للمهاجريّ : أيَّ الليل تحبُّ أن أكفيكه : أوّله أم آخره ؟ قال : بل اكفنى أوّله . فاضطجع المهاجرىُّ فنام وقام الأنصاريّ يصلّى .

وأتى الرجل ، فلما رأى شخصَ الرجل عرف أنَّه ربيئة القوم ، فرمى بسهمٍ فوضعَه فيه ، فنزعه ووضعه فثبت قائما . ثم رماه بسهم آخر فوضعَه فيه ، فنزعه فوضعَه وثبت قائما ، ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه . فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد ، ثم أَهبَّ صاحبه (١) فقال : اجلس قد أُثبتُّ (٢) . فوثبَ ، فلما رآهما الرجل عَرَف أن قد نَذِرا به (٣) فهرب .

---

(١) أهبه إهبابا : أيقظه .

(٢) أثبتـه : جرحه جرحاً لا يمكنه التحرك معه .

(٣) نذرا به : علما به فتحرزا .

ولما رأى المهاجرىّ ما بالأنصارى من الدماء قال : سبحان الله ، أفلا أهببْتَنِى أوّلَ ما رماك ؟ قال : كنتُ فى سُورةٍ أقرؤها فلم أحبّ أن أقطعها حتّى أنفدَها ، فلما تابع علىّ الرّمىَ ركعتُ فآذنتك . وايمُ الله لولا أن أضيّع ثغراً أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه لقطعَ نفسى قبل أن أقطعها أو أُنفدها .

قال ابن إسحاق : ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة من غزوة الرّقاع أقام بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجبا .

غزوة بدر الآخرة

فى شعبان سنة أربع

ثم خرج فى شعبان إلى بدر، لميعاد أبى سفيان، حتى نزله.

فأقام عليه ثمانى ليال ينتظر أبا سفيان. وخرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مَجَنَّة[1]، من ناحية الظهران، ثم بدا له فى الرُّجوع فقال: يامعشرَ قريش، إنّه لا يُصلحكم إلا عامٌ خصيب تَرعَون فيه الشجر، وتشربون فيه اللّبَن؛ وإنّ عامكم هذا عامُ جدب، وإنّى راجعٌ فارجعوا.

فرَجع الناس، فسمّاهم أهل مكة «جيشَ السّويق». يقولون: إنمّا خرجتم تشربون السويق.

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده. فأتاه مَخْشىّ بن عمرو الضَّمْرىّ، وهو الذى كان وادَعه على بنى ضمرة فى غزوة وَدّان، فقال: يا محمد، أجئتَ للقاء قريش على هذا الماء. قال: نعمْ، يا أخا بنى ضَمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدْناك[2]، حتّى يحكم اللهُ بيننا وبينك.

قال: لا والله يا محمد، مالنا بذلك منك من حاجة.

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر أبا سفيان، فمرّ به

---

(١) واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول الأنصارى.

(٢) المجالدة: المضاربة بالسيوف.

مَعبد بن أبى معبدٍ الخزاعى ، فقال وقد رأى مكانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وناقته تَهوى به[1] :

قد نفرتْ من رُفقتَىْ محمدِ وعَجوةٍ من يثربٍ كالعنَجدَ[2]
تَهوِى على دين أبيها الأتلد[3] قد جَعَلتْ ماءَ قُديدٍ موعدى[4]
وماءَ ضَجْنانَ لها ضُحَى الغدِ

وقال عبد الله بن رواحة فى ذلك[5] :

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد لميعاده صدقا وما كان وافيا
فأُقسِم لو وافيتنا فلقيتَنا لأُبتَ ذميماً وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عُتبة وابنِه وعَمراً أبا جهلٍ تركناه ثاويا[6]
عصَيتم رسولَ الله أُفٍّ لدينكم وأمرِكم السّىْءِ الذى كان غاويا
فإنى وإن عنّفتمونى لقائلٌ فدًى لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه لم نعدِلْه فينا بغيره شِهاباً لنا فى ظُلمة الليل هاديا

---

(١) تهوى به : تسرع .
(٢) العنجد : الزبيب الأسود .
(٣) الدين : الدأب والعادة . الأتلد : الأقدم .
(٤) قديد : موضع قرب مكة .
(٥) قال ابن هشام : أنشدنيها أبو زيد الأنصارى ، لكعب بن مالك .
(٦) ثاويا : مقيما .

غزوه دُومة الجَندَل

فى شهر ربيع الأول سنة خمس

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينه فأقام بها شهراً حتَّى مضى ذو الحِجَّة ، وولى تلك الحجة المشركون ، وهى سنة أربع من مَقْدم رسول الله صلى الله عليه المدينة .

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم دُومة الجندل[1] ، ثم رجع قبل أن يصل إليها ، ولم يلق كيدا ، فأقام بالمدينة بقية سنته .

---

(١) بضم الدال ، وتفتح : من أعمال المدينة ، بينها وبينها خمس عشرة ليلة . وقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة فى هذه الغزوة سباع ابن عرفطة .

غزوة الخَندَق

فى شوال سنة خمس

ثم كانت غزوة الخندق فى شوال سنة خمس .

إنه كان من حديث الخندق أنّ نفراً من اليهود ، منهم سلاّم ابن أبى الحُقَيق النَّضَرىّ ، وحُيَىّ بن أخطبَ النَّضَرى ، وكِنانة بن أبى الحقيق النَّضَرى ، وهوذة بن قيس الوائلى ، وأبو عمّار الوائلىّ ، فى نفرٍ من بنى النَّضير ونفرٍ من بنى وائل — وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم — خرجوا حتى قدِموا على قريش مَكَّة فدعَوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصلَه . فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأوّل ، والعلمِ بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أَفدينُنا خيرٌ أم دينُه ؟ قالوا : بل دينكم خيرٌ من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

فهُم الذين أنزل الله تعالى فيهم : (أَلَمْ تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتابِ يُؤمنون بالجبتِ والطاغوت ، ويَقُولونَ لِلَّذِين كفروا هؤلاءِ أهْدَى من الذين آمَنُوا سَبيلاً . أولئك الَّذينَ لعَنَهم اللهُ ومَنْ يَلْعَنِ اللهُ فلَنْ تجِدَ لهُ نَصيراً) إلى قوله (أمْ يحسُدُونَ النَّاسَ علَى ما آتاهُمُ اللهُ منْ فَضْلِه) أى النبوّة (فقد آتينا آلَ إبراهِيمَ الكتابَ والحِكمةَ

وآتيناهم مُلْكاً عظيما. فمنهم من آمَنَ به ومِنْهُم من صَدَّ عنه وكَفَى بجهنَّمَ سَعيرا).

فلمَّا قالوا ذلك لقريشٍ، سَرَّهم ونشِطوا لما دَعوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا لذلك واتَّعدوا له، ثم خرج أولئك النَّفر من يهودَ حتى جاءوا غطفان، فدعَوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأنَّ قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه.

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن فى بنى فزارة، والحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى فى بنى مرة، ومِسعَر بن رُخَيلة فيمن تابعه من أشجع.

فلما سمِع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما أجمعوا له من الأمر، ضربَ الخندق على المدينة، فعمِل فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ترغيباً للمسلمين فى الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأبَ فيه ودأبوا، وأبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجالٌ من المنافقين، وجعلوا يُورُّون[1] بالضَّعيف

(١) التورية: أن يستر شيئا ويظهر غيره.

مِن العمل ، ويتسلَّلون إلى أهليهم بغير عِلمٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذن . وجعلَ الرجلُ من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لا بدَّ له منها ، يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستأذنُه فى اللُّحوق بحاجته ، فيأذن له ، فإذا قضَى حاجته رجَع إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة فى الخير واحتسابا له ، فأنزل الله تعالى فى أولئك من المؤمنين : (إنَّما المؤمنونَ الذين آمَنوا بالله ورسُولِه وإذا كانوا مَعَه على أمرٍ جامع لم يَذْهَبوا حَتَّى يستأذنوه ، إنَّ الذين يَستأذنونَكَ أولئكَ الذين يؤمِنُون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبَعْضِ شأنِهم فأْذن لمن شئتَ منهمْ ، واستغفِر لهم اللهَ ، إنَّ الله غَفورٌ رَحيمٌ) . فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحِسبة والرَّغبة فى الخير ، والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم قال تعالى ، يعنى المنافقين الذين كانوا يتسلَّلون من العمل ، ويذهبون بغير إذن من النبى صلى الله عليه وسلم : (لا تَجعَلُوا دُعاء الرَّسُولِ بينكم كدُعاءِ بَعضِكُم بَعضًا ، قد يَعْلَمُ اللهُ الذين يتسلَّلُون مِنكم لِواذًا فليَحْذَرِ الذين يُخالِفُون عَن أمرِه أنْ تُصيبَهم فِتنةٌ أو يُصيبَهم عذابٌ أليم) — قال ابن هشام : اللواذ : الاستتار بالشىء عند الهرب — (ألَا إنَّ لِله ما فى السَّموات وما فى الأرضِ قد يَعْلَمُ ما أنتْم عليه)

مِن صدقٍ أو كذب (ويَوم يُرجَعُون إليه فينبِّئُهُمْ بما عَمِلُوا والله بكلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ) .

ولمّا فرغَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلَتْ قريشٌ حتَّى نزلت بمجتمع الأسيال من رُومة ، بين الجُرُف وزُغابة ، فى عشرة آلافٍ من أحابيشهم ومن تَبِعهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، وأقبلتْ غطفانُ ومَن تبعهم من أهل نجد ، حتى نزلوا بذنب نَقْمَى إلى جانب أحد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، حتى جعلوا ظهورَهم إلى سَلْع فى ثلاثة آلافٍ من المسلمين ، فضرب هنالك عَسكره ، والخندق بينه وبين القوم ، وأمَر بالذرارىّ والنِّساء فجُعلوا فى الآطام[1] .

وخرج عدوُّ الله حُيَيّ بن أخطب النَّضرىّ حتّى أتى كعب بن أسد القُرظىّ ، صاحبَ عقدِ بنى قريظة وعهدهم . وكان قد وادَعَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على قومه وعاقده على ذلك وعاهَده ، فلمّا سمع كعبٌ بحيي بن أخطبَ أغلقَ دونَه بابَ حصنه . فاستأذنَ عليه فأبى أن يفتحَ له ، فناداه حيىّ : ويحكَ يا كعب ! افتَحْ لى . قال : ويحك يا حيىّ ، أنك امرؤٌ مشئوم ، وإنّى قد عاهدت محمّدًا فلستُ بناقضٍ ما بينى وبينه ، ولم أرَ منه إلّا وفاءً وصدقا . قال : ويحك ! افتحْ لى أكلِّمك . قال :

(١) الآطام : الحصون ، جمع أطم .

ما أنا بفاعل . قال : والله إنْ أغلقتَ دونى إلّا عن جَشيشتك[1] أن آكلَ معكَ منها ! فأحفَظ الرجلَ ففتحَ له ، فقال : ويحك يا كعب ! جئتك بعزٍّ الدهر وبيحرٍ طامٍ[2] ، جئتكَ بقريش على قادتها وسادتها حتّى أنزلتُهم بمجتمع الأسيال من رُومة ، وبغطفانَ على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنَب نَقْمَى إلى جانب أحد ، قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه . فقال له كعب : جئتنى والله بذلّ الدّهر ، وبجَهامٍ قد هراقَ ماءَه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شىء ، ويحك يا حُيَيّ ! فدعْنى وما أنا عليه ، فإنى لم أرَ من محمدٍ إلّا صدقًا ووفاء . فلم يزلْ حيّ بكعب يَفتِله فى الذّروة والغارب[3] حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقا ، لئن رجعَتْ قريشٌ وغطَفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخلَ معك فى حِصنك حتى يُصيبنى ما أصابك . فنقض كعب بن أسدٍ عهدَه ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ وإلى المسلمين ، بعثَ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم سعدَ بن مُعاذ بن النعمان ، وهو

---

(١) الجشيشة : طعام من البر يطحن غليظاً .

(٢) طام : ممتلىء مرتفع الأمواج .

(٣) أى يخاتله ويراوضه . وأصل المثل فى البعير ، يفعل به ذلك ليسكن ويأنس . الذروة : أعلى السنام . والغارب : الكاهل ، وهوما بين السنام إلى العنق .

يومئذٍ سيد الأوس ، وسعد بن عُبادة بن دُليم ، وهو يومئذ سيّد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوّات بن جبير ، فقال : انطلقوا حتى تنظروا ، أحقٌّ ما بلَغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقًّا فالحنوا[1] لى لحنًا أعرفه ، ولا تفتُّوا فى أعضاد الناس[2] ؛ وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهَروا به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبثِ ما بلغهم عنهم فيما نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالوا : مَن رسولُ الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمدٍ ولا عقد ! فشاتمهم سعد بن مُعاذٍ وشاتموه ، وكان رجلًا فيه حِدّة . فقال له سعد بن عُبادة : دعْ عنك مشاتمتَهم ، فما بيننا وبينهم أربَى[3] من المشاتمة . ثم أقبل سعدٌ وسعدٌ ومن معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلّموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة[4] ! أى كغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرجيع : خُبيبٍ وأصحابه — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين !

---

(١) اللحن : التعريض والإشارة فى الكلام .

(٢) فت فى عضده : أوهمه وأضعفه .

(٣) أربى : أزيد وأكثر .

(٤) انظر ما سبق فى ص ٢٥٥ .

وعظم عند ذلك البلاءُ واشتدّ الخوف ، وأتاهم عدوّهم مِن فوقهم ومن أسفل منهم ، حتّى ظن المؤمنون كلّ ظنّ ، ونجم النِّفاق من بعض المنافقين ، حتى قال معتّب بن قُشَير : كان محمّدٌ يعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدُنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وحتى قال أوس بن قَيظيّ : يارسول الله ، إن بيوتنا عَورة من العدوّ — وذلك عن ملأٍ من رجال قومه — فأذنْ لنا أن نخرجَ فنرجعَ إلى دارنا فإنّها خارج من المدينة . فأقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأقام عليه المشركون بضعاً وعشرين ليلةً ، قريباً من شهر ، لم تكن بينهم حربٌ إلاّ الرِّمِّيا[1] بالنبل والحصارُ .

فلما اشتدّ على الناس البلاءُ بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى عُيينة بن حصن ، وإلى الحارث بن عوف المرى ، وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلثَ ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه . فجرَى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتابَ ، ولم تقع الشهادةُ ولا عزيمة الصلح ، إلاّ المراوضة فى ذلك . فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعلَ بعثَ إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فذَكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا له : يارسول الله ، أمرا تحبّه فنصنعَه ، أم شيئا أمرَكَ الله به لابدّ لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعهُ لنا ؟ قال : بل شيءٌ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلاّ لأنّنى رأيت العربَ قد

(١) الرميا : المراماة بالسهام .

رمَتكم عن قوسٍ واحدة ، وكالَبوكم[1] من كلّ جانب ، فأردت أن أكسِر عنكم مِن شوكتهم إلى أمرٍ ما . فقال له سَعدُ بن مُعاذ : يارسولَ الله ، قد كنَّا نحن وهؤلاء القومُ على الشِّرك بالله وعبادة الأوثان ، لانعبد اللهَ ولانعرفه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلاَّ قِرى[2] أوبيعا ، أَفحِين أكرَمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك وبه نعطيهم أموالنا ! والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلاَّ السيفَ حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنتَ وذاك . فتناولَ سعد بنُ معاذ الصحيفة ، فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : ليَجْهدوا علينا .

فأقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وعدوُّهم محاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال إلاَّ أن فوارسَ من قريش منهم عمرو ابن عبد وُدّ ، وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان وضرار بن الخطَّاب الشاعر ، تلبَّسوا[3] للقتال ، ثم خرجوا على خيلهم حتى مرُّوا بمنازل بني كنانة فقالوا : تهيئوا يابني كنانة للحرب ، فستعلمون مَن الفُرسانُ اليوم . ثم أقبلوا تعْنِق[4] بهم خيْلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلمَّا رأوه قالوا : والله إنَّ هذه لمكيدةٌ ماكانت العربُ تكيدُها[5] !

---

(١) المكالبة : المضايقة والتشديد . (٢) القرى : طعام الضعيف .

(٣) أى تهيئوا له . (٤) تعنق : تسرع .

(٥) قال ابن هشام : يقال إن سلمان الفارسى أشار به على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم تيمَّموا مكاناً ضيّقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، فجالت بهم فى السَّبخة بين الخندق وسَلْع، وخرج علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى نفرٍ معه من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثَّغرةَ التى أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفُرسان تُعنِق نحوهم.

وكان عمرو بن عبد وُدٍّ قد قاتلَ يوم بدر حتَّى أثبتته الجراحة فلم يشهدْ يومَ أحد. فلما كان يوم الخندق خرجَ مُعلِماً[1] ليُرى مكانُه فلمَّا وقف هو وخيله قال: مَن يُبارز؟ فبرز له على بن أبى طالبٍ فقال له: يا عمرو، إنَّك كنت قد عاهدتَ الله ألاَّ يدعوكَ رجلٌ من قريشٍ إلى إحدى خلَّتين إلاَّ أخذتَها منه. قال له: أجلْ! قال: فإنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. قال: لا حاجة لى بذلك. قال: فإنّى أدعوكَ إلى النزال، فقال له: لمَ يا ابنَ أخى؟ فوالله ما أحبُّ أن أقتلك. قال له علىّ: لكنّى والله أحبُّ أن أقتلَك! فحَمِىَ عمرو عند ذلك فاقتحمَ عن فرسه، فعقَره وضرب وجهه، ثم أقبلَ على علىٍّ، فتنازَلا وتجاوَلا، فقتله علىٌّ رضى الله عنه.

وخرجت خيلُهم منهزمةً حتى اقتحمت مِن الخندق هاربة.

وألقىَ عِكرمةُ بن أبى جهلٍ رُمحَه يومئذ وهو منهزمٌ عن عمرو، فقال حسان بن ثابتٍ فى هذا:

---

(١) المعلم: الذى يجعل لنفسه علامة فى الحرب يعرف بها.

فرَّ وألقى لنا رمحه لعلكَ عكرمَ لم تفْعلِ
وولَّيت تعدو كعَدْو الظَّليم ما إنْ تجور عن المَعدل[1]
ولم تَلْوظهرَك مستأنساً كأنَّ قفاكَ قفا فُرعُلِ[2]

وكان شعار[3] أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وبنى قريظة: «حم لا ينصرون».

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما وصفَ اللهُ من الخوف والشدة، لتظاهرُ عدوِّهم عليهم، وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

ثم إنّ نُعيم بنَ مسعود أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله، إنى قد أسلمت، وإنَّ قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنت فينا رجلٌ، واحد فخذِّل عنا[4] إن استطعت، فإن الحربَ خُدعة.

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة، وكان لهم نديماً فى الجاهلية، فقال: يا بنى قريظة، قد عرفتم ودِّى إياكم، وخاصةَ ما بينى وبينكم. قالوا: صدقت، لستَ عندنا بمتَّهم. فقال لهم: إنّ قريشاً وغطفانَ ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم،

---

(1) الظليم: ذكر النعام، وهو المثل فى الجبن. تجور: تحيد. المعدل: الطريق.
(2) الفرعل: الصغير من الضباع.
(3) الشعار: العلامة التى كانوا يتعارفون بها فى الحرب.
(4) أى ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضاً.

لا تقدرون على أن تحَوّلوا منه إلى غيره ، وإنّ قريشا وغطفانَ قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نُهزَةً أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلَّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقةَ لكم به إنْ خلا بكم . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهُناً من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ، ثقةً لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه . فقالوا له : لقد أشرتَ بالرأى !

ثم خرجَ حتى أتى قريشاً فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودّى لكم وفراقى محمدا ، وإنه قد بلغنى أمرٌ قد رأيت علىّ حقًّا أن أبلغكموه ، نصحاً لكم ، فاكتموا عنى فقالوا : نفعل . قال : تعلَّموا أنّ معشر يهودَ قد ندِموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلْنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضربَ أعناقهم ، ثم نكون معك على مَن بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : أن نَعَم . فإن بعثَتْ إليكم يهودُ يلتمسون منكم رُهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدا .

ثم خرج حتّ أتَى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، إنكم أصلى وعشيرتى ، وأحبُّ الناسِ الىّ ، ولا أراكم تتّهمونى . قالوا : صدقت ،

ما أنتَ عندنا بمتّهم. قال: فاكتموا عنّى. قالوا: نفعل. ثم قال لهم مثلَ ما قال لقريش، وحذّرهم ما حذّرهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوّال سنة خمس، وكان من صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أنْ أرسل أبو سفيان بنُ حرب ورءوسُ غطفانَ إلى بنى قريظة عِكرمةَ بنَ أبى جهل، فى نفرٍ من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنّا لسنا بدار مُقام، قد هلك الخفُّ والحافر[1]، فاغدوا للقتال حتى نناجزَ محمدا، ونفرغَ مما بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم: إنّ اليوم يوم السبت، وهو يومٌ لا نعمل فيه شيئا، وقد كان أحدثَ فيه بعضُنا حدَثاً فأصابَه ما لم يَخْفَ عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تُعطونا رهُناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا، حتى نناجزَ محمداً؛ فإنّا نخشى إنْ ضَرَستكم[2] الحربُ واشتدَّ عليكم القتالُ أن تَنْشمروا[3] إلى بلادكم، وتتركونا والرجلَ فى بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه!

فلمّا رجعت اليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريشٌ وغطفان: والله إنّ الذى حدّثكم نُعيم بن مسعودٍ لحقٌّ، فأرسِلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحدا من رجالنا، فإن كنتم

---

(١) الخف: الإبل. والحافر: الخيل.
(٢) ضرستكم: نالت منكم.
(٣) انشمروا: انقبضوا وأسرعوا إلى بلادهم.

تريدون القتـال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة ، حين انتهت الرسلُ إليهم بهذا : إنّ الذى ذكر لكم نعيم لحقٌّ ! ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصةً انتهزوها ، وإن كان غيرَ ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلَّوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم . فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنّا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تُعطونا رُهناً . فأَبَوا عليهم وخذّل الله بينهم ، وبعثَ الله عليهم الرِّيحَ فى ليالٍ شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيَتهم .

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم ، وما فرّق الله من جماعتهم ، دعا حذيفةَ بنَ اليمان ، فبعثَه اليهم لينظر ما فعل القومُ ليلا .

عن محمد بن كعب القرظى قال :

قال رجلٌ من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله ، أرأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ؟ قال : نعم ، يا ابن أخى . قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنّا نجهد . فقال : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . فقال حذيفة : يا بن أخى ، والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق وصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم هَوِيّاً من الليل[1] ،

(١) هو يا من الليل : قطعة منه .

ثم التفتَ إلينا فقال : مَن رجلٌ يقوم فينظر ما فعل القوم ثم يرجع — يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرَّجعة — أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنـة ؟ فما قام رجلٌ من القوم ، من شدَّة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يقم أحدٌ دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن لى بدٌ من القيام حين دعانى ، فقال : ياحذيفة ، اذهبْ فادخل فى القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تُحْدثنَّ شيئاً حتى تأتينا ! فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنودُ الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقِـرُّ لهم قِدراً ولا نارا ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر امرؤٌ مَن جليسُه ؟ قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان[1] .

ثم قال أبو سفيان : يا معشرَ قريش ، إنـَّكم والله ما أصبحتم بدارِ مُقام ، لقد هلَكَ الـكُراعُ والخفّ ، وأخلفَتْنا بنو قريظة ، وبلغَـنا عنهم الذى نكرَهُ ، ولقينا من شدَّة الرِّيح ما ترون ، ما تطمئنُّ لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحِـل .

ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أُطلِقَ عِقالُه إلاّ وهو قائم ، ولو لا عهدُ رسول الله

---

(١) فى شرح المواهب : « فضربت بيدى على يد الذى عن يمينى فأخذت بيده فقلت : من أنت ؟ قال : معاوية بن أبى سفيان . ثم ضربت بيدى على يد الذى عن شمالى ، فقلت : من أنت ؟ قال : عمرو بن العاص » .

صلى الله عليه وسلم إليَّ : «أن لا تحدث شيئا حتى تأتيني» ثم شئتُ لقتلتُـه بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائمٌ يصلي في مِرطٍ[1] لبعض نسائه مَراجلَ[2]، فلما رآني أدخلني إلى رجليه، وطرحَ عليَّ طرفَ المِرط ، ثم ركع وسجد وإنِّي لَفيه . فلما سلَّمَ أخبرتُه الخبر .

وسَمِعَتْ غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرفَ عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون ، ووضعوا السلاحَ .

تم الجزء الأول

من تهذيب السيرة

---

(١) المرط : الكساء .

(٢) المراجل : ضرب من وشي اليمن .



تم بحمد الله طبع هذا الجزء بمطابع دار سعد مصر بالقاهرة ؟

المدير
محمد حمدى سيد

١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م